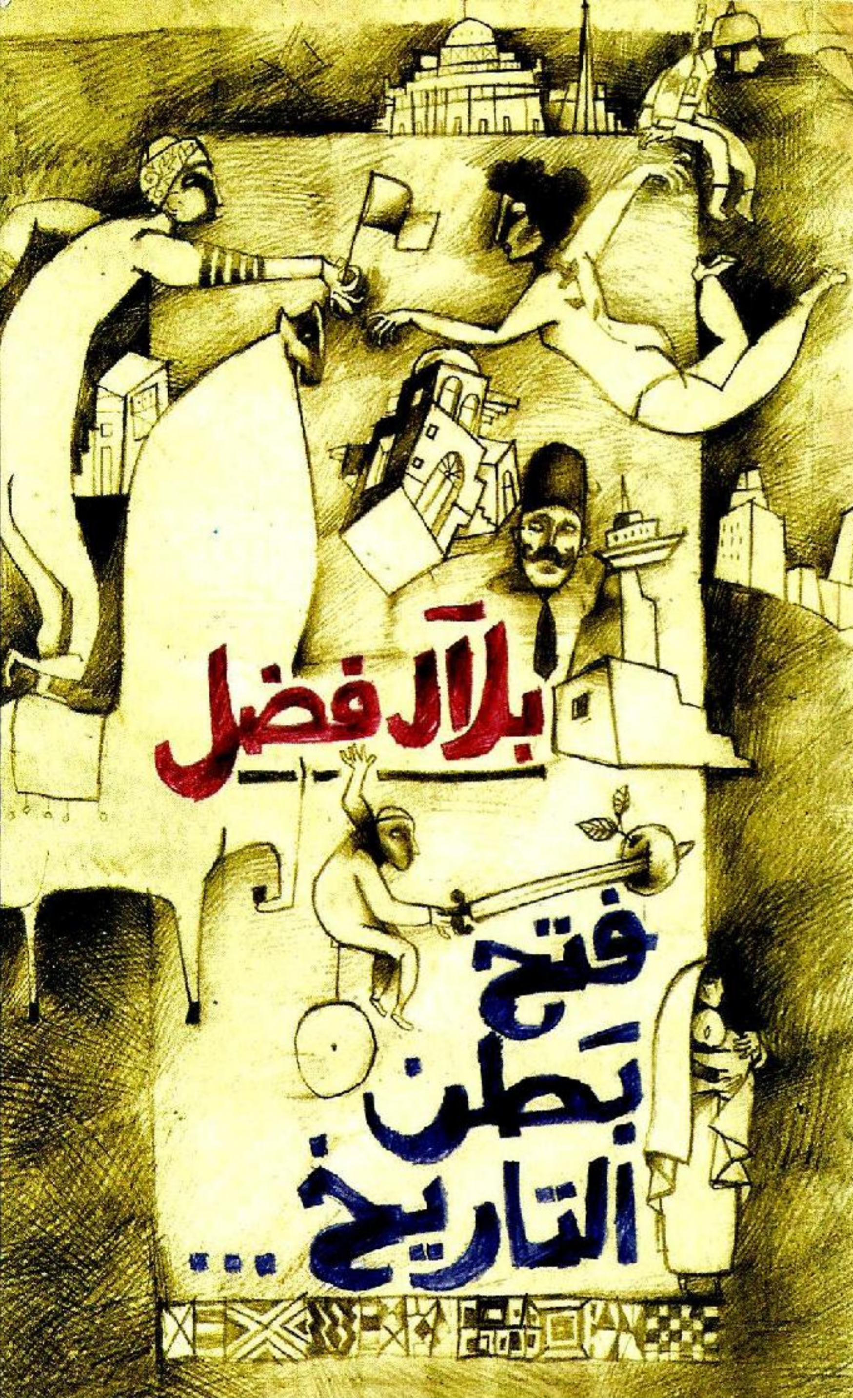


بلال فضل
فتح بطن التاريخ...

فتح بطن التاريخ

قراءات في تاريخنا الذي يَبِيض نفسه

بلال فضل

تصميم الغلاف: وليد طاهر

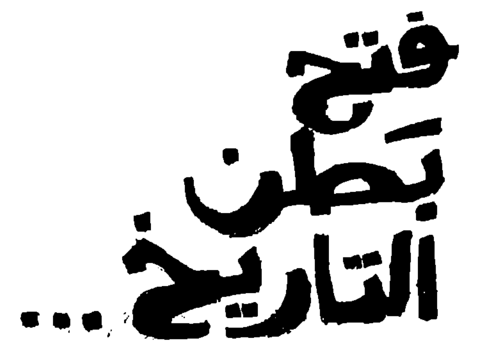
الطبعـة الأولى ٢٠١٤

تصنيف الكتاب: مقالات / تاريخ

٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقـم الإيداع ١٧٣٥٨/ ٢٠١٣
ISBN 978-977-09-3269-8

بلال فضل



قراءات في تاريخنا الذي يَبِيض نفسه

دار الشروق

إلى أول من علَّمتني أن كل شيء يبدأ وينتهي
بقراءة التاريخ وتأمُّله؛ أستاذتي الجليلة
الدكتورة عواطف عبدالرحمن،

وإلى أول من علمني كيف يمكن أن تكون
قراءة التاريخ ممتعة وشيقة؛ الراحل العظيم
ورائد أدب الأطفال كامل كيلاني،

عِرفانًا بفضلهما وتقديرًا لعطائهما

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾. **[الروم : ٩]**

«التاريخ يعيد نفسه: المرة الأولى على شكل مأساة، والثانية على شكل مهزلة».

كارل ماركس

«أحسنت في القول، صحيح يا ولد يا متنبي.. جبت اللي جوه الفؤاد عن مصر متعبِّي.. وحكمت بالعدل لكن بعضنا انظلموا.. «يا أمة ضحكت من جهلها الأمم».. العلم كان عندنا من صغره متربي.. لكنه هاجر وعدى البحر متخبي.. لما الإيران هجموا ثم اليونان هجموا.. ثم الرومان دمروا ثم التتار هدموا.. ثم الجميع كل واحد جه مسح قدمه.. على اسم مصر.

أنا الذي مشيت أدوّر باشتياق وحنين.. على مصر والمشي خدني من سنين لسنين.. لحد ما سنينها وسنيني بقُم واحد.. وعاصرتها يوم بيوم لمْ فاتني يوم واحد.. وحضرت شاهد عيان مولد وموت ملايين.. ما زعلت من كلمة قد «البركة في الجايين».. مين هم دول يا جدع؟! ما توحِّد الواحد.. البركة فينا وفي السامعين بالواحد.. أنا قلتها بنرفزة من غيرة الواحد.. على اسم مصر».

أبونا صلاح جاهين في مقاطع من ملحمته الخالدة «على اسم مصر»

«الذين لا يقرءون التاريخ محكوم عليهم أن يكرروه».

جورج سانتيانا

المحتويات

تقديمة ١١
فن إهدار الثورة.. ١٣
من كسر عرابي؟ ٢٣
ثورة من غير دموع ٣١
حَلَموا بيزيد الناقص فحكمهم مروان الحمار ٣٥
اشهد أنك ناقص.. ٤١
يا روايح الزمن الجميل.. الأبيح ٤٥
لا تأمنوا غضبة الفقراء ٥٢
حديث عن الثورة الناقصة.. ٥٦
مصر ليست فرنسا ٦٤
تقلبات الخلق أيام الثورات ٦٩
يا حسرةً على الرجال ٧٤
الواعظ المحتال ٧٨
ياريت تراضي الرجالة ٨٢
دايمًا دموع دموع ٨٦
هل كانت الثورة مؤامرة؟ ٩١
حدث ذات ثورة.. ٩٦
لا تخرج قبل أن تقول: عاش الهلال مع الصليب ١٠١

في عرض ساعة عدل واحدة........................ ١٠٦
روشتة مصطفى كامل.. الأولاني ١١٥
حتى ابن خلدون يقول لا لمبارك........................ ١١٨
المكالمة المهلكة........................ ١٢٥
رفع الإصر عن قضاة مصر........................ ١٢٩
إيش يعمل أمين الاحتساب.. وكافة أرباب الأصناف محمية؟... ١٣٦
على حطة يد الجبرتي........................ ١٥٦
أخلاق المثقفين في الزمن الذي لم يكن جميلا........................ ١٥٩
صندوق شيخ الإسلام ١٦٢
بيرم وأكذوبة الزمن الجميل........................ ١٦٥
فتنة الواعظ الرومي ١٧٢
دوامات النسيان........................ ١٧٦
حديث الساعة ١٨٠
لو كان الحل حلا ١٨٤
عن زمن الفن الجميل الذي لم يكن كذلك تماما ١٩٢
سلطة وحشيش وجمبري........................ ٢٠٦
لا تدعوها فإنها مستمرة........................ ٢٠٩
دستور ولا كل الدساتير ٢٢١
حكاية أثناء النوم........................ ٢٢٥
رسائل إلى ثائر حائر........................ ٢٣١

تقديمة

«لازم لها فتح بطن»، بهذه الجملة القصيرة المهيبة اعتاد الخيال الشعبي على تصوير مدى خطورة المرض الذي يُلِمّ بإنسان ما، فيصبح من العبث علاجه بالمسكنات والمهدئات والمضادات الحيوية، ويتوجب القيام بعملية جراحية لاستئصال ما يعانيه من علة.

كل شيء يحدث حولنا الآن «موجود في كتب التاريخ»، لسبب بسيط؛ هو أن كل شيء يحدث الآن حدث قبل ذلك، وكل شيء حدث قبل ذلك يتكرر الآن؛ لأنه لا أحد في الدول المتخلفة يفتح بطن التاريخ؛ ليتعلم من تجارب «الذين خلوا من قبله»؛ ولذلك يجد التاريخ لدينا أنه من الأسهل له أن يعيد نفسه بانتظام بدلا من أن ينشغل بصناعة أحداث جديدة، فهو يعلم أنه مهما أعاد نفسه، بل ومهما باض نفسه من جديد فلن يصرخ أحد في وجهه قائلا: «انتظر أيها التاريخ، فقد عشنا هذه الأحداث من قبل بحذافيرها، وعار عليك كل العار أن تكررها». ولذلك سنظل للأسف نعيش فخورين بتاريخنا دون أن نقوم بعمل عملية فتح بطن له تستأصل ما به من علل وأورام خبيثة، ومتصالحين مع آفة حارتنا التي شخَّصها حكيمنا المداوي نجيب

محفوظ عندما قال: «آفة حارتنا النسيان». لكننا نسينا ما قاله لأننا في مصر، وفي مصر كما قال أمير الشعراء: «كل شيء في مصر يُنسى بعد حين».

في هذا الكتاب ستجد محاولات لفتح بطن التاريخ وإنعاش الذاكرة ومقاومة النسيان نشرتها متفرقة على مدى سنوات، وبالطبع لم تغير من الواقع قيد أنملة، رغم أنها نشرت في صحف واسعة الانتشار، وبالطبع أيضا ليس عندي قيد أنملة من الظن أن تساهم في تغيير الواقع عند جمعها وطبعها في كتاب؛ لأن طبع النسيان يغلب التطبع والطباعة، ومع ذلك فغاية ما أتمناه أن تلفت فصول هذا الكتاب انتباهك ولو قيد أنملة إلى بعض ما جعل تاريخنا يَبِيض نفسه من فرط الإعادة، فيدفعك لأن تساهم في إيقاف تلك الإعادة الخنيقة بتغيير الواقع من حولك ولو قيد أنملة، إذ لربما جاء على مصر زمان يمسك فيه أحد أبنائك أو أحفادك بهذا الكتاب يوما ما ليقرأه، فيشعر بالفرحة العارمة لأن الواقع الذي يعيش فيه تغير كثيرا عن واقعنا اليوم، ولو حتى قيد عشرين ثلاثين... قول أربعين أنملة.

ربنا كريم، ومصر تستاهل.

فن إهدار الثورة

كانت ثورة عظيمة، لكنها لم تؤتِ كل ثمارها بسبب اختلال الأولويات وغياب الرؤية، بعدها مباشرة كان يمكن أن نسير في طريق بناء الدولة الوطنية المستقلة التي تمتلك مشروعا تنمويا علميا يجعلها في مصاف الدول المتقدمة، لكنها بدلا من أن تفرز مشروعا وطنيا واحدا تتعدد الاجتهادات في سبيل تحقيقه، أنتجت مشاريع متناقضة، كلها يظن أنه يحتكر الوطنية، وبدلا من أن تستمر روح القيادة الجماعية التي أدت إلى نجاحها وجعلها نموذجا مشرقا في تاريخ الثورات، غلبت عليها للأسف روح الصراعات، واستبد كل قائد من قادتها برأيه فدفعت مصر ثمنا باهظا بسبب ذلك، وفي خلال شهور اختفت روح الوحدة الوطنية التي كانت سمة غالبة على المصريين لتعلو نبرة الانشقاق في الشارع وتتطور إلى مصادمات عنيفة أدمت القلوب.

لا أتحدث عن ثورة الخامس والعشرين من يناير - حماها الله من كل سوء - بل أتحدث عن ثورة ١٩١٩ بالمناسبة، وإذا اندهشت من أنني أقول ذلك عنها وكنت تظنها ثورة كاملة الأوصاف تامة النجاح خالية من الشوائب والمنغصات، فأرجوك أن تقرأ كتابا مهما اسمه

«فصل مجهول من تاريخ ثورة ١٩١٩» للمؤرخ الكبير الدكتور حمادة محمود إسماعيل، صدر عام ١٩٩٤ عن سلسلة «مصر النهضة» التي تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب، لترى كيف تحوَّل اثنان من زعماء ثورة ١٩ وهما سعد زغلول وعدلي يكن من صديقين حميمين إلى عدوين لدودين بسبب اللجج في الخصومة واعتقاد كل منهما أنه يخدم الوطن أكثر من غيره، وعدم قدرة الاثنين ومن حولهما على الاتفاق على خارطة طريق وطنية يجتمع حولها المصريون، وفي حين كان الخلاف يستَعِر بين الاثنين وفريقيهما كان كل فريق حريصا على الحديث عن أهمية الاتحاد وخطورة الفرقة، لكن الموقف أخذ يتدهور يوما بعد يوم خاصة بعد أن بدأ تبادل الاتهامات في الخطب والتصريحات، وفي حين ينحاز بعض المؤرخين للفترة إلى سعد والبعض الآخر إلى عدلي، فإننا نجد رجلا معاصرا للفترة مثل أحمد شفيق باشا يكتب في «حوليات مصر السياسية» محملا المسئولية للرجلين معا وقائلا: لكن اللذَيْن وضعا أول حجر في اتحاد الأمة وأقاما عليه الأساس حتى كاد يكمل البناء مضيا في هدمه وقضه حجرا على حجر، واستمرا في خلافهما وهما يشعران بانحلال رابطة الأمة من حولهما ولا يرجعان عن خلافهما»، بالطبع كما يلاحظ الدكتور إسماعيل: «لم يقف الإنجليز مكتوفي الأيدي بل ساعدوا على إشعال هذا الخلاف بكل ما استطاعوا، حتى وصلت البلاد إلى طريق مسدود وجلست البلاد على برميل من البارود كان يكفيه عود ثقاب لينفجر».

في ٢٩ إبريل ١٩٢١ انفجر مرجل الغضب في طنطا عاصمة مديرية الغربية مسقط رأس سعد زغلول، كانت حكومة عدلي محرجة

ولـم ترغـب في إصـدار قرار بمنـع التظاهر لكـي لا تظهـر بمظهر من يحجـر على حرية التعبير، كان ذلك اليـوم يوافق يوم جمعة وكانت قد خرجـت بعد صـلاة الجمعة من المسـجد الأحمدي مظاهـرة صغيرة لبعـض طلاب المـدارس الثانويـة، وحصل احتكاك مـع بعض رجال البوليس بقيادة مأمور قسم طنطا الذي أصدر أمرا بتشتيت المتظاهرين برشهم بالماء، فرشقوا القسم بالحجارة ثم أحرقوا سيارة بوليس كانت متواجـدة أمام القسـم فأصدر حكمدار المديرية أمـرا بإطلاق النار في الهـواء للإرهاب، لكن جنديا مرتبكا أطلق النار على المتظاهرين فقتل اثنيـن فـي الحال وأصيـب أربعون، مـات اثنان منهم فيمـا بعد، واتجه بعـض المتظاهرين إلى منزل الحكمـدار لإحراقه لولا أن تدخلت قوة من الجيش المصري كانت قد استُدعيت من القاهرة على عجل لدعم قوة البوليس.

بعدها وللأسـف دخلت البلاد فـي دوامة عنف مجنون امتدت إلى القاهـرة بدءا من يوم ١٦ مايو ليسـقط عدد كبير مـن القتلى والجرحى فـي أول مصادمـات بين المصريين بعضهم بعضـا منذ ثورة ١٩، وكما يلاحـظ الدكتور إسـماعيل فقد «سـاعد علـى توتر الأمـور أن القاهرة كانـت تشـهد مظاهرات لعمـال العنابر وشـركة الترام الذيـن كان لهم مطالب مهنية منذ فترة لم تتحقق وعند عدم تحقيقها لجئوا إلى سـلاح المظاهرات والعنف فأضافوا بُعدا جديدا لهذه المظاهرات».

كان الموقـف قد اشـتعل عندما قبض حكمدار القاهرة على شـاب اسـمه أحمـد مختـار كان يتزعـم مجموعـة صغيـرة مـن المتظاهريـن فـي شـارع بـولاق، وبعد هـذه الحادثـة صـدرت أوامر حكوميـة بمنع

المظاهرات، واستشعر مجموعة من المحامين وأعضاء الهيئات النيابية خطورة الوضع في البلاد فوجهوا نداءً إلى الشعب بالتكاتف، لكن نداءهم لم يجد صدى، وفي يوم ١٨ مايو خرجت مظاهرة من منطقة الخازندار كان بها طلبة يحملون النبابيت والعصي واعتدوا على جنود قسم الأزبكية، وفي نفس الوقت قام شخص مجهول بعمل فرقعة نارية داخل قطار في شبرا وأطلق طلقات نارية وعندما حاول بعض الجنود القبض عليه تعرض جندي للطعن بمدية في رقبته، واشتعلت مواجهات في أحياء كثيرة في القاهرة أصيب فيها ثلاثة ضباط وتسعة جنود وستة من عمال الترام، لتتجدد المظاهرات في اليوم التالي وينتج عنها هذه المرة قتيل؛ هو موظف تم طعنه بسونكي، ويصاب عدد كبير من المدنيين والضباط والجنود، لتشتعل حرب شرسة ضد ضباط الشرطة وجنودها في يوم الجمعة ٢٠ مايو، وتعلن حكمدارية العاصمة أنها «تبذل كل جهدها للبحث عن بعض الضباط والصف والجنود الذين اختفوا عقب مظاهرات الجمعة، وأن الحكمدارية تخشى أن يكونوا قد قتلوا، ويبدو أن هؤلاء بسبب شدة المظاهرات اضطروا إلى الاختفاء في بعض الأماكن وهو ما أثار خوف وقلق الحكمدارية».

بعدها بيومين، وفي الإسكندرية، انفجر مرجل آخر للغضب انتهى بمأساة راح ضحيتها العديد من المصريين والأجانب، برغم أن عددا من الشخصيات الوطنية من أبناء الإسكندرية حاولت بكل جهدها السيطرة على الأمور لكي لا يقتل المصريون بعضهم بعضا، كان على رأس هؤلاء الأمير عمر طوسون أحد الشخصيات الوطنية التي كانت تحظى بتوافق كبير والذي أصدر نداء إلى أبناء الإسكندرية

جاء في نصه: «بلغني مع أشـد الأسـف ما حدث من بعض الأشخاص غير المسـئولين في أثناء المظاهرات السلمية مثل مهاجمة بيوت بعض المخالفين لكم في الرأي والتقاذف بالأحجار في الشوارع، الأمر الذي ما كنا ننتظر صدوره من أي مصري، ونحن قوم نريد الاستقلال ونطالب بالحرية، وأسـاس هذا المبدأ احترام كل فريق رأي الآخر وعدم الحظر على أحد وإن شـذ في رأيه وإذا لم نحترم هذا المبدأ فلماذا نشـكو من ضغـط الإنجليـز على حريتنـا ومصادرتهم لنـا في آرائنـا؟! وكيف بعد ذلك تريد طائفة منا إرغام مخالفيها على اتباع رأيها بالقوة؟! فأرجوكم أشـد الرجاء الإقلاع عـن هذه الخطة التـي تضر قضيتنا المقدسـة أكبر ضرر وتشين سمعتنا وتحط بكرامتنا، وأناشد كل مخلص لوطنه محب لبـلاده أن يجتهـد في منـع ما يلصـق التهم الباطلـة بنا، وإننـي لا أقول هـذا انحيـازا إلى جانب الـوزارة لأنني غير موافق علـى خطتها، ولكن الواجـب هو الـذي دفعني أن أبيـن لكم الخطر الذي ينجم عن سـلوك طائفـة منا في غير المسـلك القويم.. هدانا الله جميعـا إلى الصواب».

لكن أحدا للأسف الشديد لم يستجب لنداء الأمير عمر طوسون.

(٢)

إن أجمـل الثـورات وأنبلها وأكثرهـا قدرة على الوصـول بالأوطان إلى بر الأمان هي تلك التي يظل فيها الغضب حيا، ولكن فقط كوسـيلة لإيقـاد روحها حتى تتحقق كل أهدافهـا، ولا يتحول الغضب إلى هدف وغاية لها تجمع بين الذين شاركوا في الثورة عن قناعة وبين الذين وقفوا

يتفرجون عليها دون أن يشاركوا فيها كحلم، ثم لما نجحت انضموا إليها مشاركين فقط في روحها الغاضبة، ليصبحوا عبئا عليها بدلا أن يكونوا سببا في نجاحها، ويصيروا ذريعة يستند إليها بعض الذين شاركوا في الثورة منذ بدايتها لكنهم لا يمتلكون قدرة على تحديد الأولويات وجرد المكاسب وتوقع الخسائر، وعندما يتحد هذان الطرفان معا تخوض الثورات مأزقا صعبا حتى لو كان لها قادة نبلاء وحكماء، بل إن الظروف يمكن أن تجبر بعض القادة على المزايدة لكي لا يخسروا جماهيريتهم لدى الناس، وهنا فقط يصبح نجاح الثورات على المحك، ويصبح واجبا على الجميع أن يتحمل مسئوليته التاريخية في قول الحقيقة كما يراها دون حسابات، بدلا من أن يكتفي بالفرجة وهو يتمتم قائلا:
﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم ٥٧، ٥٨].

ولكي لا تظن أيضا، وبعض الظن ليس إثما، أنني أتحدث عما تواجهه ثورة الخامس والعشرين من يناير في هذه الفترة العصيبة التي لا تمر بغيرها البلاد، دعني أقل لك إنني لا زلت أتحدث عن تلك المرحلة الدقيقة التي واجهت ثورة ١٩١٩ العظيمة والتي خصص لها المؤرخ الدكتور حمادة محمود إسماعيل كتابه «فصل مجهول من تاريخ ثورة ١٩»، ليحكي لنا كيف تصاعدت الخلافات في عام ١٩٢١ بين الثائرين من أنصار سعد والثائرين من أنصار عدلي دون أن يدرك الجميع أن البلاد في حاجة إلى تكاتفهم حتى تخرج البلاد بأقل خسائر ممكنة في مفاوضاتها القادمة مع الإنجليز تمهيدا لنيل الاستقلال التام دون موت زؤام، وتعالت صيحات العقلاء من تيارات مختلفة مثل الأمير عمر طوسون والشيخ محمد ماضي أبو العزائم وعبد العزيز فهمي باشا وأخذوا يُذكرون الثائرين بأن يعودوا إلى روح الثورة التي

جمعتهم في مواجهة الإنجليز وجعلت الشعب المصري يهب من سبات عميق، لكن الجميع زايدوا بعضهم على بعض وقرر كل منهم أنه يمتلك الحقيقة المطلقة، فتحولت الخلافات إلى مصادمات عنيفة سقط فيها عشرات القتلى ومئات الجرحى وأحرقت مئات المنشآت وأصيب الأجانب بذعر دفع بعضهم لمغادرة البلاد و«تعطلت المصالح» طبقا لتعبير الصحف وقتها، بل وتحولت المظاهرات إلى «غيّة» ومزاج طبقا لتعبير السياسي البارز ذي الميول المحافظة عبد العزيز فهمي الذي قال في خطبة له وهو يصف كيف انحرفت الثورة عن مسارها قائلا: «تلاشت الروابط الأخلاقية فأصبح الصغير لا يوقر الكبير، والجاهل يستطيل على العالم، والزميل على زميله، والأخ على أخيه، والمرأة على زوجها، والابن على أبيه، وأصبح سباب الناس أمرا سائغا كأنه من الأغاني المليحة المرغوب فيها».

يومها اندلعت نيران الغضب في الإسكندرية بعد أن هدأت قليلا في القاهرة والمحافظات بسبب حادث تسبب فيه رجل يوناني أطلق النار على بعض الطلاب في حديقة الشلالات، وكما يقول الدكتور إسماعيل فقد أثار ذلك علامات استفهام وظلال شك حول نوايا بعض الأجانب ودورهم في هذه الحوادث وإشعال نارها.

لكن إذا كان هناك أجانب قد ساهموا فعلا في صب النار على الزيت فإن أولاد البلد أكملوا المهمة بنجاح ساحق، فقد تحولت كل الجنازات التي خرجت لتشييع من سقطوا في الأحداث إلى مصادمات جديدة يسقط عنها المزيد من القتلى والجرحى، واستفحلت المصادمات بين المصريين والأجانب في الإسكندرية بعد أن أشعل

فتيلها رجل يوناني أحمق، وخرج سعد زغلول بعد فوات الأوان لكي يحاول تهدئة النفوس ويناشد المصريين حماية حياة «الأورباويين» كما جاء في بيانه الذي لم يسمعه أحد في وقت صار الغضب الأعمى أنشودة هادرة لا يطلب غيرها المستمعون، وفشلت كل محاولات نزع فتيل الأزمة من قرارات حظر تجول وتحذيرات من النيابة العامة ومحاكمات عسكرية للمتسببين في الأحداث وفتاوى وعظات من علماء ورجال دين وبيانات من مثقفين تلوم الأغراض الشخصية لبعض السياسيين، ووجدت إنجلترا في كل ما حدث فرصة سانحة لربط ما حدث بالمفاوضات التي كانت مقبلة عليها مع المصريين لتحقق أهدافا سياسية كانت تتمناها.

وبعد أن كان حزب الوفد حريصا على إشعال طاقة الغضب لدى الجماهير في صراعه مع عدلي وصحبه أخذ يوالي إصدار البيانات التي تناشد الجميع الحكمة والتعقل ويتحدث عن أسفه على ما يجري، محملا المسئولية للبوليس وتدخلاته، في حين دخل الحزب الوطني على الخط ليصدر بيانا يهاجم فيه الجميع بما فيه حزب الوفد الذي يقبل بمبدأ المفاوضات، «أما الحزب الديمقراطي الذي كان حديث عهد بالظهور على المسرح السياسي فقد حاول من خلال الحوادث أن يوجد لنفسه طريقا لإثبات وجوده»، وأخيرا تضافرت كل الجهود السياسية والشعبية لكي تتوقف المصادمات، ولكن بعد أن أوقعت ٦٠ قتيلا و٢١٠ جرحى.

في تقييمه لما حدث يقول الدكتور حمادة إسماعيل إن الطريق إلى تلك الحوادث المؤسفة كان وراءه «الصراع الذي نشب بين سعد وعدلي وإصرار الأول على أن يكون وكيل الأمة منذ سنة ١٩

وأن يكـون - بناء على ذلك - رئيس وفد المفاوضات، وإصرار الثاني بمـا أنـه رئيس للوزراء فلا بـد أن يكون رئيس هذا الوفـد، هذا الصراع وهـذا التهافت علـى من يدير دفة المفاوضات أدى إلى انشـطار البلاد ما بيـن مؤيـد لسـعد ومؤيد لعدلـي، فوقعت البلاد فريسـة للانقسـام، وحدث هذا الشرخ في البناء الوطني، وساعد على تفاقم الأمور تخبط وزارة عدلـي ما بيـن تـرك الحبل للمظاهـرات حتى لا يحـدث صدام مـع أنصار سـعد وبين ضربهـا للمظاهـرات بقوة مفرطـة عندما زادت عـن حدهـا، كما زاد في إشـعال الأمور ما كانت تعانيـه البلاد من أزمة اقتصادية ومشاكل خاصة بأرباب بعض المهن ومشاكل خاصة ببعض المناطـق كالإسـكندرية، وكلهـا عوامـل طعّمت تلك الحـوادث بقوة دفع جديدة».

كانـت بريطانيـا هي المسـتفيد الأول من كل ما حـدث؛ فقد أثبتت أن مصر عاجزة عن حماية الأجانب الذين يعيشـون على أرضها، وهو ما جعلها تقدِم على إصدار تصريح ٢٨ فبراير المشـئوم الذي خططت لـه منـذ أواخـر ١٩١٩، والـذي اعتبره الجميـع ضربة قاصمـة لنجاح ثورة ١٩، لكن ينبغي القول إنه لولا أن الشعب المصري بمثقفيه ونخبه وطوائفه أثبت في تلك الأيام يقظة لا تقل عن يقظته في ١٩١٩ بعد أن أحـس بخطورة ما يحيق بقضيته الوطنية لكان الثمن الذي تدفعه البلاد أكثر بكثير.

هـل عرفنـا الآن لماذا لـم تحقق ثـورة ١٩ كل أهدافهـا؟ ولماذا لم تسـفر عن حيـاة ديمقراطية سـليمة بفعـل المـادة التي تـم إقحامها في دسـتور ١٩٢٣ والتـي تعطي للملـك حق إقالة الوزارة متى شـاء؛ وهي

مادة لم يكن ممكنا أن تمر لو كان هناك توافق وطني شامل وتطبيق لمبدأ «مشاركة لا مغالبة»؟ هل عرفنا كيف راحت دماء شهداء ثورة ١٩ هدرا عندما غرقت البلاد في دوامة من التخبط السياسي والفساد الاقتصادي والتفكك الاجتماعي جعلت الملايين فيما بعد يصفقون من قلوبهم لضرب الحياة النيابية وإلغاء الأحزاب وإسقاط الدستور وحكم العسكر الذي تحول إلى حكم الفرد بعد أن ظن الناس أن كل ما جرى لهم من مشاكل وأزمات كان بسبب الحرية؟ وهنا دخلت البلاد منعطفا جديدا لم تنفعنا فيه النوايا الحسنة ولا الشعارات النبيلة، وانتقلنا من سيئ إلى أسوأ حتى جاءت ثورة الخامس والعشرين من يناير لتنقذ هذه البلاد من ثورة جياع مدمرة لا يعلمها إلا الله، وتفتح بابا لتحقيق حلم الديمقراطية والدولة البرلمانية وإنهاء حكم الفرد إلى الأبد، فهل يساعد بعضنا بعضا على الدخول من هذا الباب ونغلق كافة الأبواب التي نفتحها على أنفسنا برغم أنها تبدو مشروعة ونبيلة، لكنها يمكن أن تبعدنا عن الباب الوحيد الذي سيحقق لنا كل ما نتمناه حتى لو تأخر بعضه قليلا؛ باب الديمقراطية وتداول السلطة سلميا، وهو الحل الوحيد الذي وجده الإنسان المعاصر لجعل الحياة أكثر احتمالا؟!

هل ندرك ذلك فنكون صرحاء مع أنفسنا؟ أم نكتفي بمزايدة بعضنا على بعض؟ بينما يفضل العقلاء الصمت مرددين: ﴿ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ۝٥٧ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾، فنضيع بذلك ثورة جديدة ونحولها بأيدينا هذه المرة إلى ثورة جياع تلتهم الأخضر واليابس.

ألا هل بلغت، اللهم فاشهد.

(نُشرت في صحيفة المصري اليوم يومَي ١١ و١٢ إبريل ٢٠١١ عقب شهرين من خلع حسني مبارك).

من كسر عرابي؟

هـل نحن قادرون على إقنـاع الناس بموهبتنا في بنـاء نظام جديد، كما كنا موهوبين في هدم النظام الفاسد؟ هذا هو السؤال الذي أتصور أنـه يواجـه الآن كل القيـادات الشـابة لثـورة ينايـر الذين يعلـق عليهم المصريون آمالا عريضة في أن يكونوا رجال سياسـة بارعين كما كانوا رجـال ثـورة شـجعانًا، وأن يكونوا مشـاريع واعدة لقـادة دولة تخلف دولـة العواجيـز التي يبـدو أن أوان رحيلها لـم يئن بعـد كما كان يتمنى الخال الأبنودي.

للأسـف، أعتقـد أن بعـض الثوار الشـباب ما زالوا مشـغولين أكثر بسُـكنى الواقع الافتراضي بديلا عن الواقع الحي؛ ولذلك لـم ينجحوا فـي بنـاء علاقـة حميمـة مع الشـارع، لسـت أقلـل مـن أهميـة الواقع الافتراضـي الـذي لا يمكـن إغفـال دوره في ثـورة ينايـر، لكنني أذكر أن ذلـك الواقـع الافتراضي كان فعـالا عندما كانـت الحركة محظورة فـي الواقع الحي، أما وقد تحـرك الواقع الحي وانفتحت شـرايينه فإن الغلبـة اليـوم سـتكون لمن يتحـرك فقط فـي الواقع الحي، ويسـتخدم

الواقع الافتراضي كأداة لمساعدته في هذه الحركة للوصول إلى غايته في تحقيق أهداف الثورة، لا أن يصبح الواقع الافتراضي هو الغاية والوسيلة في آن واحد.

اتصلتْ بي سيدة فاضلة تبلغ من العمر خمسة وستين عاما واستحلفتني بالله أن أوصل صوتها لأحد قادة الحركات الشبابية الثورية الذي استمعتْ إليه في أحد البرامج وفوجئتْ على حد تعبيرها به يتحدث بنبرة متعجرفة، ولذلك قالت لي: «يا ابني ده إحنا ما كانش حد واقف نفسنا في الحياة غير العنطزة والتكشير فين الوشوش السمحة الضاحكة اللي كنا بنشوفها في التحرير بتثور وهي بتضحك وبتفتح في وشوشنا الأمل؟!»، تصادف أن كنت أشاهد مثلها صديقنا الشاب وسط جمع من الناس أطلق أغلبهم تعليقات مشابهة على أدائه وعلى أداء بعض زملائه، لكنني دافعت لدى السيدة - ولدى الجمع أيضا - عن ذلك الشاب الذي أعلم وطنيته وحماسه ورغبته في الإصلاح، لكنني أعلم أيضا أنه وبعض رفاقه يتعرضون لضغوط ومزايدات من بعض أفراد الوسط الذي يتحركون فيه تفرض عليهم أن يبدوا أحيانا أكثر ثورية من الجميع.

قلت للجميع: لقد تحملتم من كان يقول لكم كلاما معسولا رقيقا، ثم اتضح أنه يسرقنا ويلسعنا - ولا مؤاخذة - على أقفيتنا، ومع ذلك صبرتم عليه ثلاثين عاما، لماذا لا تعطون هذا الجيل فرصته لكي يتعلم ويتطور، خاصة وأنكم تعلمون أنه لا يمتلك مصالح ولا حسابات، وأنه حتى إن أخطأ فهو يتحدث للصالح العام وليس

من أجل مصلحة شخصية؟ ألا يشفع لهم ما قدموه؟ أم أننا فجأة عندما بدأنا نتمتع بالحرية السياسية قررنا أن نطلب من شباب حديث العهد بالسياسة أن يكون مدربا على التعامل مع الجماهير العريضة؟ قلت الذي فيه النصيب فسمعت همهمة من هنا وغمغمة من هناك، وأكثر ما توقفت عنه كانت جملة قال صاحبها: «إحنا ناقصين حد يتعلم فينا.. ده إحنا استوينا خلاص»، ظللت أفكر فيما سمعته وقلت في عقل بالي: «ستكون حقا داهية لو قررتْ غالبية الشعب أن تمارس حقها في الرفض في مواجهة هؤلاء الثوار الذين استردوا لها حريتها وخلصوها من الاستبداد.. حصلت كثيرا في التاريخ.. هل يتذكر أحد الآن أن عبد الرحمن فهمي كان البطل الحقيقي لثورة ١٩؟ هل يتذكر الجميع الآن بطولة يوسف صديق في ثورة يوليو؟ حتى لو افترضنا أن الثورة لن يتم سرقتها من جموع المصريين.. هل يمكن أن تضيع فرصة جني ثمارها على الثوار الذين إذا لم يطوروا أنفسهم وأداءهم يمكن أن يجدوا أنفسهم وقد سبقتهم الثورة؟ خصوصا في هذه اللحظات الحرجة التي يريد الناس فيها أن يسلكوا سبيل الخلاص بأي ثمن».

اتصلت بصديقي الشاب وحكيت له كل ما سمعته تعليقا على أدائه وعلى مداخلاته هو وعدد من رفاقه الذين يعلم الله كم أحبهم، ويشهد الله أنه تأثر كثيرا بما سمعه وطلب مني رقم تلك السيدة ليتصل بها ويعتذر لها، وهو ما شجعني على أن أقول له بحب هو يعلمه والله يعلمه: «يا صديقي أنتم الآن في سباق مع الزمن ليس هدفه الانتخابات، بل هدفه كسب قلوب الناس الذين يعانون من حالة رهيبة من الفراغ السياسي والنفسي، ويحتاجون لمن يشعرون بالأمل، يا صديقي أنتم

تستحقون أن تقودوا هذه البلاد لأنكم ضحيتم من أجل تغييرها، لكنكم لو لم تدركوا أن هذه المرحلة تتطلب أداءً إعلاميا وسياسيا مختلفا عن الفترة الأولى للثورة فإنكم ستخطئون خطأ جسيما، يا صديقي أنا آخر من يتحدث عن الحكمة والعقلانية، لكنني في النهاية كاتب فرد إن أخطأ فسيتحمل مسئولية أخطائه لوحده، لكنكم للأسف إذا لم تطوروا من أدائكم الإعلامي والسياسي سريعا فستدفع الثورة ومطالبها وأهدافها ثمن ذلك، وربما أتحتم الفرصة لغيركم من الانتهازيين المدربين على اقتناص الفُرص أن يجنوا ثمار هذه الثورة ويتواصلوا مع الناس لكسب ثقتهم وولائهم بسبب قصوركم وتخبط أدائكم». كنت أريد أن أواصل حديثي مع الشاب الجميل لأحكي له ما قرأته عن مصير الثائر أحمد عرابي لكنني لمحت علامات الضيق على وجهه فخفت أن أكون قد أطلت، أو بمعنى أصح خشيت أن يظن أنني «أبشر في وجهه» أو «أكسر مقاديفه»، فقررت أن أحكي ذلك هنا لأن ما بيننا من عشم يجعلك تتقبل إطالتي عليك بين الحين والآخر، كما أنك تعودت على فهمي خطأً، وربنا ما يقطع عادة بيننا.

أنت طبعا تسمع عن الزعيم أحمد عرابي رحمه الله، وتسمع دائما أن الوَلْس كسر عرابي وأن الخيانة التي تعرض لها هي التي أجهضت ثورته وأدت إلى دخول الاحتلال الإنجليزي إلى مصر، ولعلك تعتبر أن ذلك من المسلمات التاريخية التي يتفق عليها المؤرخون، ربما لأنه من المريح أن نجد سببا دراميا كالخيانة لتبرير انكسار حالم عظيم مثل عرابي، لكن دعني أقل لك إن المؤرخ المصري الكبير

عبد الرحمن الرافعي لديه تفسير آخر يرى فيه أن الغرور وحده هو الذي كسر عرابي.

يقول الرافعي في كتابه «الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي» الصادر عن دار المعارف: «كان عرابي بلا نزاع ذا شخصية جذابة تؤثر في الأفراد والجماعات، ولولا هذه الموهبة لما استطاع أن يجتذب إليه محبة ضباط الجيش وجمهرة الأمة وينال ثقتهم ويملي إرادته عليهم.. على أنه إلى جانب ذلك لم يكن على حظ كبير من الكفاءة السياسية وبُعد النظر، ومن هنا جاء شططه في كثير من المَواطن، وعدم تقديره للأمور وملابساتها، وعرابي معذور في ذلك لأنه لم ينل حظا كبيرا من الثقافة والإلمام بشئون السياسة وأطوارها، ولم يُعلم نفسه بنفسه تعليما ناضجا، ولم يكن من العبقرية بما يغنيه عن الدرس والاطلاع والتحصيل، ولم يكن لديه محصول علمي يكفيه لتكوين الرأس المدبر للثورات، القدير على تذليل المعضلات وحسن التصرف فيما يعرض على البلاد من أحداث وأزمات.

فالفرق كبير من هذه الناحية بينه وبين كافور مثلا في إيطاليا، أو واشنطون في أمريكا، أو كوشيسكو في بولونيا، أو كوشوت في المجر، ولو وفقت الثورة إلى زعيم مثل كافور لسارت في سبيل الفوز، ولعرف كيف يدير دفة السفينة بمهارة وكفاية. قد يكون لعرابي بعض الشبه بجاريبلدي في قلة المحصول العلمي والسياسي، ولكن جاريبلدي كان يفوقه كثيرا في الشجاعة والوطنية والتضحية، ثم إن جاريبلدي كان يترك لرجال السياسة تصريف المعضلات السياسية،

أمـا عرابي فقـد كان على جانـب كبير من الغـرور والاعتـداد بالنفس؛ إذ كان يعتقـد في نفسـه القـدرة على تصريف الشـئون السياسـية كافة، ولو أنه عرف قدر نفسـه واسـتعان برجل من معاصريه قدير في شـئون السياسـة كشـريف باشـا، لكان ممكنا أن تسـير الثورة في سبيل النجاح إلى النهاية، ولكنه على العكس قد عمل على التخلص منه حتى أقصاه عـن الوزارة، فخسـرت الثورة الـرأس المفكر الذي كان يسـتطيع تفهم الحوادث والملابسـات السياسية، وقيادة السـفينة وسط الخضم الذي كانت تموج فيه».

ويضيـف عرابـي قائـلا: «كان عرابي على جانب كبيـر من الغرور، وقد كان ذلك من العوامل الفعالة في اتجاهه السياسـي، والأمثلة على غروره كثيرة، فمن ذلك أنه حين تحفزت إنجلترا لضرب الإسـكندرية أبـان له بعض مواطنيه ضرر الحرب وسـوء مسـتقبلها، كان يقول: «أنا أقـوى من دولة فرنسـا»، وكان ظنه أن الإنجليـز لا طاقة لهم على قتال البـر، وأن قوتهم محصورة في البحر، وفي ذلك كان يردد هو وأنصاره كلمتهم المأثورة: «الإنجليز كالسمك إذا خرج من البحر هلك»، وهذا من الغرور الناشـئ عن الجهل لا محالـة. وكان يُصرح بأنه لن يخضع لأوربا أو لتركيا ويقول: «فليرسلوا لنا جيوشا أوربية أو هندية أو تركية فإني ما دمت وبي رمق فإني سأدافع عن بلادي، وعندما نموت جميعا يمكنهـم أن يمتلكـوا البـلاد وهي خـراب»، وقد رأيـت أن الغرور هو الذي أملى عليه هذه العبارات الفخمة».

لا أريـد أن أنقـل كل ما قالـه الرافعي عن عرابي مـع أنه اعتمد فقط على شـهادات المعاصرين له، مثل الإمام محمد عبده والمسـتر بلنت

الـذي تولى مسـئولية الدفاع عنه، لكن يجب التنبيـه إلى أن الرافعي لم يكــن من المعجبين بعرابي بوصفه واحدا مــن قيادات الحزب الوطني الذي يرى أن عرابي كان سبب دخول الاحتلال الإنجليزي إلى مصر، لكنــك عندما تقـرأ الآراء المعارضة للرافعي والتي يتجسـد أبرز مثلين لها فيما كتبه الأستاذ محمود الخفيف في كتابه «عرابي المفترَى عليه» والأسـتاذ حســن حافظ في كتابه «الثورة العرابية في الميزان» فسـتجد أن الاثنيــن حاول كل منهما أن يكــون منصفا وهو يتحدث عن عرابي، لكنهمـا لم يجـدا ردودا مقنعة علـى ما قاله الرافعي في هـذه الجزئية، بـل واقتصر دفاعهمـا عن عرابي على التأكيد على وطنيته وسـوء حظه وسـوء الظروف المحيطة به، وكل ذلك لم يشـكل فـي رأيي ردا مقنعا لمـا قالـه الرافعي عن غرور عرابي وحرصه علـى الانفراد بالقرار دون مشاورة المتخصصين.

يبقــى أن أقول لــك إن عرابي الذي كان يملأ الأرض ثقة في نفســه وتيهـا واعتقـادا بأنه يمسـك بكل مقاليـد الأمـور، وكان يمتلك - كما يقـول الرافعـي - «روحـا مملـوءة غرورا»، انتهـى به الحـال إلى نهاية مشـينة جعلته في عز سـخط البلاد على الاحتلال الإنجليزي وسياسته يدلي بحديث لصحيفة المقطم عدد ٣ أكتوبر ١٩٠١ أيد فيه الاحتلال وسياسـته لكي يتمكن من العـودة من منفاه الذي كتبـت عنه الدكتورة لطيفة سالم كتابا حزينا جدا هو «عرابي ورفاقه في جنة آدم»، هنا يعلق الرافعي قائلا: «وبذلك بدا الفرق بينه وبين محمود سامي البارودي في هـذه الناحية، فقد لزم البـارودي العزلة بعد عودته وامتنع عن الخوض

في الأحاديث السياسية، وكان ذلك منه عين الحكمة والصواب، أما عرابي فلم تفارقه الثرثرة التي لازمته من قبل فجلب على نفسه سخط الصحافة والرأي العام».

ما الذي أريد أن أقوله من كل هذا الكلام؟ طيب، حاضر، سأختم أهوه حالا، باختصار.. ولا بلاش باختصار أحسن تزعل، يمكنك أن تنسى كل ما ذكرته لك آنفا، لكن أرجوك حاول أن تتذكر أنك إذا كنت قد تعودت على الدوام أن يكون لك عدو، فتذكر بعد انتصارك عليه أن أعدى أعدائك أحيانا قد يكون نفسك.

إبريل ٢٠١١

ثورة من غير دموع

يقولـون: «الحكـم على الشـيء فرع عـن تصـوره»؛ ولذلك عندما تسـمع أحـدا يحكـم على ثـورة يناير بالفشـل فـإن أمامـك اختيارين. الأول أن تكبـر دماغك وتقول: «وهي كانت ثورة أبويا؟»، وتواصل ما ينبغي عليك فعله من أجل أن تكون حياة الوطن أقل سوءا، والثاني أن تضيع وقتك وتسـأله عن تصوره لفكـرة الثورة أصلا لتعرف ما إذا كان حكمه على ثورة يناير بالفشل نابعا من رغبة تافهة في المكايدة والتنابز بالثورات، أم من سخط على عدم انصلاح الأحوال كما كان يرجو.

دائمـا أكـرر نصيحتي: عندمـا تكون في ثورة لا تنصـح أحدا، ومع ذلـك طالما أنت مصمـم، نصيحتي الثانيـة التي أكررها دائمـا: الحياة قصيـرة، ولذلك لا تسـاهم في تقصيرهـا أكثر بالدخول في مناقشـات عبثية حول حقيقة الأشياء، لأن تغيير الواقع بجعله أقل سوءا أهم بكثير من الانشـغال بما سـيكتبه التاريخ عن ذلك الواقع، صدقني ستندهش مـن قدرة التاريخ على تغيير رأيه، ومـن قابليته لإنصاف البعض وظلم البعض ظلما مؤقتا دون أسـباب مقنعة، ولكـي لا أبدو عدميا - مع أن ذلك ليس عيبا - دعني أؤكد أنه على حد قراءاتي التاريخية المتواضعة،

لم أجد واقعة تاريخية تمت إدانتها أو الحكم عليها بشكل سلبي دون أن يأتي من يقدم نظرة معاكسة لتلك الإدانة ويساعد على قراءتها بشكل مختلف، المشكلة أن بعض الوقائع التاريخية تكون محظوظة عندما تتبنى غالبية الناس القراءة المنصفة لها سريعا، والبعض ينتظر طويلا حتى يحدث له ذلك.

قبل أيام مرت ذكرى الثائر المصري الأكثر حضورا في الوجدان أحمد عرابي، والذي بات يعلم الكثيرون - ولو حتى من المسلسلات وكتب المطالعة - أنه تعرض للخيانة والهزيمة والظلم و«الكسر»، لكن أغلبهم ربما لا يعلمون أن أبرز من عادوا عرابي ولعنوه كان ثائرا آخر يحتل مكانه في الوجدان الشعبي إلى جوار عرابي بحكم التسلسل التاريخي، وهو زعيم الحزب الوطني «الأصلي» مصطفى كامل؛ الذي لطالما شن حملات شرسة ضد عرابي اتهمه فيها بالخيانة لأنه تسبب في احتلال الإنجليز لمصر، لدرجة أن عرابي عندما عاد إلى مصر سنة ١٩٠١ وهو على مشارف السبعين قضى حتى وفاته عشر سنوات بالغة التعاسة زادها سوءا اضطهاد بعض شباب الحزب الوطني الذين كانوا يحرصون على الذهاب إليه في مقهى تعود أن يجلس فيه بميدان لاظوغلي فيبصقون على وجهه وينصرفون سعداء بإهانتهم للخائن عرابي.

للاستزادة اقرأ ما كتبه الكاتب الكبير رجاء النقاش في كتابه «رجال من بلادي» عن ظروف محاولة المؤرخ العظيم محمود الخفيف إنصاف عرابي في كتابه «عرابي المفترى عليه»؛ والذي تم منعه من النشر على حلقات في مجلة الرسالة عام ١٩٣٩ إرضاء للقصر والإنجليز، ولم يتمكن محمود الخفيف من نشره كاملا إلا في عام

١٩٤٧، ولولا أن السلطة التي حكمت مصر بعد يوليو ١٩٥٢ وجدت أن من مصلحتها إحياء فكرة الدور الوطني لضباط الجيش في السياسة، لما كان أحمد عرابي ربما قد تعرض للإنصاف، ولما وجدت سيرته طريقها إلى كتب التاريخ وجدران المدارس ووجدان الملايين.

في ظني وليس كل الظن إثما أن بعض سوء الفهم الذي تعاني منه ثورة يناير لدى البعض الآن هو من بركات ثورة يوليو التي خلقت انطباعا رائجا مفاده أن الثورة الناجحة هي تلك التي تفرز حاكما «دكر» يضع أعداء الثورة في السجون ويعلقهم على المشانق ويصدر مجموعة قرارات ثورية تغير حياة الشعب إلى الأفضل دون أن يضطر الشعب إلى ترديد سؤال «هي الثورة عملت لنا إيه؟»، وهو المعنى الذي عبر عنه الفنان محمد عبد الوهاب في إحدى أغانيه الوطنية التي لم يكن بعضها بنفس قدر عظمته حين قال في مدح ثورة يوليو: «وشفنا ثورة من غير دموع»، ربما لأنه كان مع حسين السيد كاتب الأغنية يريدان منح أفضلية ليوليو على سابقتها ثورة ١٩ التي كانت مليئة بالدموع والدماء والمنعطفات المرهقة، لدرجة أن أحد أبرز مؤرخيها الشيخ عبد الوهاب النجار عندما كتب كتابا عن يومياتها الدامية اختار له اسم «الأيام الحمراء».

من حقك طبعا أن تشارك عبد الوهاب في تصوره «الطيب» للثورة «خالية الدموع»، لكن طبيعة الثورات الشعبية الحقيقية ستختلف معك، لعلك مللت من الاستشهاد بالثورة الفرنسية التي ستكشف لك قراءة تاريخها أنها كانت مجموعة متتالية من الموجات الثورية التي كانت تقوم دائما لتصحيح مسار الثورة وتحقيق المطالب التي ثار من

أجلها الفرنسيون أول مرة، ولذلك سأحدثك عن الثورة الأمريكية التي يروج انطباع عن كونها الأكمل والأنجح والأسرع تحقيقا للإنجازات، وهو ما يكشف خطأه على سبيل المثال كتاب «الأمريكيون الجوامح» للمؤرخ وودي هولتون - صدر بترجمة الدكتور أبو يعرب المرزوقي عن مشروع كلمة - والذي يحكي كيف تلاشت سريعا تلك الآمال التي غمرت الأمريكيين بعد انتصارهم الباهر على الإمبراطورية البريطانية ليترك تفاؤلهم مكانه لليأس، حتى إن وثيقة شهيرة أصدرها المزارعون الأمريكان في ١٧٨٦ قالت بالنص: «إن العامل الشريف الذي يمهد الأرض بعرق جبينه يبدو إلى حد الآن الوحيد المعذب من الثورة التي كان ينبغي أن تكون مجيدة والتي لم يحصد ثمراتها إلا من لا يستحق».

بالتأكيد يبدو لك تعبير «كان ينبغي أن تكون مجيدة» مألوفا؛ لأنه سيذكرك بتعبير «وكأن ثورة لم تقم»؛ الذي يردده الكثيرون أسفا على أحوالنا، ولو عقل هؤلاء ما يقولونه وفضّلوا التفكير والتعقل على الطاقة السلبية واستسهال الإحباط، لأدركوا أن كل الشعوب التي سبقتنا إلى الثورات الحقيقية التي تسيل فيها الدموع وتنزف فيها الدماء أصابها التعب والملل بل واليأس أحيانا، ثم أثبت لها الواقع بتقلباته وتعقيداته أنه لا يمكن لتضحيات الشعوب أن تذهب هدرا، فقط إذا ظلت مصممة على امتلاك قرارها وتحرير إرادتها ومواجهة أخطائها، عندها سيكون من حقها أن تجني ثمار ثورتها أو ما تيسر منها تاركة ما يتبقى لكفاح الأجيال المتعاقبة، فالله لا يظلم الناس، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

سبتمبر ٢٠١٣

حَلَموا بيزيد الناقص فحكمهم مروان الحمار

ما أحوجنا اليوم إلى أن يحكمنا يزيد الناقص.

الفرق بين يزيد الناقص وبين الحكام العرب أنه كان ناقصا من حيث الاسم فقط. وهو نقصٌ مقدور عليه في كل الأحوال.

اسمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، لم يسموه بالناقص لأنه باع شعبه وبلاده بالرخيص، أو لأنه فتحها على البهلي للفرنجة، أو لأنه أكل مال النبي وحلّى بمال الصحابة، بل لأنه أنقص رواتب الجنود؛ لأنه رأى أنهم لا يستحقونها. عندما قرأت سيرته في كتاب المفكر العراقي الراحل هادي العلوي «شخصيات غير قلقة في الإسلام» أدركت أن ما نحن فيه من «عِشرة» مع الاستبداد وحنين إلى الحكم الفاسد ليس وليد اللحظة، بل هو للأسف كامن في جيناتنا كأمة تعشق التخلص من أفضل ما فيها؛ ولذلك قتلت يزيد الناقص الذي كان يمكن أن يكون أعدل حاكم شهده تاريخ الأرض قاطبة.

بوصول يزيد إلى الحكم كانت المعارضة المتمثلة في طائفة القَدَرية التي أسسها معبد الجهني، أحد تلاميذ أبي ذر الغفاري رضي

الله عنه، قد نجحت في إنجاز ثاني انقلاب سلمي خلال العهد الأموي. كان يزيد قد تأثر بأفكار القدريين الذين رفعوا شعار أن الإنسان خالق لأفعاله ومسئول عنها، وأنه مُخَيَّر لا مُسَيَّر؛ كرد فعل لمذهب الجبرية الذي تبناه الأمويون لتبرير سياساتهم الجائرة. قبله كان القدريون قد نجحوا في تجنيد خليفة أموي سابق هو معاوية الثاني ابن يزيد بن معاوية، وذلك من خلال مؤدبه عمرو المقصوص الذي كان أحد «نُشطاء» القدريين بلغة عصرنا، وقد نجح سرًّا في جعل معاوية الصغير ينسلخ من عباءة بني أمية ويحن لعهد الخلفاء الراشدين، حتى إنه عندما جاءته الخلافة مبكرا وهو في أوائل العشرينيات خطب بعد استخلافه بشهر مهاجما والده وجدّه واتهمهما باغتصاب الخلافة من الراشدين، وأعلن عدم استعداده تحمل خطايا أهله، لكنه لم يكن قويا بما يكفي للوقوف ضد التيار فأعلن التنازل عن الخلافة، وكما يروي هادي العلوي في كتابه الرائع «تاريخ التعذيب في الإسلام» فقد تحرَّت أسرته عن سر انقلابه ووصلت إلى عمرو المقصوص الذي تم القبض عليه وقُتِل تحت وطأة التعذيب العربي.

منذ ذلك الوقت أصبح «القدريون» المطلوب الأول على قوائم البطش السياسي الأموي، حتى وصل البطش بهم إلى أوْجه خلال خلافة الوليد بن يزيد الذي كان مشهورا بنزقه ومجونه وطغيانه الذي لحق، ليس فقط بالقدرية، بل وحتى بمن لا يملكون موقفا سياسيا واضحا كأهل قبرص الذين قرر إجلاءهم عن جزيرتهم إلى بلاد الشام، فضلا عن عشرات القرارات الجائرة والهوجاء التي وحّدت قوى المعارضة ضده بقيادة القدريين الذين نظموا تحركا سريا ضده قاده

يزيد الذي لم يكن ناقصا بعد، وتم إسقاطه - عقبال الحبايب - خلال غيابه عن دمشق وسفره إلى الأردن، المفارقة أنَّ تجمُّع المعارضة تم في قرية المزة القريبة من دمشق والتي أصبحت تشتهر بسجنها الرهيب الذي احتضن خيرة مثقفي سوريا في عصور الاستقلال السعيدة. بعد إسقاط الوليد بن يزيد بويع ليزيد بالخلافة ولأخيه إبراهيم بولاية العهد، واستولت المعارضة على دمشق وأرسلت إلى الوليد قوة قتلته في الأردن ليستتب الحكم ليزيد وللمذهب القدري الذي يعتنقه.

الغريب أن الوليد على ما اشتُهر به من بطش ومجون وجد في عصرنا من يعتبره واحدا من أنصار الحداثة والخروج على التقاليد التي كان ينتهكها في حياتنا اليومية، هكذا وصفه الدكتور طه حسين في «حديث الأربعاء»، وهو ما يعلق عليه هادي العلوي، وهو المثقف اليساري الرفيع بقوله: «لقد التبس الأمر على مؤسس الفكر العربي الحديث؛ فالوليد ليس فردا عاديا ولا هو مثقف مستقل حتى يكون لمسلكه مردود محول للمجتمع فهو خليفة وقد سيّر الإمبراطورية لحسابه الشخصي وقدّم مثلا سيئا للحاكم الذي يسخر كل شيء لخدمته، ولا معنى لاعتبار مثل هذا عنصر تحديث كالذي يقال عن أبي نواس مثلا، بل إن من يستحق أن يوصف بالحداثة هم القدرية الذين ثاروا على هذا اللص القائل بالجبرية وهم بحق متنورو زمانهم، وطه حسين في هذه المسألة يصدر عن فهم أعرج للحداثة يشترك فيه مع كُتاب الحداثة من الجيل الحالي».

للأسف، على مر تاريخنا المرير، كلما وصل حاكم عربي إلى كرسي الحكم سمع منه الناس أحلى كلام في بيانه الأول الذي

تتجاور فيه الوعود بأنهار العسل واللبن التي سيعب منها الفقراء مع الأيمانات المغلظة بألا يحكمنا بعد اليوم فاسد أو ظالم. وبعد أشهر تزيد أو تنقص، حسب حالة كل حاكم، يتحول البيان الأول الذي أعلنه الحاكم إلى بيان ترفعه في وجهه قوى المعارضة، سرية كانت أو علنية، ويبدأ الشعب في الحنين إلى عصر الحاكم السابق الأقل فسادا والأحن بطشا. أحيانا يكون هناك استثناءات فيأتي حاكم جدع يعلم أن الرجل مربوط من بيانه فيصر على تنفيذه ليفرح به شعبه فرحة لا تدوم لأن هذا الحاكم عادة ما يلقى حتفه في ظروف غامضة.

هذا ما حدث للأسف ليزيد الناقص الذي ارتجل بعد وصوله إلى الحكم خطبة تاريخية جاءت بمثابة بيان رقم واحد ألقاه من على منبر الجامع الأموي بدمشق ليشفي به صدور قوم مَلّوا الطغيان والفساد وتجددت أحلامهم بعهد الخلافة الراشدة التي دُهِست تحت وطأة الحكم العضوض، خطبة تموت كمدا عندما تقرؤها كما نقلها الطبري؛ لأنك ترى فيها حلما إنسانيا ساحرا لو كان قد تحقق لما كان حالنا، بل وحال الكون كله، اليوم كما لا يخفى عليك.

«أيها الناس إن لكم عليّ أن لا أضع حجرا ولا لبنة على لبنة - يقصد أنه لن يبني لنفسه قصرا على عادة حكام بني أمية - ولا أكري نهرا - يقصد أنه لن يمتلك حتى أراضي زراعية كما جرت العادة - ولا أكنز مالا ولا أعطيه زوجة ولا ولدا ولا أنقل مالا من بلده حتى أسد ثغرة ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم فإن فَضُل فَضلةً نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه، ولا أجمركم في ثغوركم وأفتن أهليكم - أي لا أطيل مدة تجنيدكم في جبهات الفتوحات فأتسبب

في فتنة نسـائكم وخيانتهن لكم - ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما يجليهم عن بلادهم ويقطع نسلهم - في إشارة إلى ما فعله سلفه بأهل قبرص - وإن لكم أعطياتكم عندي في كل سـنة وأرزاقكم في كل شـهر حتى تسـتدر المعيشـة بين المسـلمين فيكون أقصاهـم كأدناهم، فإن وفيت لكـم ما قلت فعليكم السـمع والطاعة وحسـن المؤازرة، وإن أنا لم أوف فلكم أن تخلعوني إلا أن تسـتتيبوني، فـإن تبـت قبلتم منـي وإن علمتم أحـدًا ممن يُعرف بالصـلاح يعطيكم من نفسـه مثـل ما أعطيتكـم فأردتـم أن تبايعوه فأنا أول مـن يبايعـه ويدخل في طاعتـه.. أيها الناس لا طاعـة لمخلوق في معصية الخالق، ولا وفاء له بنقض عهد، وإن الطاعة طاعة الله فأطيعوه بطاعـة اللـه ما أطـاع، فـإذا عصـى الله ودعـا إلـى المعصية فهـو أهل بأن يعصى...

لـو ظهـر حاكم يحمـل أحلامه كهـذه في أمـة تحترم نفسـها لصار أسـطورة تتـوارث ذكرهـا الأجيال، لكن يزيـد الناقص ظهر فـي أمتنا؛ ولذلـك كان لا بـد أن يطويه النسـيان، لأن تداول سـيرته العطرة خطر على الأمن العربي العام، لذلك وصف المؤرخ المملوكي ابن طباطبا خطبة يزيد بأنها من نوادر السياسـات قائلا: «لو أن أحدا من سـلاطين عصرنا دعا الناس إلى خلعه إذا انحرف أو أبدى استعداده لمبايعة غيره إذا كان أكفـأ لوصفوه بالحماقة واعتبروه جديـرا بالخلع»، وهو تعليق تدرك من خلاله أن عقليتنا العربية لم تتغير أبدا من أيام ابن طباطبا إلى أيامنا المُكئِبة، عقلية تتعامل مع الحاكم العادل على أنه أحمق أو ظالم يتخذ من العدل سـتارا لإيقاع شـعبه في الفخ، ولذلك لم يلتف الناس

حـول يزيد ليسـاعدوه علـى تنفيذ برنامجـه العظيم الـذي كان قد بدأه بإعادة أهل قبرص إلى جزيرتهم ليضرب مثلا إسلاميا رفيعا في تطبيق القانون لمصلحة غير المسلمين أولا، للأسف لم يكن هناك ثانيا، فقد مات الرجل العظيم بعد سـتة أشـهر من توليه الحكم ميتة غامضة وهو دون الأربعيـن مـن عمره، ميتة تذكـرك بميتة السـلطان العادل عمر بن عبد العزيـز رحمـه اللـه. يرجح هادي العلـوي الـذي درس في كتاب ثالـث (تاريخ الاغتيال السياسـي في الإسـلام) أن يكـون قتل يزيد قد تم بالسـم في خطة جهنمية تبناها مروان بن محمد الذي صار فيما بعد آخر خلفاء الدولة الأموية والذي لقب بالحمار لقوته الجسـمانية التي أفلـح بهـا فقط في إجهاض حلـم العدالة الذي لاحت بشـائره على يد يزيد الناقص، لننتقل بعدها من حاكم ظالم إلى آخر، حتى عشنا وشفنا مـن جعلونا لا نترحم فحسـب على عـدل يزيد الناقص بـل حتى على حمورية مروان بن محمد، فحموريته على الأقل كانت حمورية جسـد لا حمورية عقل وروح.

نُشرت في صحيفة الدستور - ٢٠٠٧

اشهد أنك ناقص

قلت ذلك للشـاب المتحمس فغضب جدا، وأنا حاولت امتصاص غضبه قليلا ثم قلت له مجددا: «أقسـم بالله إنني سـأجيبك عما تسألني عنه، لكن اشهد لي أولا أنك ناقص».

كان الشـاب قـد أتى ليسـألني عن فيديو انتشـر بكثافة على شـبكة الإنترنت كان قد تم تسـجيله قبل سـنوات بأحدث كاميرات التجسس التـي كان جهاز أمن الدولـة اللعين ينفق أمـوال المصريين عليها طيلة عقـود، ويظهـر في الفيديو الـذي لا يدري أحد متى تم تسـجيله واحد من أشـرس وأشـرف رموز معارضة نظام مبارك المخلوع وهو يقضي لحظات خاصة مع سيدة لا نعلمها، يبدو أن الفيديو كان قد تم استخدامه من قبـل لتهديد ذلك المعـارض وابتزازه، لكنه لم يُجـدِ نفعا، ولذلك قـرر أحـد بقايا النظام البائد أن يقوم بنشـر الفيديـو الآن على الإنترنت لتوجيه ضربة انتقامية تصورها سـاحقة ماحقـة لذلك المعارض، ربما لأنـه يعلـم أن كثيرا ممن سيشـاهدون ذلـك الفيديو لن ينتبهـوا إلى أن الجريمة الحقيقية ليسـت ما يفعله المعارض، ولكن الجريمة الحقيقية

أن يتم التجسس عليه بذلك الشكل القذر، وأن يتم إنفاق أموال دافعي الضرائب في فضح الناس والتفتيش عن أنصافهم السفلية.

قلت للشاب بعد أن هدأت ثائرته: يا صديقي من نصّبك أنت أو غيرك قاضيا لتصدر حكما على شخص يتم تصويره سرا مع سيدة قد تكون زوجته في السر أو العلن؟! وحتى لو كانت عشيقته أو نزوة من نزواته، لماذا لا تطلب له الستر وتسأل نفسك: هل جارت خطيئته تلك عليك أم أنها كانت خطيئة تخصه هو لوحده؟ وهل أنت كاملٌ لكي تظن أن الحق في هذه الدنيا لا يكون إلا بصحبة الكاملين؟ ستقول لي: أعرف أنه لا يوجد كامل في هذه الدنيا فالكمال لله وحده. سأقول لك: لكنك لم تتذكر ذلك وأنت تصب سياط غضبك على الرجل، بل فعلت مثل أولئك الكاذبين الذين يظهرون في برامج التلفزيون ليتخفوا خلف ابتسامات تواضع زائفة وهم يقولون. «طبعا لسنا كاملين؛ فالكمال لله وحده»، قبل أن ينهالوا على حياة الآخرين الخاصة طعنا وتجريحا، يا صديقي أنا لا يشغلني من أخطاء الناس إلا ما كان منها يجور على حقوق الآخرين، ألم يكن يحكمنا من يدَّعي الكمال ويزعم أنه رجل «حمار شغل» لا أخطاء بشرية له، وأخذت أجهزة أمنه تجرنا للحديث عن ارتداء ابنة ذلك المعارض للمايوه وعن شرب ذلك المعارض للخمر وعن شرب ذلك للحشيش، وانجرف كثير منا كالبلهاء للانشغال بنواقص بشرية لم تمس وطنهم في شيء، بينما تركوا مدعي الكمال يواصل العربدة بجرائمه في حق الوطن التي كانت أَوْلى بانشغالهم وغضبهم، صدقني لم أكن لأغضب لو كان ذلك الحاكم صاحب نزوات خاصة طالما أقام العدل بين الناس وأعطى كل ذي حق حقه وجعل مصر تحتل مكانها اللائق بين الأمم.

يا صديقي عندما يأتيك شخص ليحدثك عن خطأ فلان من الكُتاب أو خطيئة علان من المعارضين فقل له إنك لا تعرف الحق بالرجال بل تعرف الحق بالحق.. قل له إنك لن تجد شخصا كاملا في التاريخ بأكمله، وإن كل عظماء البشرية كانت لهم نواقص شخصية بعضها مخيف. كنت في بداية عهدي بالقراءة التاريخية أجزع عندما أعرف تلك النواقص وأتصور أنها مفبركة ومنسوبة إليهم زورا لتشويههم، قبل أن أدرك أن الشخصية التاريخية الكاملة لا توجد فقط إلا في الأفلام التاريخية المصرية ومسلسلات القضاء في الإسلام، حتى أصبحت لا أثق في أي شخصية يُسَوِّقها المؤرخون على أنها كانت ملائكية لا تمتلك نواقص شخصية، لا أنسى صدمتي عندما قرأت وأنا طالب في الجامعة حوارا أجراه الدكتور عمرو عبد السميع مع المؤرخ الكبير الدكتور يونان لبيب رزق عن منهجه في تدريس التاريخ قال فيه: «عندما أُدرس التاريخ أول ما أفعله أن أصدم طلبتي فأقول لهم مثلا: هل تعرفون أن مصطفى كامل كان يقترض من محمد فريد ولا يرد ما اقترض؟ وأن محمد فريد كان على علاقة بسيدة عندما سافر إلى فرنسا؟ وكذلك سعد زغلول كان محاميا شهيرا ولكنه كان يلعب القمار وخسر أموالا كثيرة، كما خسر عزبة؟ ولكن هذا لا يقلل من قدره كزعيم سياسي، فهذه هي طبيعة التاريخ البشري، فهو ليس تاريخ ملائكة أو تاريخ أناس جاءت من المريخ، وهذا هو الخطأ الذي يقع فيه المؤرخون في مصر بتغليب هذه الصور النمطية لبطل التاريخ أو خائن التاريخ، وما أريد أن أظهره لتلاميذي من خلال هذه الصدمات أن أبطال التاريخ هم في النهاية بشر وليسوا ملائكة، لهم انتصاراتهم وإحباطاتهم، فوراتهم وانكسارهم، نبالتهم وخطاياهم».

استمع الشاب إلى كلامي مليا ثم قال لي: كلام جميل ولكن ماذا عن فلان؟ لن أتحدث عن حياته الشخصية، ولكن هل تتخيل أنه قال كذا في برنامج كذا؟ هل يمكن السكوت على سقطة كهذه؟ قلت له: «سأجيبك ولكن بشرط أن تشهد لي أولا أنك ناقص». قال لي مبتسما: «أعرف أنك تريد أن تستفزني بجُملتك هذه لكي تجعلني أغضب وأتوقف عن مناقشتك»، قلت له: «والله أبدا، كل ما في الأمر أنني منذ زمن بعيد قررت أن أتحدث عن نواقص الآخرين وأخطائهم وعثراتهم، إلا مع من يشهد على نفسه أولا بأنه ناقص، والفضل في ذلك لشاعر العربية العظيم ابن الرومي الذي قرأت له بيتين من الشعر يقول فيهما:

أعيّرتَني بالنّقصِ، والنّقصُ شاملٌ   ومن ذا الذي يُعطَى الكمالَ فيَكمُلُ

فأشهدُ أنّي ناقصٌ، غيرَ أنّني   إذا قِيس بي قومٌ كَثيرٌ قُلِّلوا

اشهد أنك ناقص يا صديقي، ثم تعالَ لتحدثني عن الكمال الذي هو كما تعلم..لله وحده.

صحيفة المصري اليوم - مايو ٢٠١١

يا روايح الزمن الجميل.. الأبيح

«فعلا عندك حق، نحن بحاجة إلى أن نتوقف عن الإسفاف اللفظي ونعود إلى أيام الزمن الجميل حيث كانت لغة الخطاب شديدة الرقي والتحضر، وبعيدة كل البعد عن الإسفاف والابتذال»، قلت لصديقي هذا الكلام بصوت متهدج متعمدا أن «أدوس جامد» على مخارج الألفاظ، ومع ذلك لم يصدق كلمة مما قلته، لأنه لم يتعود على أن أوافقه على كل ما يقوله بهذه السهولة المريبة، قال لي بحدة: «على فكرة أنا ما باهزرش، ويا ريت تتكلم بجد»، تذكرت أوامر الطبيب بالبعد عن الانفعال، فقلت له مقررا من باب التغيير استبدال الانفعال بالاستظراف: «طيب يا سيدي.. إيه رأيك عشان نبقى عمليين إنك تحدد لي سنين معينة في الزمن الجميل عشان نرجع لها بدل ما نحرق بنزين كتير وإحنا راكبين آلة الزمن»، عندما علا صوته شاتما اتضح أن الاستظراف سلاح فتاك حقا، تجاهلت شتائمه وواصلت تصنع الجدية وقلت: «إيه رأيك مثلا في أيام طه حسين وعباس العقاد والفترة الذهبية في تاريخ الصحافة المصرية؟ متهيأ لي ما فيش أجمل من ده زمن.. إيه رأيك نثبِّت لغة الخطاب بتاعته؟»، نظر إليّ بتشكك

مَـن ظـن للحظات أن المعجزة قد حدثت وأننـي أخيرا اقتنعت بوجهة نظره، وقال لي بحماس: «مثلا.. ليه لأ؟». أجبته بهدوء شديد. «سأترك لك إجابة هذا السؤال.. إنت عندك فاكس؟».

وهـو يغالب دهشـته أعطاني رقـم الفاكـس، وعندما اسـتأذنته في الانصـراف، قال لي: «هتمشـي من غير ما نقفل المناقشـة؟»، قلت له: «وإحنـا كنا فتحناها أصلا.. يا أخـي إنت أفحمتني بالقاضية.. إقرا بس الكام ورقة التي سأرسلها لك على الفاكس وبعدين نكمل كلامنا»، فور عودتي إلى البيت أرسلت له على الفاكس صفحات الفصل السابع من كتاب مهم وجميل وشـبه مجهول لأستاذ الصحافة المرحوم مصطفى أمين اسـمه «لـكل مقال أزمـة» - طبعة دار الشـروق ١٩٧٩، وقبل أن تسـألني لماذا حرصت أن أرسل له نص الصفحات بدلا من أن أحكي لـه مضمونها، دعني أقـل لك إنه لم يكن ليصدقنـي مثلما لن تصدقني أنت الآن وأنت تقرؤها، وسـتطالبني بنشـر صورة زنكوغرافية للتدليل على صدق ما أقوله، وبالمناسبة لن ألومك لو فعلت ذلك.

يقـول مصطفـى أميـن ضمـن كلام كثيـر   كان السياسـيون فـي عهـد حرية الصحافـة يتحملون النقد والهجوم، قيل فيهـم أكثر مما قاله مالـك فـي الخمر، وكان من بين الأبواب المشـهورة فـي المجلات في الثلاثينيـات بـاب اسـمه «حقائـق وقـاذورات»، و«من بئر قذر»، ونشـر الأسـتاذ العقاد مرة مقالا يهاجم فيه حزب الأحرار الدسـتوريين بعنوان «يا شـراميط»، - كان ذلـك قبل سـنوات من اسـتخدام بعض المشـايخ لهذه الكلمة، ولـو لم تصدقني يمكن أن ترجع إلى كتاب مصطفى أمين للتأكد بنفسـك - كما نشـرت مجلة الكشـكول مقالا عن النحاس باشا

عنوانه «الرئيس الجليل يطرطر في شارع الأهرام»... وفي أول الأمر أقبل الناس على هذا النوع من الردح السياسي، ثم انحسر هذا الأسلوب بفضل انتشار التعليم، وأصبح القارئ المصري يضيق بالشتائم ويكره السباب، وظهر أسلوب النقد المؤدب العف يتزعمه عبد القادر حمزة في جريدة البلاغ، ثم أسلوب النقد الساخر يتزعمه محمد التابعي في مجلة روز اليوسف، وكانت جريدة الكشكول أول جريدة تطاولت على الزعيم سعد زغلول، ووجهت إليه أشنع التهم وانهالت عليه بالشتائم والسباب، وهزئت به وسخرت منه، وقالت عنه إنه سيسلم البضاعة للإنجليز، ونشرت الأكاذيب عن زعماء الوفد فلم تترك واحدا منهم إلا ومزقته شر ممزق. وحاول الوفديون أن يخرسوا المجلة الوقحة ففشلت كل محاولاتهم، وأصدر أحمد حافظ عوض مجلة فكاهية اسمها «خيال الظل» ينافس بها مجلة «الكشكول»، ولكن مجلة «الكشكول» بخفة دمها هزمت «مجلة خيال» الظل التي تؤيدها أغلبية الشعب».

ثم يحكي مصطفى أمين كيف كانت الصحافة تطلق الألقاب على المشتغلين بالسياسة؛ فيطلق التابعي لقب «وزير المصارين» على الوزير إبراهيم فهمي كريم باشا، وعلى محمد شفيق باشا لقب «وزير الأذية»، ويطلق مصطفى أمين على أحمد علي باشا وزير العدل لقب «وزير الفاصوليا»، ويطلق على الأعضاء الثمانية المنشقين عن الوفد أيام النحاس لقب «حزب السبعة ونص»، ثم يؤكد أنه برغم كل ذلك فقد كان الكُتاب أقل قسوة من رجال السياسة أنفسهم، فقد كان سعد زغلول يسمي حزب الأحرار الدستوريين «برادع الإنجليز»، ويقول محمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين في خطاب

علني عن وزارة إسماعيل صدقي باشا «هذه حكومة لا ترضاها أمة من البغايا».

كان صديقي قد وصل إلى هذا القدر من فصل مصطفى أمين عندما اتصل بي وهو يهتف بي قائلا: « يا أخي وإحنا إيه اللي يرجعنا بس لأيام زمان؟ مش المفروض نبص لقدام؟». لم أستجب لتوسلات صديقي بألا نفتح سيرة الزمن الجميل ثانية، وواصلت الانقضاض عليه قائلا: «مش إنت اللي كنت عايز ترجع لأيام الزمن الجميل.. استنى بقى لما أبعت لك على الفاكس كام صفحة من كتاب «عباس العقاد في تاريخ الصحافة المصرية» الذي كتبه الدكتور راسم الجمال وصدر عن الدار المصرية اللبنانية، وتتبع فيه الدكتور راسم بأسلوب شائق تاريخ المعارك الصحفية التي خاضها العقاد أثناء عمله في الصحافة، وكيف تجاوزت معاركه كل الحدود مع الدكتور محمد حسين هيكل الذي لم يسكت على العقاد، بل تبادلا بحق بعضهما البعض ألفاظا لو كتبها أجعص كُتاب مصر الآن بحق أعتى الفاسدين فسادًا لذهب إلى السجن قبل عودة مرتجع الجرنان إلى شركة التوزيع، لو مستعجل ممكن أقرا لك شوية منها، شوف يا سيدي...

قاطعني صديقي قائلا: «خلاص ياسيدي وصلت وجهة نظرك.. أنا غلطان.. مش عايز أرجع للزمن الجميل اللي عمره ما كان جميل.. ده طلع زمن أبيح ومش متربي»، قلت له: «ما هي دي مشكلتك.. أو مشكلتنا كلنا بمعنى أصح.. في الأول حكمت إنه زمن جميل من غير ما تعرفه أو تقرا عنه أو تدرسه.. من مجرد انطباعات حكمت إنه

جميل.. ومن مجرد واقعة أو اتنين حكمت إنه قبيح.. ولو أنصفت لحكمت إنه كان زمن زي أي زمن.. فيه الجميل وفيه القبيح.. لكن لا يمكن أبدا أن نطلق عليه وصف الجميل وخلاص.. لإن الزمن الجميل هو الذي لم يأتِ بعد.. بل هو الزمن الذي علينا أن نصنعه زي ما قال عمنا بريخت».

تركت صديقي غارقا في حيرته وتشوشه، متمنيا له دوام الحيرة والاندهاش وداعيا له بانعدام اليقين، ولا تستغرب دعوتي وتتهمها بالقسوة، فما جابنا نحن وبلادنا «ورا» سوى اليقين الذي يدَّعي كل منا امتلاكه، مع أن الله عز وجل اعتبر اليقين مرادفا للموت: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾، وهو معنى التقطه ببراعة عمنا نجيب محفوظ عندما كتب ذات يوم قائلا: «الحقيقة بحث وليست وصولا»، ولكن «أفلا يتفكرون؟! أفلا يعقلون؟! أفلا يتدبرون؟!».

لا نريد أن ندخل الآن في جدل ينسينا ما بدأنا في الحديث عنه بالأمس، فقد وصلني والله السؤال الذي ظل معلقا على طرف لسانك من الأمس: «ألا تدرك أن استشهادك بكلام مصطفى أمين وراسم الجمال عن العقاد وزمنه سلاح ذو حدين يمكن أن يستخدمه العضاضون في بعض الصحف القومية الذين لا يكفون عن إطلاق البذاءات على كل من يعارض أولياء نعمتهم؟»، بالطبع سؤالك مشروع وإن لم يكن منطقيا، فهؤلاء لا يحتاجون إلى استشهادات تاريخية لكي ينتهزوا كل فرصة سانحة في أن يثبتوا لمن عينهم في مواقع لا يستحقونها أنهم «قايمين بالواجب وزيادة»، ومع ذلك إجابتي

عن سؤالك وعن كل الأسئلة التي يمكن أن تطرحها في كل المجالات هي إجابة من ستة أحرف: الحرية، الحرية هي الطريق الوحيد لنا، مهما حملت لنا معها من أمراض وأعراض جانبية، الحرية لا تحتاج إلى وصاية أخلاقية وسياسية بدعوى محاربة الانفلات والحفاظ على القيم، فالناس ليسوا بحاجة إلى وصاية من أحد، لأنهم ليسوا بلهاء حتى وإن بدوا كذلك أحيانا، ولكي لا أكون قد اقتطعت فقط من كتاب مصطفى أمين ما يكرهك في صحافة أيام زمان، فسأحيلك إليه وهو يحكي بالتفصيل غير الممل كيف أقبل الناس في البداية على شراء الصحافة البذيئة التي تخوض في الأعراض وتفرش الملايات، ثم بعد ذلك انفضوا عنها مقبلين على الصحافة المحترمة والمستقلة والجريئة إلى حد التهور أحيانا، الناس هم الذين جعلوا لصحافة الخوض في الأعراض سعرا، وهم الذين جعلوها تفلس وتقفل أبوابها وترحل غير مأسوف عليها.

كل هذا يقودنا إلى سؤال يمكن أن تعتبره بمثابة خيط حريري يلضم كل حبات الكلام التي تناثرت ما بيننا الآن: قل لي بالله عليك لماذا إذن لا نتذكر الآن لعباس العقاد وغيره من عظماء مصر كل شطحاتهم التي تجاوزت حدود المقبول والمعقول؟ هل لأننا أناس انتقائيون مزاجيون ننظر بعين الرضا التي هي عن كل عيب كليلة؟ أم لأننا نضع هذه الأخطاء في سياقها بوصفها صدرت من أناس كانوا كُتابا أحرارا لا يكتبون بتوجيهات، ولا يعملون في خدمة أجهزة، ولا يكتبون إلا ما تمليه عليهم ضمائرهم حتى لو «مَلِّتهم غلط» أحيانا، ولا يمارسون

البذاءة الصحفية الحقيقية التي تجعل البعض يعتبر الكوارث إنجازات والتزوير نزاهة والكذب شفافية والوكسة ريادة والموات استقرارا؟

لا مؤاخـذة يعني، حتى لـو لم يبدُ عليك أنك نبيـه، لا أظن الإجابة عن سؤال كهذا ستحيرك.

صحيفة المصري اليوم - مايو ٢٠١٣

لا تأمنوا غضبة الفقراء

يعلمنا التاريخ أن الفقراء كانوا دائما أقوى سلاح يلجأ إليه الحاكم المستجد عندما يرغب في توطيد دعائم عرشه، لكنه أيضا يعلمنا أنهم أخطر كوابيس الحاكم وأعدى أعدائه والمسمار الأخير في نعشه، لكن الحاكم الغبي يدرك دائما ذلك بعد فوات الأوان.

يروي المؤرخ المصري العظيم عبدالرحمن الجبرتي في الجزء الأول من تاريخه وقائع ثورة جياع عنيفة شهدتها القاهرة في منتصف شهر المحرم سنة ١١٠٧ (ما يوافق ٢٦ أغسطس ١٦٩٥م) بدأت عندما «اجتمع الفقراء والشحاذون - رجالا ونساء وصبيانا - وطلعوا إلى القلعة، ووقفوا بحوش الديوان،وصاحوا من الجوع فلم يُجِبهم أحد، فرجموا بالأحجار، فركب الوالي وطردهم»، وعندما أدرك الفقراء أن الصياح ورجم الحجارة لم يكونا كافيَيْن لإقناع الحاكم بجدية مطالبهم، قرروا أن يفعلوا ما هو أجدى، فنهبوا مخازن الغلال الحكومية والمخازن التي يمتلكها كبار التجار أيضا، ووزعوا ما بها من فول وشعير وأرز وقمح على بعضهم، لتشهد البلاد بعدها أزمة غلاء حادة، «وحصل شدة عظيمة بمصر وأقاليمها، وحضرت أهالي

القرى والأرياف، حتى امتلأت منهم الأزقة، واشـتد الكرب حتى أكل النـاس الجيف، ومات الكثيـر من الجوع، وخلت القـرى من أهاليها، وخطف الفقراء الخبز من الأسـواق، ومن الأفـران، ومن على رءوس الخبازيـن، ويذهـب الرجـلان والثلاثة مع طبـق الخبز يحرسـونه من الخطف وبأيديهم العصي، حتى يخبزوه بالفرن، ثم يعودوا به».

نجحت ثورة الجياع بعد ١٢ يوما فقط في عزل الوالي الذي ظن في البداية أن طرده للفقراء كافٍ للسيطرة على غضبهم، وفي يوم ١٧ صفر تولى الحكم الوالي الجديد إسـماعيل باشـا، «ولما اسـتقر في الولاية ورأى ما في الناس من الكرب والغلاء، أمر بجمع الفقراء والشحاذين، وأمـر بتوزيعهـم علـى الأمـراء والأعيـان، كل إنسـان على قـدر حاله وقدرته، وأخذ لنفسه جانبا ولأعيان دولته جانبا، وعَيّن لهم ما يكفيهم من الخبز والطعام صباحا ومساء، إلى أن انقضى الغلاء، وأعقب ذلك وباء عظيم، فأمر الباشـا بيت المال أن يكفن الفقراء والغرباء، فصاروا يحملون الموتى من الطرقات، ويذهبون بهم إلى مغسـل السلطان إلى أن انقضى أمر الوباء في آخر شوال».

لـم تكن سـيطرة الوالي على أزمتَي الغلاء والوبـاء آخر مآثره، فمع مـرور الأيـام أخذت مآثره تتوالـى، فأكبر له الناس مثـلا قيامه بالقبض على شـيخ اسمه محمد الزرقاني كتب حُجّة وقف مزورة، وأمر الوالي بحلـق لحيـة الشـيخ الزرقاني وتشـهيره على جمل في الأسـواق بينما المنـادي ينـادي: «هذا جـزاء من يكتـب الحجج الزور»، ثـم أمر بنفيه إلى جزيرة الطينة، وأبهرهـم قيامه بمحاسـبة باشـا اسمه علي المنفصل لهـرب مـن أداء الضرائـب، فتم تشـميع منزلـه وبيع ممتلكاتـه، ولهج

الناس بالثناء على الوالي عندما قام في يوم ختان ولده إبراهيم بالتكفل بمصاريف ختان ٢٣٣٦ غلامًا من أبناء الفقراء وأمر لكل غلام مختون بكسوة كاملة ودينار، ومع توالي قراراته العادلة الحكيمة ظن الناس أنهم وجدوا أخيرا حلمهم في حاكم عادل يدوم عدله إلى الأبد.

لكن الوالي قرر فجأة أن يغير سياسته الاقتصادية في حكم البلاد، بناءً على نصيحة مدير إدارة ضرب النقود الذي كان يهوديا اسمه ياسف، ولأنه كان بارعا في مهنته وخبيرا بمفاتيحها، فقد استطاع أن يقنع الوالي بخطة جديدة يقترحها لزيادة ما يتم تحصيله لخزينة الدولة، فأشهر الوالي النداء بالقرارات الجديدة في شوارع مصر، «فاغتم الناس وتوجه التجار وأعيان البلد إلى الأمراء وراجعوهم في ذلك، فركب الأمراء وطلعوا إلى القلعة وفاوضوا الباشا فجاوبهم بما لا يرضيهم، فقاموا عليه قومة واحدة، وسألوه أن يسلمهم اليهودي فامتنع عن تسليمه»، وتصاعد الخلاف بين الوالي وأركان دولته الذين كانوا أكثر إدراكا منه لغضب الشارع، وبعد شد وجذب قرر الوالي أن يضحي بمساعده فيضعه في الحجز امتصاصا للغضب، لكن مطالب الشارع كانت قد تصاعدت وقتها بسبب تأخر الوالي في اتخاذ القرار، وهو ما لم يدركه الوالي الذي كان يعتقد في قرارة نفسه أن الناس لن تنسى له ما فعله من أجلهم عندما سيطر على أزمتَي الغلاء والوباء، ولن تنكر له كل ما قام به من مآثر كانوا يحكون ويتحاكون عنها حتى وقت قريب، كما أنه أيضا لم يكن يتصور أبدا أن جنوده سينقلبون عليه، وسيقومون بالتوجه إلى السجن وإخراج مساعده منه ليقوموا بقتله وجره من رجليه في شوارع العاصمة، وهو ما شجع الجماهير

الغاضبة على التمادي، فقامت جماعات منها بخطف جثة الرجل وجمع حطب وقاموا بإحراق الجثة على الملأ بعد صلاة الجمعة. مع أن مطلب هؤلاء الجماهير في البداية كان مقتصرا على الإطاحة بهذا الرجل من منصبه وإيقاف قراراته التي جلبت الخراب للناس، لكن تعنت الوالي وعناده النابع من ثقته في حب شعبه له، جعل مشاعر الغضب تتصاعد بداخلهم وتفقدهم إنسانيتهم ليرتكبوا فعلا بشعا كهذا، وبدلا من أن ينقذ الوالي نفسه بالاستجابة للناس منذ البداية، أدى به عناده إلى أن يفقد هو حكمه شخصيا كما يخبرنا الجبرتي؛ ففي ثاني عشر ربيع الأول قامت العساكر المصرية وعزلوا الباشا وحاسبه الوالي الجديد الذي تولى بعده فوجد أنه تأخر عليه خمسون ألف إردب دفع عنها خمسين كيسا واضطر لبيع منزله وبلاد البدرشين التي كانت وقفا له وتوجه إلى بغداد التي اتخذها منفى له، لينتهي حكمه بعد سنتين فقط لأنه لم يدرك خلالهما أهم درس ينبغي أن يتعلمه الحاكم: «لا تأمن غضب فقراء شعبك لأنهم لن يكونوا لك على الدوام إلا لو كنت لهم على الدوام».

لماذا يحب التاريخ أن يعيد نفسه في الدول المتخلفة؟ ببساطة: لأنه لا أحد فيها يقرؤه ويتعلم من دروسه؛ ولذلك يجد التاريخ أن من الأسهل عليه تكرار نفسه بدلا من تكليف نفسه بتقديم الجديد.

صحيفة الشروق - مارس ٢٠١٣

حديث عن الثورة الناقصة

تسـأل هذا وذاك ممن يحلو له وصف ثورة الخامس والعشرين من يناير بأنها ثورة ناقصة: طيب يا سيدي: أي الثورات الكاملة كنت تحب أن نقتـدي بهـا؟ فـلا تجد «عُقـادا» نافعا، بـل كلاما أشـبه بالغمغمات يتحـدث عـن تجـارب دول لا يعـرف عنهـا الكثيـر، ولـو عـرف حقا لأدرك أن لدينـا فرصة قائمة في إنجاح ثورتنا إذا ترفعنا عن المزايدات والمهاترات، وأدركنا أن لدينا رصيدا ثوريا عبقريا قوامه عشـرة ملايين ثائر في أقـل التقديرات، فقدنا الاتصال بهم وتركنا كلا منهم يعود إلى حياته دون أن يحمل الثورة إلى محيطه ويسـاعد على تحرير من حوله من عبودية حكم الفرد.

لـن أقول كلاما سـبق أن قلته من قبـل فتمل مني، سـأنتقل بك إلى ما يتجاوز أيامنا هذه بكثير، سأفترض أن الثورة مشت في المسار الذي تريده أنت، لن أسـألك ما هو، ضع أنت المسـار الـذي تحبه بتفاصيله التـي تحبهـا، وتنـاسَ كل المعوقات التي كان يمكـن أن تقوم في وجه ذلك المسار، تخيل أنه ليس هناك تفاصيل ولا ملابسات أحاطت بهذه الثورة وأنها سارت كما تحب وترضى، حتى لو حدثت تلك المعجزة،

فلن تتحول مصر إلى مجتمع جديد تماما بهذه السهولة، بل دعني أقل لـك إن بعـض الآراء العلميـة تقول إنـه لا يوجد ثورة كاملـة يمكن أن تصنع مجتمعا جديدا تماما، وجُلّ ما تفعله أنها تقوم بتحويل المجتمع الذي يشـهد الثورة إلى مجتمع قوي إلى حد ما، وتتوقف درجة نجاح الثـورة في صنع مجتمع قوي على طبيعة وتطور الصراع الحتمي الذي ينشـأ عقب كل ثورة بيـن المعتدليـن الثوريين والمتطرفيـن الثوريين، وهل سيسـتطيع المنتصرون السـيطرة علـى صراعاتهم والاتفاق على ما يجـب عملـه لإعادة بنـاء البلاد، هنـاك بلاد تنجح فـي ذلك فيكتب لثوراتها النجاح، وهناك بلاد تفشـل في ذلك فتسـتبدل طاغية بمن هو ألعن منه.

فـي كتابـه البديـع «دراسـة تحليليـة للثـورات» يـدرس المـؤرخ كريـن برنتـون الثـورات الأربع الكبرى فـي تاريخ العالم: الفرنسـية - الإنجليزيـة - الأمريكيـة - الروسـية، فيلاحـظ أن «شـهر العسـل في الثـورات الأربع كان قصيرا، فلم يكد يمضي وقت قصير على سـقوط النظـام القديـم حتى بـدأت علامات واضحـة علـى أن المنتصرين لـم يكونوا متفقين على ما يجب عمله لإعادة بناء البلاد، مع أن عكس ذلك كان يبدو في خطب الانتصار واحتفالاته الأولى، إذ كان الذين تسلموا إدارة شـئون الحكومة في كل من المجتمعات الأربعة رجالا من النوع الـذي نطلـق عليه عادة لفـظ المعتدليـن، وكانوا يمثلـون الفئة الأغنى والأكثر شـهرة والأعلى مكانة في المعارضة القديمة للحكومة، وكان مـن الطبيعي توقع تسـلمهم زمام الأمور من تلك الحكومة. وسـرعان ما يجـدون ضدهم جماعـة متزايدة قوية وعنيدة مـن المتطرفين الذين يصرون على أن المعتدلين يحاولون وقف زحف الثورة وأنهم خانوها

وأنهم من السوء كحكام العهد البائد تماما، بل إنهم في الواقع أشد سوءا لأنهم ليسوا أغبياء وأوغادًا بل خونة أيضا».

هذا هو نص العبارات التي ترددت في سجالات وصراعات الثورات الأربع كما يؤكد برنتون الذي يقول إن إمساك المعتدلين بمقاليد الجهاز الحكومي في المراحل الأولى من الثورة أصبح مصدرا من مصادر ضعفهم، لأنهم وجدوا أنفسهم وقد فقدوا شيئا فشيئا الثقة التي كانوا قد كسبوها، وأصبح الناس يرتابون فيهم، ولذلك اضطروا للدفاع عن أنفسهم بدلا من انشغالهم بالعمل، ومع أن ذلك خطأ كبير إلا أنه كان حتميا لأنهم لم يعتادوا حالة الدفاع عن أنفسهم، ليعيشوا وضعا لا يمكن أن يخرجهم منه إلا حكمة فوق مستوى البشر، في حين أن المعتدلين يعدون بين الثوريين أشدهم إنسانية، وأفضل وأكثر استواء من خصومهم المتطرفين، لأنهم لا يؤمنون بالكلمات الضخمة ولا يصدقون أن نوعا من الكمال السماوي سوف يهبط فجأة على الناس في هذه الأرض، بل يؤمنون بالتوفيق والإدراك والتسامح، ولو كان المجتمع في ظروف عادية لجعلهم ذلك ينجحون، لكن المشكلة التي نجت منها الثورة الأمريكية ووقعت فيها الثورات الفرنسية والروسية والإنجليزية أن أعدادا كبيرة من الناس كانت قد وصلت إلى نقطة تبغض فيها كل شيء حتى الراحة والتسامح، ولذلك لم يستطع المعتدلون السيطرة على الأمور وأصبح بين المعتدلين والمتطرفين هوة لم يكن في استطاعة الفلسفة أو الإدراك ملؤها، ولذلك اندلعت سلسلة من الصراعات فشل على إثرها المعتدلون، وانتصر المتطرفون برغم قلة عددهم، صحيح أنهم انتصروا ووصلوا للحكم، لكن الثورة نفسها لم تنتصر بعد ذلك ولم تحقق ما كانت تهدف إليه؛ لأن طيشهم

في ممارسة الحكم كان يخلق حالة من الفوضى أعقبها عادة ما يُعرف بحكم الإرهاب.

لكي تعرف أننا ربما كنا محظوظين في أن سيناريو مثل هذا لن يحدث لدينا بإذن الله فنقع في فخاخ الثورات السابقة، اقرأ معي تفسير برنتون لسيطرة المتطرفين على الحكم حين يقول: «بعد قيام الثورات عادة يختفي عدد كبير جدا من الناس من الميدان السياسي ولا يبذلون أي محاولة لإبداء آرائهم، ولذلك عندما تقوم انتخابات حرة، يتضح أن المتطرفين لا تربطهم أي رابطة من روابط الإيمان بالحرية التي كانوا يتشدقون بها من قبل، وسرعان ما يلجئون لإثارة القلاقل في أماكن الاقتراع ويبدءون المعارك في الشوارع لإرهاب الناخبين، وينجح هذا الإرهاب بفضل الخمول الذي يمتاز به رجل الشارع العادي الذي ينسحب ويترك المجال خاليا للمتطرفين، وهنا تصبح الضآلة العددية للمتطرفين مصدرا لقوتهم، ولذلك فإن انتصارات البلاشفة والنازيين والفاشيست في الانتخابات جاءت ليس بفضل المشاركة الواسعة للجماهير، وإنما جاءت جميعا على أيدي حفنة قليلة من الأفراد المنظمين المتعصبين الذين لا يخشون أية مخاطرة مثلما يخشون الانتخابات الحرة، ولذلك يسعون دائما لممارسة حكم الإرهاب على الناس ويسعون لإنشاء دكتاتوريات للسيطرة على الأغلبية مستخدمين أرفع المبادئ الثورية لتبرير طغيانهم، حدث ذلك مع لينين وبروسبير وكرومويل وغيرهم من الثوار الذين تحولوا إلى ممارسة حكم الإرهاب على الناس».

لذلك يا عزيزي لدى ثورتنا ضمانة كبيرة لا زالت قائمة في أيدينا اسمها الناس، لا أتحدث عن المغيبين أو المتعبين أو الراغبين في أي

خلاص وخلاص، بل أتحدث عن الأحرار الذين خرجوا مضحِّين بأرواحهم من أجل أن يحصلوا على الحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية، هؤلاء الذين لو تواصلت كل القوى الثورية الوسطية معهم وجمعتهم حولها فستفسد الفرصة على كل مشاريع الطواغيت التي لو حكمت فستنقلنا من سيئ إلى أسوأ.

(٢)

تستطيع أن تصف الثورة بأنها «نوع من الحمى»؛ هكذا يقول كرين برنتون وهو يحلل وقائع الثورات الكبرى في تاريخ العالم، لكنه يطلب منك في البداية أن تتذكر أن فهم كل شيء ليس معناه بأي حال من الأحوال التسامح مع كل شيء، فالفهم العلمي لدور البعوضة في الحمى الصفراء لم يؤد بالعلماء إلى التسامح أو اللا مبالاة مع البعوض، بل على العكس من ذلك تماما، لذلك حاول أن تتأمل قبل أن تصدر أحكامك، ليس فقط على ما يقوله برنتون وأنقله عنه، بل على كل ما تمر به في حياتك.

في العلم لا توجد نتيجة واحدة تستطيع أن تستخلصها من دراستك لكل الثورات؛ لأن كل ثورة بنت ظروفها، لكن مع ذلك يمكن أن تصل إلى خطوط عريضة كالتي توصل إليها برنتون في تشبيهه للثورة بأنها «نوع من الحمى»، وقبل أن تسيء فهمه دعه يشرح نفسه لك: في المجتمع الذي يشهد قيام الثورة تظهر في ظل النظام القديم وخلال جيل أو نحو ذلك (عشر سنوات أو أكثر) علامات الاضطراب القادمة، لا يمكن وصفها بأنها أعراض كاملة، بل يمكن

وصفها بأنها نُذُر ودلالات يعرف منها الطبيب أن الحمى قادمة، ثم يأتي وقت تظهر فيه الأعراض تماما، وعندئذ نستطيع أن نقول إن حمى الثورة قد بدأت، وهذه الحمى تشتد أحيانا وتخف أحيانا ويصحبها في بعض الأحيان هذيان هو حكم أشد الثوار عنفا أو ما يطلق عليه حكم الإرهاب، وبعد ذلك تجيء فترة النقاهة، وهي تتميز عادة بنكسة أو بنكستين، وأخيرا تنتهي الحمى ويستعيد المريض نفسه مرة أخرى، وربما يشعر بالقوة في بعض النواحي نتيجة التجربة، ويكتسب على الأقل مناعة لفترة ما ضد حمى مماثلة، لكن المؤكد أن المجتمع لا يصبح كلية مجتمعا جديدا. لو قمت بتطبيق هذه النتيجة العامة التي استخلصها برنتون من دراسة الثورات الفرنسية والإنجليزية والروسية والأمريكية، وحاولت تأمل مسارها لدينا، فستجد أننا أكثر حظا بأننا لم نصل إلى مرحلة الهذيان بعد، ونتمنى ألا نصل إليها أبدا لو نجحنا في الوصول إلى برلمان توافقي لا يكون فيه غالب يستفز المغلوب ويدفعه خارج العملية السياسية فلا يجد أمامه طريقا غير الشارع لكي يتحرك فيه، يبدو الأمر محتاجا إلى قدرة خارقة من القوى السياسية لإدراك ذلك، لكن من عاش أيام الثورة المجيدة يدرك أن ذلك ليس مستحيلا، لو تأمل الناس التاريخ وتعلموا من دروسه جيدا.

ليس أمام القوى السياسية الآن حل آخر، لأنها لو لم تفعل ذلك فسيتجاوزها الواقع وسيدوسها دون رحمة، كلها بلا استثناء، وسيفرز الواقع شخصيات أخرى قادرة على التعاطي معه، ولن يهتم الناس عندها إذا كانت تلك الشخصيات قادمة من رحم النظام السابق أم لا، لأن الناس في نهاية المطاف ستلجأ إلى من يحقق لها مصالحها ويكفل لها ولعيالها الرزق والأمان. في كتابه عن الحركات

الجماهيرية ينتهي إيريك هوفر إلى أن الثورات يفجرها رجال يجيدون الكلام، وفي النهاية يروضها ويعيدها إلى مستوى المجتمعات العادية رجال عمليون مثل كرومويل وبونابرت وستالين، يهمهم أن تقوم الحكومة بمهامها؛ ولذلك يلتف حولهم الناس بغض النظر عن مدى إيمانهم بالحرية من عدمه. يرى هوفر أن رجال الكلام قد يكونون مثقفين لهم مواهب غير عادية في الشكوى من العالم الفظ، لكنهم ليسوا مؤهلين للعمل الشاق الذي تتطلبه الثورة الفعلية، ولذلك لا يستطيعون أن يواجهوا خضم التحديات، فينصرف الناس عنهم إلى رجال الفعل، وهم أناس قد يكونون مثقفين خائبين ليس لديهم عمق وبعد رؤية مثل روبسبير الذي كان فاشلا في كتابة المقالات ولينين الفيلسوف الطامح وهتلر الرجل الذي فشل كفنان، ومع ذلك فهؤلاء يجيدون استغلال الفوضى لمصلحتهم، فينزلون بكل ما لديهم من جبروت لكي يخاطبوا النزعات الكامنة في سريرة الجماهير ويستغلوا رغبتها في نسف الحاضر المكروه أيا كان الثمن، ولتذهب ساعتها الإصلاحات إلى الجحيم، المهم أن يرى الناس أمامهم رجال دولة قادرين على إدارة مهام الحكومة. وأرجو أن تأخذ كلام هوفر هذا وتحاول أن تطبقه على كل من تراه في الساحة أمامك من مرشحين رئاسيين؛ سواء من كان منهم منتسبا إلى الثورة أو من يُحسب على قوى الثورة المضادة، وتقارن بين أداء الفريقين، وتصل بنفسك إلى ما ترغب من استنتاجات لمن يمكن أن يصل إلى حكم البلاد إذا استمر الأداء المتعثر المرتبك للمرشحين الرئاسيين القادمين من رحم الثورة، والذين رفضوا كل نصائح المخلصين بالتكتل والتوحد والاتفاق على مرشح ثوري واحد يكون الباقون نوابا ومساعدين له،

خاصة أن الانتخابات الرئاسية القادمة ستكون الأولى في تاريخ مصر، لكنها لن تكون الأخيرة بإذن الله.

في تشريحه للثورات الأربع يصل برنتون إلى نتيجة مهمة هي أن الناس في وقت الأزمات يزداد صدور أقوال عنهم تخالف أفعالهم؛ ولذلك يجب على الثائر أن يدرك أن كثيرا من الأشياء التي يرددها الناس وكثيرا من عاداتهم البشرية واتجاهاتهم لا يمكن تغييرها سريعا على الإطلاق، حتى عندما يحاول المتطرفون الثوريون فعل ذلك بالقانون والإرهاب أو حتى بالنصح، وأن فترة النقاهة تعود بها من جديد دون أن يطرأ عليها تغيير كبير، والسر دائما أن الثورات الأربع وعدت الناس بأشياء كثيرة ووعود غامضة مثل السعادة الكاملة التي تتغلب على كل أنواع العقبات، وهذه الوعود في شكلها المتطرف لم تتحقق في أي مكان، ولعل ذلك يدفعنا إلى أن نستفيد من خطأ غيرنا، فنقدم للناس وعودا واقعية قصيرة المدى يحسب نجاحها للثورة، بدلا من أن نرفع سقف توقعاتهم وننزل بهم على مفيش. على أية حال يختم برنتون تشريحه الرائع للثورات بالتأكيد على أن كل المجتمعات التي شهدت ثورات أيا كانت نتيجتها ثبت بالدليل القاطع أنها مجتمعات قوية، لأن المجتمعات الضعيفة والمنهارة لا تتعرض للثورات، فالثورات على العكس دليل قوة وشباب في المجتمعات، ربما يطمئننا هذا، لكنه لا يجب أن يجعلنا نركن إلى هذه الحقيقة، لنحن بإذن الله قادرون على أن نمضي في طريق ثورتنا بعقل ووعي لنصنع ثورة يقف أمامها برنتون وغيره مشدوهين، وما ذلك على الله بعزيز، ولا هو على شعبنا ببعيد.

صحيفة التحرير يومَي ٤ و ٥ سبتمبر ٢٠١١

مصر ليست فرنسا

بعض الشباب أمرهم محير، تسمعهم يتحدثون بحُرقة عن أسفهم لأن الثورة المصرية لم يكتب لها أن تكون مثل الثورات التي فرضت الشرعية الثورية والمحاكم الثورية ووصل فيها الثوار إلى الحكم دون انتخابات ولا دياولو، فإذا سألتهم عن أي ثورة يتحدثون وجدتهم ينفرون من الاستشهاد بالثورة الروسية البلشفية بسبب سمعتها المهببة في قمع الحريات، ويتجنبون الاستشهاد بالثورة الإنجليزية والثورة الأمريكية لأن تفاصيلهما ليست حاضرة في الوعي الجمعي، وينفرون من الحديث عن الثورات الإصلاحية التي شهدتها أوربا الشرقية وأمريكا اللاتينية لأن كلمة الإصلاح تبدو ثقيلة على قلوبهم، ولذلك تجدهم يفضلون الاستشهاد بالثورة الفرنسية باعتبارها المثل الأشهر، وعندما تبدأ تحدثهم عن تفاصيل لا يعرفونها عن تلك الثورة، يبدءون فورا في القول بأن مصر ليست فرنسا، وإن ما يحدث قبل ثلاثة قرون من الزمان لا يمكن أن يحدث الآن، طيب ياسيدي لماذا تستشهد بالثورة الفرنسية إذن؟ لماذا لا تكمل بنفسك المثال الثوري الراقي والفريد الذي بدأته ثورتك وأبهر العالم أجمع؟ لماذا لا تعرف أولا

ما الذي حدث في الثورة الفرنسية لعلك تتوقف عن الاستشهاد بها أو حتى تستمر في الاستشهاد بها وأنت على بينة.

في كتابه «روح الثورات» يخصص المفكر الفرنسي جوستاف لوبون فصلا كاملا بعنوان «مظالم الثورة الفرنسية» يحكي فيه عن ١٨٧ محكمة ثورية أقيمت خلال الثورة، منها ٤٠ محكمة كانت تحكم بالقتل وتنفذ أحكامها في مكان الحكم حالا، ولم تكن كل تلك المحاكم دليلا على وجود قوة مسيطرة في الدولة، بل على العكس في حين كان الثوار مشغولين بإعدام رموز الماضي، نشأت جيوش من اللصوص والقتلة كانت تجوب البلاد وتنهب العباد. يقول لوبون وهو يصف تلك الفترة « في الثورات يكون المتعصبون أقلية، وأكثرية الأعضاء في مجالس الثورة الفرنسية كانوا مطبوعين على الحياء والاعتدال والحياد، ولكن الخوف هو الذي كان يدفعهم إلى السير مع القساة المتطرفين»، وهو يرى «أن هؤلاء المحايدين الذين لا يملكون جرأة الوقوف أمام الصوت العالي لا فرق بينهم وبين المتطرفين من حيث الخطر، فقوة هؤلاء تعتمد على ضعف أولئك، ولذلك يسيطر على الثورات دائما أقلية حازمة مع ضيق عقل تتغلب على أكثرية متصفة بسمو المدارك وفقدان الخلق لكنها صامتة ومحايدة». تقرأ هذا الكلام فتحمد الله على أن أغلبية الثوار لدينا ليسوا متعصبين ولا متطرفين، برغم أن سياسات المجلس العسكري كل يوم تشجع على انتشار التعصب الثوري بشكل يهدد البلاد بأكملها.

في موضع آخر يتحدث لوبون عن فئة ثالثة من الناس تظهر أيام الثورات ولا يهمها سوى الاستفادة منها، وهو يصفهم بوصف

نستخدمه نحن أيضا في أيامنا هذه «الراكبون على الثورة»، قائلا إن عددهم كان عظيما في أوائل الثورة الفرنسية، «لقد ركب على الثورة الفرنسية محامون عاطلون عن العمل وأطباء مبتذلون وكهنة معتزلون وأغبياء خاملون وغيرهم ممن لم يبتسم لهم ثغر الدهر»، والعجيب أن هؤلاء كانوا يقومون بتشجيع المتعصبين بشدة، بل وكانوا يشاركونهم في أعمالهم العنيفة ويصورون لهم أنهم بممارسة العنف سينتقلون إلى درجة أعاظم الملوك.

ثم يتحدث لوبون عن مباراة في التعصب الثوري حدثت بين اثنين من رموز الثورة هما دانتون وروبسبير، «دانتون كان محرضا ذا صولات وجولات، وكانت نتائج خُطبه القاسية تحزنه في الغالب، وكانت درجته الثورية رفيعة أيام كان خصمه المستقبلي روبسبير في الصف الأخير من الثوار، لقد جاء وقت كان فيه دانتون روح الثورة الفرنسية، ولكن ضميره الذي كان يوجعه أحيانا لما يراه حوله من مخازٍ، جعل روبسبير يتغلب عليه بل ويسوقه إلى المقصلة، كان سر تقدم روبسبير هو اعتماده على أهل النقائص ومقترفي الجرائم. لم يكن فصيحا كدانتون لكنه كان صاحب سحر شخصي خصوصا على النساء، وكان سوداوي المزاج ضعيف الذكاء، عاجزا عن فهم الحقائق، ماكرا مداجيا معجبا بنفسه إعجابا لم يفارقه طول حياته؛ معتقدا أن الله أرسله ليوطد دعائم الفضيلة، وكان ينقح خطبه طويلا، وقد أدى حسده الخطباء والأدباء إلى قتلهم، وكان يستخف بزملائه، وكان دائما يشعر أنه محاط بأعداء ومتآمرين. ولذلك أقر قانونا يسمح بقطع الرءوس بالشبهات ، فقطع في باريس وحدها ١٣٧٣ رأسا في

تسعة وأربعين يوما. ربما يجعلك هذا الكلام تكره روبسبير بشدة لكنني متأكد أنه سيجعل بعض الشباب الثوري يحبه بشدة ويتمنى أن يكون مثله يوما ما، ولهؤلاء أضيف معلومة بسيطة هي أن روبسبير لم يمضِ وقت طويل حتى تم قطع رأسه هو وكبار أعوانه البالغ عددهم ٢١ رجلا بنفس الطريقة التي قام بها مع خصومه، فالعنف وحش مجنون إذا أطلقته لا يمكنك أبدا أن تسيطر عليه.

الثمن الأفدح لم يكن هو الذي دفعه دانتون أو روبسبير، بل كان الذي دفعته البلاد بأسرها، حيث استفحل أمر الفوضى وحن الناس إلى رجل يعيد إليهم النظام، يقول لوبون: «قبضت على زمام فرنسا فئة قليلة مكروهة فصارت ثلاثة أرباع البلاد ترجو أن تنتهي الثورة ليتم إنقاذها من أيدي هذه الفئة المكروهة التي بقيت مدة طويلة على رأس الأمة التعسة بما تذرعت به من ألوف الحيل والوسائل، ولما أصبح بقاؤها حاكمة لا يتم إلا بالإرهاب أخذت تقضي على من كانت تظن أنه مخالف لها ولو كان من أشد خدم الثورة الفرنسية إخلاصا»، ولما عمت الفوضى بحث الناس عن رجل قوي قادر على إخمادها.. فكان بونابرت هو الحل.

يتحدث لوبون عن المشاكل التي يمكن أن تحدث عقب الثورات إذا لم تُحسن إدارة البلاد، وإذا لم يتولَّ حكمها من يدرك أن الناس عقب الثورات محكومون بنفسيتهم أكثر مما هم محكومون بالأنظمة التي تُفرض عليهم، وهنا يستشهد بالفيلسوف العظيم مونتسكيو الذي يقول: «كان الناس أحرارا في ظل القوانين فصاروا يرون الحرية في مخالفة القوانين، وأصبحوا يسمون ما هو حكمة سخافة، وما هو مبدأ

عسـرا.. يظهـر في الحكومة الشـعبية جبابرة صغار فيهـم ما في الجبار الكبيـر مـن النقائـص، ومتى أصبـح أمرهـم لا يطاق قبـض على زمام الحكم جبار واحد فخسـر الشـعب كل شـيء. لذلك وجـب اجتناب ما تجر إليه الديمقراطية من المغالاة في المسـاواة المؤدية إلى الحكم المطلق فإلى غزو الأجنبي للبلاد». وهنا ينبهنا لوبون إلى أنه في أحوال فوضوية مثل هذه تأتي إلى الحكم دائما إدارة استبدادية تقوم بمنح منافع لأجزاء كبيرة من الشـعب لكي تتمكن من البقاء؛ وهو ما فعلته حكومة الديراكتـور الاسـتبدادية التي منحت أبناء الطبقة الوسـطى والفلاحين ما كانت الطبقات العليا مستولية عليه من الوظائف والأموال وجعلتها بذلك من أعظم أنصارها.

طيـب عزيزي الثائر هل يذكرك ذلك بحكم مماثل جاب لنا الكافية ستين عاما، أم أنك فقط تهوى ترديد شعار «يسقط حكم العسكر» دون فهمٍ يجعلك تُسقطه فعلا.

صحيفة التحرير - ٢٨ سبتمبر ٢٠١١

تقلبات الخلق أيام الثورات

إلى كل من يعتقد أن الثورة المصرية قد انحسرت أو انتهت، إلى كل من يحلو له ترديد أن الثورة لم تغير الناس دون أن يفهم ما يقوله أولا ويعرف أنه لا توجد ثورة في العالم غيرت الناس، إلى كل من يستغرب ما يراه بداخله وحوله من مشاعر سلبية متناقضة وحادة وصارخة تثير فيه القلق والخوف، إليهم جميعا أهدي هذه السطور البديعة التي اخترتها بتصرف من كتاب «روح الثورات» لعالم الاجتماع الفرنسي جوستاف لوبون، والذي ترجمه منذ عشرات السنين الأستاذ عادل زعيتر، وأعادت إصداره دار الكتب والوثائق القومية، لعل من تتقلب بهم المشاعر في هذه الأيام يدركون أننا لسنا بدعا بين الثورات.

في فصل يحمل عنوان «كيف تتلقى الأمم الثورة» يقول لوبون: «شأن الشعوب واحد في الثورات كلها؛ فهي لا تدرك مغزاها ولا تتدبر أمرها سريعا.. ولا يخلع الطاعة فريق من الشعب بغريزته إلا إذا مس الضر منافعه الظاهرة. ويسهل وقوع الثورة إذا كان زعماؤها من ذوي النفوذ العظيم، أما مبادئ الثورة فلا تدخل في قلب الشعب

إلا بالتدريج... إن الثورة مهما كان مصدرها لا تصبح ذات نتائج إلا بعد هبوطها إلى روح الجماعة، فالجماعة تُتم الثورة ولا تكون مصدرها، وهي لا تقدر على شيء ولا تريد شيئا إن لم يكن عليها رئيس يقودها، ولا تلبث الجماعة أن تجاوز الحد الذي حرضت عليه، وإن كان التحريض لا ينشأ عنها أبدا.. إن الثورات السياسية الفجائية التي تُعجب المؤرخين هي أقل أهمية من غيرها في بعض الأحيان؛ فالثورات الكبيرة هي ثورات الطبائع والأفكار، وفي الغالب تتم الثورات الحقيقية التي يتوقف عليها مصير الأمم بالتدريج، وهذا ما يجعل المؤرخين يلقون مصاعب في تعيين بداءتها؛ ولذلك نرى كلمة التطور أصح في التعبير عن المقصود من كلمة الثورة... ولذلك يتعذر على الأمة أن تختار نظمها الحاكمة قبل أن تغير روحها أولا».

وفي فصل بديع يحمل عنوان «تقلبات الخلق أيام الثورات» يقول لوبون كلاما شديد الأهمية عن التحول الذي يحدث في شخصية البشر أيام الثورات، والذي يعود سببه إلى أن لكل إنسان نفسية ثابتة، لكن له أيضا شئونا خلقية متقلبة تظهر مع تغير الحوادث، وهذه الأخلاق تتكون من اجتماع شخصيات وراثية كثيرة تبقى متوازنة ما دامت البيئة المحيطة به لا تتقلب، لكنها متى تقلبت كثيرا وحصل فيها تغير حاد يختل توازن الإنسان، ويتألف من تكتل عناصره الموروثة شخصية جديدة ذات أفكار وعواطف ومناهج تختلف جدا عن شخصيته العادية، ولذلك يلاحظ في الثورة الفرنسية أن كثيرا من رجال الصلاح والقضاء الذين كانوا يوصفون بالحلم والعقل انقلبوا في أيام الثورة العصيبة إلى متعصبين سفاكين للدماء، فهم أناس لم يتغير ذكاؤهم أو عقولهم، وإنما تغيرت مشاعرهم فتغيروا كليا.

يقول لوبون إن هناك عناصر عاطفية يساعد انتشارها أيام الثورات على تغيير شخصيات الأفراد والجماعات مثل الحقد والخوف والحرص والحسد والزهو والحماسة، وقد لوحظ تأثير هذه العناصر في انقلابات التاريخ كلها ولا سيما في الثورة الفرنسية الكبرى. الخوف في أيام الثورات شأن عظيم يقترب من شأن الحقد.. لقد كان الظهور بمظهر العاقل المعتدل أخوف ما يخافه الناس، فقد سابق أعضاء المجالس وموظفو الاتهام أو قضاة المحاكم خصومهم في التطرف؛ أي في اقتراف الجرائم، ولو أن معجزة أزالت الخوف من المجالس الثورية لكان لها سير آخر، ولكان للثورة الفرنسية وجه آخر».

ثم يتحدث لوبون عن النفسيات التي تسود المجتمع في أيام الثورة، ومن بين ما توقفت عنده طويلا حديثه عن النفسية الثورية حيث يقول: «تشتمل المجتمعات في كل زمن على عدد من النفوس المضطربة، المتقلبة الساخطة المتأهبة للتمرد الراغبة في الفتنة للفتنة نفسها، ولو أن قوة سحرية حققت آمالها بلا قيد، ولا شرط ما عدلت عن التمرد. وتنشأ هذه النفسية في الغالب من عدم الامتزاج بالبيئة أو عن الغلو في التدين أو المرض. وللتمرد درجات مختلفة تبدأ من الاستياء الطفيف الذي ينحصر في كلام المرء عن الناس والأشياء وتنتهي إلى التخريب، وقد يصوب المرء صولته الثورية أحيانا نحو نفسه عند عجزه عن التصرف بها على طريقة أخرى، فلقد كثر في روسيا عدد المجانين الذين لم يكتفوا بالتحريق وإلقاء القنابل فتحولوا إلى أن يكونوا باخعين لأنفسهم ومهلكين لها. هؤلاء على رغم

العزيمـة الظاهرة التي تدل عليها أعمالهم ضعفاء عاجزون عن مقاومة أقـل المحرضـات، والقوانيـن والبيئـة تردعهـم فـي الأوقـات العادية فيظلـون غيـر مؤثرين، ولكن متـى بدت أدوار الفتن فـإن هذه الزواجر تضعف، فيطلقون عنان غرائزهم غير مبالين بالغاية التي نشـبت الثورة من أجلها».

ثـم يضيـف لوبـون قائـلا كلاما شـديد الأهميـة أتمنـى أن نتوقف عنـده طويلا: «الروح الثورية تكـون غير خطرة إذا صدرت عن العقل، بـدلا من العاطفـة أو التدين، فهـي تصبح عامل تقـدم وارتقاء، فعندما يصيـر حكم التقاليد والعـادة ثقيلا على الحضـارة نتخلص منه بفضل أناس من ذوي العقول المسـتقلة الثوريـة كغاليليو ولافوازيه وداروين وباسـتور الذين أعانوا على تقدم العلوم والفنون والصناعة في العالـم. ويجـب أن يكون فـي كل أمة عدد مـن هؤلاء الأعاظـم الذين لولاهم لظل الإنسـان عائشـا في الكهوف، وتتطلب الجـرأة الثورية التي تُظهر ما عند صاحبها من الاكتشافات استقلالا ذهنيا يتخلص به من الأفكار الجارية بين الناس، وحصافة يدرك بها ما تحت المتشابهات السطحية من الحقائق».

لكـن لوبون يطمئننا أخيرا بأن ما يجعل شـعبا يختلف عن الآخر في نتائج الثورات، هو أن يكون لهذا الشعب روح وراثية مستقرة مع الزمن، لأن هـذه الروح فـي النهاية تتغلـب على روح التخريـب؛ ولذلك يظهر الشـعب أحيانـا بمظهـر المتقلب، ولكـن لنعلم أن وراء تقلبه وحماسـه ومظالمـه وهدمـه غرائـز ثابتـة متصلة تدعمهـا روح العـرق، وقد أثبت

تاريخ الثورة الفرنسية وتاريخ القرن الذي بعدها كيف تتغلب الروح الثابتة على روح التخريب في نهاية الأمر، وما أكثر المرات التي جدد فيها الشعب حالا بناء ما هدمه من الأنظمة»، يبدو كلام لوبون مطمئنا من ناحية، لكن كلامه الذي سبق أن نشرته في مقال سابق حول إمكانية أن يبني الشعب نظاما أشد استبدادية إذا مل من الفوضى هو الذي يجب أن يثير في نفوسنا القلق، ويجعلنا نفكر بمسئولية في أي خطوة ثورية نخطوها، أو أي شعار ثوري نرفعه.

صحيفة التحرير - ٤ أكتوبر ٢٠١١

يا حسرةً على الرجال

حـدث ذلك في خريف عـام ١٩٦٥ كانت «ملايين الشـعب تدق الكعـب» وهي تلتـف حول زعيمها «المنقذ» جمـال عبد الناصر الذي فوضته فـي توجيه ضربة قوية لجماعة الإخوان المسـلمين التي كانت قـد ارتكبت لتوها غباوة جديدة تضاف إلى سـجل غباواتها السياسـية المتكررة والمتشابهة، حيث كان بعض قادتها وأنصارها قد اعتقدوا أن توجيه عدد من ضربات العنف إلى «المجتمع الجاهلي» الذي سـكت علـى قمعهـا والتنكيل بها في عام ١٩٥٤ يمكن أن يكـون معلما على طريق تطبيق شـرع الله حسـب تعبير سـيد قطب مُنظِّرها الفكري فيما بات يُعرف في أوسـاطها بزمن المحنة، وكالعادة اسـتغلت السـلطات الأمنيـة تلك الحماقة الإخوانية لتُحكم قبضتها على البلاد أكثر وأكثر، ولتبطش بكل من يفكر في أن يقول كلمة اعتراض تشـق صف الشعب الفرحان تحت الراية المنصورة.

بعدها بأيام، وفي الخامس والعشـرين من شهر أكتوبر لعام ١٩٦٥ جلس كمال الدين حسـين عضو مجلس قيادة ثورة يوليو - والذي بدأ زملاؤه مؤخرا يتهمونه بأنه دخل في دور دروشـة دينية جعله يتعاطف

مع جماعة الإخوان المسلمين - ليكتب إلى صديقه ورفيق سلاحه عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة والرجل الثاني في البلاد رسالة طويلة مريرة جاء في نص سطورها ما يلي: «اليوم أصبحت يا عبد الحكيم أعتقد أنه لا حياة لي في بلدي الذي أصبحت أرى فيه جزاء كلمة «اتق الله» هو ما أنا فيه وما أهلي فيه. عندما قلت لكم اتقوا الله قصدت أن تتقوا الله في هذا الشعب الذي قمنا لخلاصه واسترداد حريته. قلت لكم اتقوا الله بعد أن ألجمتم جميع الأفواه إلا أفواه المنافقين والمتزلفين والطبالين والزمارين. قلت لكم اتقوا الله في الحرية التي قضيتم على كل ما كان باقيا من آثارها... قلت لكم اتقوا الله لأنكم أردتم استنعاج هذا الشعب، وأنا لم أكن أرضى ذلك، ولذلك أصبحت الآن لا أطيق الحياة في هذا الجو الخانق.

أنا آسف أن تتحول ثورة الحرية إلى ثورة إرهاب لا يعلم فيها كل إنسان مصيره، لو قال كلمة حرة يُرضي بها ضميره ووطنه.. يا عبد الحكيم ألم أقل لك في مارس الماضي: ما هي ضمانات الحرية؟ فقلت: «نحن ضمانات الحرية»، وقلت لك إنني لا أثق في ذلك، وهذه الأيام تأتيني بالبرهان بأن للحرية ضمانات وأنتم الضمانات، كل شيء جائز. ألم أقل لك يومئذ إنه إذا لم يتنازل عن تألهه وفرديته فلا فائدة للعمل معه، فهل يا ترى الذي جرى لمواجهة كلمة اتق الله هو دليل لهذا التنازل. كلمة صريحة أقولها لك يا عبد الحكيم؛ أنا أرثي لهذه الحال، ومع ذلك أتمنى أن يهديكم الله.. لا تغضب أنت الآخر يا عبد الحكيم، راجع نفسك ولا يغلبك الهوى والغرض، راجع ضميرك قبل ثورة ٢٣ يوليو، وعلى مدى ٣ سنين من هذه الثورة ثم انظر أين ينتهي بكم الطريق؛ طريق الحرية أقدس ما منح الله للإنسان.

يجب أن تعلم يا عبد الحكيم رأي الناس فيكم وما يحسون نحوكم، لقد أصبحتم ويا للأسف في نظر الشعب جلاديه، نتيجة تدعو للرثاء، وحصادًا مرًّا لثورة ٢٣ التحريرية الكبرى، تتجرعه الملايين المستذلة بعد ما وضعت في تلك الثورة وقيادتها آمالها، وأعطتها الكثير واستأمنتها على الكثير؛ على الحرية، ولكن أين الأمانة الآن، والله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل؟ لقد بُددت الأمانة، لقد وئدت الحرية، ونعيش هذه الأيام وكأننا في ليل لا يبدو له فجر.

يا عبد الحكيم لا تتصور أنني مبتئس بما جرى، ولكنني حقيقة أشعر بالأسف وأقول: «يا حسرة على الرجال»، «يا خسارة على الثورة»، وأشعر بذنب واحد وهو أن ثقتي غير المحدودة فيكم مكَّنت الطغيان أن يطلب هذا الشعب حريته وكرامته وإنسانيته ومهما كانت الشعارات الزائفة التي ترددت والادعاءات التي تقال فالناس جميعا يعرفون حقيقتها.. والسلام».

لم تؤثر كلمات كمال الدين حسين النارية في نفس عبد الحكيم عامر، بل على العكس، فقد جلس فور تلقيه الرسالة ليكتب خطابا ناريا يهاجم فيها صديقه القديم بضراوة ويتهمه بالتعاطف مع جماعة الإخوان الإرهابية، ويذكِّره بمؤامرات الاستعمار والرجعية على مصر، ويتهمه بالانقلاب على الثورة بعد أن كان متحمسا متطرفا لقراراتها الاشتراكية، ويتهمه بالدكتاتورية وباختلال التوازن، وبأن حالته النفسية أثرت على تفكيره، ويطلب منه أن يتقي الله في شعب

مصـر لأن الحرية لا يمكن أن تولد في ظـل الدماء والخراب وفي ظل أناس يتكلمون باسم الله مفوضين منه.

كان يبـدو من سـطور عبـد الحكيم عامر التي نشـر نصها الأسـتاذ عبـد الله إمام فـي كتابه «عبد الناصـر والإخوان المسـلمون» أنه ليس مسـتعدا حتى لأن يفكر فيما تحدث عنه أو يراجع نفسـه أو يطلب منه أن يجلسا لكي يتحدثا ويتناقشا، كان يبدو واثقا بلا حدود في صحة ما يقومون به، ثقة أكبر من التي منحها كمال حسين نفسه له ولعبد الناصر قبل سنين.

بعـد أقل من عامين، وقعت هزيمـة الخامس من يونيو اللعينة، كان كمال الدين حسـين خارج السـلطة بعد أن حصل على أمان لرقبته من بطش رفاق الماضي، وكان عبد الحكيم عامر واحدا من الذين تحملوا مسـئولية الهزيمـة، وعندمـا انتحر أو نحـروه كان يحاول باسـتماتة أن يثبت أنه لم يكن المسئول الوحيد، وأن جمال عبد الناصر كان مسئولا معـه عـن كل ما جـرى، وبالطبع لم يتذكـر أحد في خضـم كل ما كان يجـري وقتهـا كلمـات كمال الدين حسـين ولا حسـرته علـى الرجال الذين حصلوا على ثقة غير محدودة لم يكونوا أهلا لها.

والآن، وبعـد كل ما جرى، تسـكن القصة الحزينة المنسـية أوراق ملـف قديـم متخـم بمثيلاتهـا كُتِب علـى غلافـه عبـارة كان يمكن أن تغيـر أحوالنـا لـو تأملناهـا منذ قيلـت قبـل قـرون: «السُّـلطة المُطلقة مفسدة مُطلقة».

صحيفة الشروق - سبتمبر ٢٠١٣

الواعظ المحتال

كان الكل مندهشا من صعوده السياسي الصاروخي، لكن لم يكن أحد يتصور أنه سيكون قادرا على الإطاحة بأكبر مسئولي الشرطة، لكنه فعل لأنه كان يدرك أن دخوله تلك المعركة مع جهاز الشرطة مسألة حياة أو موت، فقد كان يخفي بداخله جرحا عميقا من المهانة التي تعرض لها عندما دخل في مواجهة مع ضابط شرطة فقام بالبصق على الأرض لكي يستفز الضابط، فرفسه الضابط ليتدحرج على السلم، وعلى عكس ما توقع الجميع صمت ولم ينبس ببنت شفة عن الحادثة، لأنه قرر بداخله أن تكون مواجهته مع رؤساء الضابط لكي يصبح نموذجا مرهوبا لا يتمكن أحد من المساس به ولا تقديمه إلى العدالة.

كانت أكاذيبه واضحة للعيان، ومع ذلك وجد على الدوام من يتبعه ويصدقه ويضحي بحياته من أجله، عندما فحصه مستشفى متخصصًا في الأمراض العقلية توصل تقريره إلى أنه كان يعاني من حالة غير مسبوقة من الشذوذ النفسي، وأن ما يجعل الناس يصدقونه

«وجود موهبة استثنائية لديه تجعل انعكاس تأثير الشمس والظل على حدقتَي عينيه خاصا جدا، وهو ما يمنحه قوة تأثير فطرية على أتباعه ومريديه»، زاد الطين بلة ما شاع بين البسطاء عن كونه صاحب كرامات قادرة على شفاء بعض الحالات الحرجة التي حار فيها الطب، كانت الحادثة الأبرز التي صنعت أسطورته هذه ما تناقله الناس عن تقدم سيدة مصابة بالروماتيزم الحاد إليه لتشكو من مرضها المزمن، فوضع يديه عليها ونظر في عينيها نظرة حادة وتفوه بكلام لم يسمعه الناس، وبعدها أعلنت السيدة أنها برئت من عِلّتها، فكان تأثير ذلك هائلا على الملايين خاصة مع تفشي الجهل المريع في البلاد. أخذ أصحاب العقول يضربون أخماسا في أسداس وهم يتابعون صعوده الصاروخي وقدرة الناس على التسامح مع أكاذيبه الواضحة للعيان. لاحظ مراقبوه أنه كان يتعمد دائما أن يميل رأسه إلى الخلف وهو يتحدث، ويحدق ببصره الحاد النافذ فيمن أمامه، كأنه كان على يقين أن نظرته ستؤثر في الجميع، وهو ما حدث بالفعل، فقد تمكن من الحصول على ثروة هائلة بفضل طُرقه في الاستيلاء على عقول البسطاء في كل مكان.

عندما تعاظم نفوذه بدأ في الصدام مع بعض كبارات الدولة الذين لم يرضوا عن طموحه السياسي المتعاظم، خاصة أنهم كانوا يعرفون الكثير من أسراره، وهنا أدرك أنه لا بد له من التحكم في وزارة الداخلية لكي يواجه هؤلاء، وبالفعل استطاع بفضل علاقاته الأسرية الوثيقة بالحاكم أن يطيح بخصومه في البوليس، وبعد أن فاز في تلك المواجهة قرر أن يتوسع في نشر نفوذه في سائر البلاد، كان الجميع يتعجبون كيف كان يفلت من كل المكائد التي كانت تنصب له، ولم

يعلموا أنه كان يمتلك عملاء في أجهزة الدولة تطلعه على ما يحاك له. كان مع تظاهره بالغيرة الوطنية الشديدة يعمل على تقويض أركان الدولة بدهاء، فقد كان بداخله يعلم أن زلة واحدة منه إما أن تقضي عليه بالسقوط من حالق فيدخل في حيز النسيان وإما أن تسوقه إلى غيابة السجن؛ ولذلك سعى إلى استخدام شعبيته لإقصاء أعدائه من المناصب العليا ليضع مكانهم أصدقاء له، ونجح في أن يوصل إلى منصب رئيس الوزراء رجلا قليل الخبرة كان من أشد الناس تعلقا به، ودل ذلك النجاح على مقدار تسلطه على الحاكم الذي صار قطعة من العجين في يده يُشكلها كيفما شاء، وما جعله ينجح في ذلك هو أن تفكير الحاكم كان محدودا للغاية، وهو ما جعل صاحبنا يرى نفسه ذا سلطة تضارع سلطة الحاكم نفسه، كان يقول لأصدقائه إنه صار ملكا متوجا على البلاد بدون أن يكون على رأسه تاج، خاصة أنه بعد أن فرض نفوذه على وزارة الداخلية لم يبق رجل واحد في البلاد لا يخشى سطوته، وبعد أن زاد نفوذه السياسي لم يعد يُحدِّث الناس أصلا عن الدين، بل تشاغل فقط بالشئون السياسية الكبرى، لكنه كان حريصا من حين لآخر على الحفاظ على مركزه الديني في نفوس السذج الذين يصدقونه، وكان كلما تم تضييق الخناق عليه ويظهر اقتراب فضحه يقوم بإحداث فضيحة كبرى يشغل بها الجمهور.

لا أدري لماذا انتابني الآن الشعور بأنك يمكن أن تفهمني خطأً، لذلك سأضطر لإيقاف حكايتي لأقول إنني أحدثك منذ البداية عن رجل الدين الواعظ المحتال جريجوري راسبوتين؛ أشهر الشخصيات

التي عَرَفَتها روسيا قبل قيام ثورة ١٩١٧، وإن كل ما قرأته سابقا كان سطورا اقتطعتها من كتاب الكاتب الإنجليزي ويليام ليكيه «الراهب المحتال»، والذي روى فيه كيف كان راسبوتين العامل الأهم في إضرام نيران الفتن والاضطرابات في روسيا، ومع ذلك لم يصدق الإمبراطور الروسي كل ما كان يقال له عن خطورة راسبوتين عليه وعلى البلاد بأسرها، حتى حلت نهاية الإمبراطور وأسرته بعد عشرة أسابيع من مقتل راسبوتين عندما أطاحت به الثورة الروسية. أتمنى أن يكون في إعادة تأمل شخصية راسبوتين المثيرة فرصة لكي نذكّر أنفسنا بأنه عندما يرفض البشر الاحتكام إلى عقولهم ويجرون وراء المتاجرين بالشعارات الدينية عمال على بطال، يصل المجتمع إلى طريق مسدود يؤدي به إلى الانفجار، وربما يحدث له ما حدث للمجتمع الروسي الذي انتقل من الاكتواء بنار سلطة استبدادية تستخدم الدين لمصلحتها إلى نار سلطة استبدادية غاشمة تقف ضد الدين، ثم إلى نار سلطة استبدادية مقنَّعة تعمل على استغلال الدين لمصلحتها، ليدفع المجتمع ثمن كل ذلك غاليا فتتدهور أحواله مع أنه يمتلك أعظم العقول في الآداب والفنون والعلوم، أفلا تعتبروووون؟!

صحيفة الشروق - يناير ٢٠١٣

ياريت تراضي الرجالة

مشكلة الذين يترحمون على أيام الزمن الجميل ويلعنون سنسفيل أيامنا القبيحة أنهم لم يذهبوا أبدا إلى دار الكتب، ولم يترددوا بانتظام على باعة الصحف القديمة في سور الأزبكية، ولم يسمعوا أن حكيم الدهر أبا الطيب المتنبي خلص الحكاية من زمان عندما قال:

صَحِبَ الناسُ قَبلَنا ذا الزمانا   وعَنَاهم مِن أمرِهِ ما عَنانا

كل يوم والتاني تجد شخصا يطلع علينا لينتع مرثية لأيام زمان الحلوة ويلعن سنسفيل هذا الزمان الرديء الذي يملؤه العنف والتحرش والانحطاط الأخلاقي والأنانية والأنا مالية والسلبية، ومن عجب أن من يقرءون له أو يستمعون إليه أو يشاهدونه يشاركونه فيما يقوله، دون أن يتوقف أحدهم ليسأل نفسه: «هو أنا سمعت الكلام ده فين قبل كده؟»، أو بمعنى أصح: « هو أنا من إمتى منذ ولدت توقفت عن سماع هذا الكلام؟».

لن أزايد على أحد، فقط سأحكي ما أعرفه. كان لديَّ تسعة أعوام وكنت مرسلا في الصباح الباكر لمهمة جلب عيش فينو لزوم خروجة البحر، الفرن كان قريبا من بيتنا في شارع عمر بن الخطاب بالإسكندرية وهو المزدحم بالناس ليلا ونهارا، كنت أقف في طابور الفرن عندما دوت صرخات أنثى تقاوم أربعة رجال أشداء أخذوا على مرأى ومسمع من الناس يشدونها إلى داخل «مشروع» - الاسم الذي يطلقه الإسكندرانية على الميكروباص - لا زلت حتى اللحظة أتذكر نظراتها الهلعة وصيحات الاستنجاد التي تحولت إلى شتائم للمتفرجين عليها، ولا زلت أذكر نظرات الخزي في عيون الجميع وهم ما بين محوقل ومستعيذ بالله من شر الفضيحة وما بين مذكر أنها أكيد هربانة من أهلها وآديهم لاقوها، كل هذا أذكره مثلما أذكر مئات التحقيقات الصحفية والأحاديث التلفزيونية التي تنعَى منذ أن وعيت على الدنيا انتشار مظاهر الأنامالية والسلبية والعدمية وتقطيع الأزواج في أكياس النايلون وتغير شكل الجريمة وزيادة العنف الغريب على مجتمعنا.. وما إلى ذلك من موضوعات معادة ربّى الصحفيون والإعلاميون جيلا بعد جيل أبناءهم من خير اللكّ فيها.

أرجوك راجع صحف السبعينيات والثمانينيات وصحح لي كلامي إن كنت مخطئا، أما إذا لم يكن لديك وقت فدعني أرجع بك إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، إلى حيث الزمن الجميل الذي يحن إليه الواهمون، ما رأيك مثلا فيما ينقله الباحث المهضوم الحق عظيم الإنجاز محمد سيد كيلاني (صاحب كتابَي ترام القاهرة وفي ربوع الأزبكية) عن صحيفة المقطم في عددها الصادر بتاريخ ١٩ أغسطس ١٨٩٨ وهي

تستنكر «ما يفعله بعض الذين شاركوا الغواني في لباسهن، والمخنثين في أخلاقهم، من ارتيادهم الطرقات والمنتديات، وهم كلما رأوا سيدة عارضوها في طريقها وأسمعوها من بذاءة أقوالهم ما يحمر له وجه كل حر خجلا، وأنكى من ذلك وأشد وقاحة شراؤهم الصور القبيحة وإبرازها أمام كل مخدرة يلتقون بها، فتأخذ تلك المسكينة الرعدة من هذه السفالة، ولا يزالون في أثرها حتى تلج حانوتا، أو تركب مركبة تخلصها من شرهم، فيغرقوا إذ ذاك في الضحك، هؤلاء غير رجال وَخَط الشيب رأسهم، تجدهم عصارى كل يوم في محطة الكهرباء العمومية، يركبون القطار ذهابا وجيئة، وليس لهم من أرب سوى التهكم وإبداء سفالتهم لكل امرأة يجدونها في القطار وحدها، ولا رجل معها»؟ وكيف عمت الشكوى بعدها أنحاء البلاد من الانفلات الجنسي الذي أصاب الناس، والذي «بلغ مبلغا لم يشاهد في البلاد الأجنبية؛ فقد عُثر في يوم واحد على ثلاثة عشر لقيطا في جوانب القاهرة»، هذا وحياة غلاوتك غيض من فيض، فعن أي زمن جميل يتحدث السادة اللاطمون على الماضي؟! وهل يدركون أن عزفهم على أنغام الماضي الجميل الذي ولَّى، لن ينتج عنه أبدا أي إصلاح؟ ولا تدفع إلا إلى مزيد من اليأس؟ وهل يعون أن قدر الكاتب هو دفع الناس إلى الحنين إلى المستقبل وليس إلى البكاء على الماضي؟

لو أنصف هؤلاء العائشون في وهم الزمن الجميل لقالوا إن كل الأزمنة حافلة بالقبح، هكذا خلقها الله وهكذا كُتب علينا أن نكابدها،

وربمـا كان زمننـا أجمل لأننا بتنا فيه نواجه أخطاءنا ولا ندفن رءوسـنا فـي الرمال، ولـو أخذنا التحرش مثلا لأدركنـا أن فتياتنا اليوم في ظني صرن أجدع من فتيات زمان، بات بينهن من يتحفزن ضد كل من تسول له نفسـه أن يتحـرش بهن، بل وحتى ضد من يتخيلـن أنه يتحرش بهن وهـو من ذلك بريء، وفي ذلك سـمعت قصة من صديق لي يعمل في معرض للسـيارات عن فتاة رقيقة استلمت منه سـيارتها الجديدة فقال لها صديقي مشـيرا إلى عُمَّاله: «ياريت تراضي الرجالة»، فتحولت إلى وحش كاسر، مع أنه لم يكن يقصد ذلك النوع من المراضاة!

صحيفة المصري اليوم - ٢٠٠٨

دايمًا دموع دموع

لا، معلهش، يصعب أن أصدق أن الرئيس المخلوع حسني مبارك أجهش بالبكاء فور رؤيته لملك البحرين الذي زاره في جناحه بالمركز الطبي الذي كان عالميا وأصبح مباركيا. ليس لأن مبارك لا يمتلك غددا دمعية، أو لأن الزيارة لم تحدث من الأساس كما قال سفير البحرين بالقاهرة، بل لأنني أتخيل سيناريو مختلفا للزيارة إن كانت قد تمت، أظنه السيناريو الذي حدث وسيحدث في كل الزيارات التي تلقاها أو سيتلقاها المخلوع.

أظن أن مبارك سيكون دائما أمام زائريه في غاية التماسك، سيحتضن زائره بنفس طريقته الرئاسية في الاحتضان، سيكون مستعدا لاستقباله بملابس أنيقة وضحكات لا مبالية ستدهش الزائر بقدرة مبارك على الاحتمال والجلد، وإذا عبر عن إعجابه بذلك فسيقول له مبارك إنه يعتبر ما يحدث له ابتلاء من الله سيعبر سريعا، وإن المؤمن مصاب، وإن مصر تدفع الآن ثمن ظلمها له، وستظل تدفع أكثر وأكثر حتى يخرج شعبها عن بكرة أبيه ليهتف باسمه ويعتذر له عما تسببت

فيه قلة منه، سيبدو الزائر مندهشا بمتابعة مبارك لكل التفاصيل التي تحدث في مصر، بل إنه ربما سمع منه أسرارا لا يعرفها الزائر نفسه، سيُري الزائر سجلا بأسماء كل من يتصل به أو يرسل له تلغرافات أو رسائل، وأخيرا سيُطلع الزائر على أرشيفه الخاص الذي يجمع فيه أخبار المصائب التي تتعرض لها مصر كل يوم قبل أن يرفع رأسه بفخر قائلا: «شفت ربنا بيخلص فيهم إزاي؟ ولسه.. سيبهم يتربوا».

صدقني، الحاكم الذي لا يبكي على ما فعله بوطنه وشعبه، لن يبكي أبدا على نفسه، مهما جرى له. تذكر أن مبارك لم تغيره أفظع تجربة يمكن أن يمر بها إنسان على الإطلاق؛ تجربة وفاة حفيده رحمه الله التي واصل بعدها ظلمه وفساده بشكل أنكى، هل تذكر عينيه الميتتين وهو يقول في مجلس الشعب: «سيبوهم يتسلوا»؟ هل بدا لك أنها يمكن أن تحمل رغبة في التطهر؟ هل بدا لك أنه بسبب استمواته على السلطة تذكر حفيده ولو للحظة؟ لو كان قد فعل لما كان قد سقط كل هؤلاء الشهداء والجرحى، ولما نزفت مصر كل ما نزفته؟

تذكر معي عينَي معمر القذافي عندما أمسك به ثوار ليبيا وهم يمعنون فيه تنكيلا وأذية، كان يبدو تائها حائرا كأنه أخذ جرعة من الحبوب المخدرة التي يتعاطاها السجناء لكي يحتملوا التعذيب، لم يجد ما يقوله للثوار سوى: «ما تخافون الله؟ ما تعرفون الرحمة؟»، وهي جُمل كانت كافية لاستفزازهم أكثر وجعلهم يمعنون في تعذيبه؛ فكل واحد منهم كان قد اكتوى بنيران رحمة القذافي الذي تذكر الله متأخرا ككل الطواغيت والفراعين. تأمل في عينَي السفاح علي عبد الله صالح قبل حرقه وبعد أن عاد إلى الحكم بعد الترميم

السعودي لجسده فلن تجد أي مشاعر إنسانية على الإطلاق سوى الرغبة في الانتقام والفتك. حتى زين العابدين بن علي وهو يقف مرتعشا مرتعدا يقول لشعبه: «فهمتكم.. فهمتكم»، لن تجد في عينيه - لو تأملتهما - رغبة في التطهر أو الإصلاح بقدر ما ستجد تساؤلات عن أفضل طريقة للتخلص من هذه الورطة بأقل خسائر مادية ممكنة. هل يبدو لك أن هناك فرقا بين حجر الجرانيت وبين عينَي بشار الأسد وهو يواصل إلقاء أكاذيبه على شعبه؟ كل هؤلاء الطغاة لم يحمل أحد منهم همًّا وطنيا أو حلما إنسانيا يجعله يبكي ندما أو رغبة في التطهر، كل واحد منهم نال فرصا للإصلاح والتغيير والتطهر لم يمنحها الله عز وجل لأحد آخر من خلقه، ومع ذلك فقد عموا وصموا ثم عموا وصموا وأصروا واستكبروا استكبارا، فكيف ننتظر منهم دموع الندم ولو بعد فوات أوان الندم؟!

في مذكراته فائقة الأهمية يحكي نوبار باشا عن دموع حاكم من حكام مصر سالت غزيرة منهمرة، لكنها سالت قبل أن يترك الحكم، وهو ما أعطى لها معنى شديد الخصوصية، كانت تلك دموع والي مصر سعيد باشا الذي حكمها بعد محمد علي باشا وعباس باشا، كان قد أغرق البلاد في أزمات اقتصادية جسيمة بسبب ثقته في المغامر الفرنسي ديليسبس، وقد رآه نوبار يبكي في ليلة تسبق سفره إلى باريس والباب العالي لمحاولة حل أزمات البلاد، اندهش نوبار؛ فقد كان يرى الوالي دائما مرحا غير مكترث بشيء، وعندما سأله عن سبب بكائه فوجئ به يقول: «لقد خربت مصر، خربتها تماما، ماذا سيقولون

عنـي؟»، حاول نوبار أن يخفـف عنه ويذكره بإنجـازات حقيقية فعلها لمصلحـة الشـعب الـذي كان يمتلك أحلامـا عظيمة من أجلـه، فهدأ سـعيد قليلا وقال له: «بلى، لقد فعلت كل شيء من أجل رفعة الشعب المصري»، بدا نوبار في مذكراته خجلا لأنه لم يصارح سعيد بالحقيقة الكاملة، لكنه التمس العذر لنفسـه لأنه كان يهدف إلى مواسـاته لا إلى إثـارة شـجونه، لكـن طمأنة نوبـار لم تُزل مخـاوف سـعيد تماما، فقد ظل في أواخر أيامه مشـغولا بما سـيقوله التاريخ عنه، لدرجة أنه سأل خادمـه عنتري وهـو يصب عليه الماء خلال حمامـه اليومي: «عنتري، ألم تفكر أبدا ماذا سـيقول التاريخ عنـك؟ ألا تخجل أم أنك لا ترغب فـي أن يقول التاريـخ بأنه كان هناك عنتري إلى جـوار أمير كبير، وكان يستطيع أن يتكلم معه لكنه لم يفعل شيئا من أجل قريته ولا أهله؟ أهذا ما تريد أن يقول التاريخ عنك؟». يروي نوبار أن سـعيد وسـط انشغاله المحموم بما سيقوله التاريخ عنه، سأل مرة حلاقه العجوز الحاج علي عما سيقوله التاريخ عن عرفان رئيس خدم قصر الوالي، فأجابه الحاج إجابة عبقرية: «سـيدي، سـيقول التاريخ إن عرفان كان يأكل ويشـرب ويدخـن وينـام»، ودفع الحاج ثمـن تلك الإجابة خمس عشـرة ضربة بالعصا؛ لأن عرفان كان يسترق السمع من وراء الباب.

فـي اعتقادي لو كان مبارك مهتما بما سـيقوله عنه التاريخ لصدقت أنه يبكي بالدموع كل ليلة على ما ضيعه من فُرص كانت يمكن أن تضع مصر وشـعبها في أرفع مكانة، لكن مبارك ببسـاطة كان يأكل ويشـرب ويقمع ويفسد وينام؛ ولذلك أظن أن الشيء الوحيد الذي كان سيبكيه

بحرقة، لو كان ملك البحرين قد أخبره مثلا بضياع ثرواته التي قام بتهريبها هو وأولاده خارج مصر، عندها فقط كان مبارك سيبكي بدل الدموع دما. لكن بكاء مبارك أو ضحكه الآن ليس مهمًّا لمصر، المهم الآن: هل يفكر المشير طنطاوي فيما سيقوله عنه التاريخ لو أضاع فرصة تحقيق الثورة المصرية لمطالبها كاملة؟ أتمنى أن يكون المشير مشغولا بما سيقوله عنه التاريخ، ولا يكون من معتنقي منهج عرفان في التعامل مع التاريخ.

حفظ الله مصر ورزقها بحكام بكّائين ولو كانوا خطّائين، فخير الخطّائين البكّاءون.

صحيفة التحرير - نوفمبر ٢٠١١

هل كانت الثورة مؤامرة؟

هل أنت من الذين يحبطهم ذلك الحديث الذي لا زلنا نسمعه بين حين وآخر من هنا وهناك، عن أن ثورة يناير كانت مؤامرة خارجية؟ هل تضايقك السموم التي ينفثونها بحق ثورتنا في كل مكان؟ هل يحزنك اقتناع بعض البسطاء بذلك الكلام الذي لا يحترم دماء الشهداء ولا تضحيات الثوار؟ نصيحتي الشخصية: لا تهتم بكل ذلك الهراء ولا تبذل أدنى مجهود في الرد عليه، لكن ذلك لا يعني أن تتوقف عن قراءة هذا المقال وتذهب لحال سبيلك، فما سأقوله لك لاحقا هو الذي سيجعلك تجمد قلبك وأنت تتجاهل ذلك الهراء.

إذا كنت تحب أن أجيب لك من الآخر، دعني أقل لك إنه يمكن فعلا دحض كل هذا الهراء الذي يبدو بعضه علميا ومدعما بالأدلة، في حين لا يبذل بعضه الآخر أدنى مجهود في إخفاء حقيقة أنه محض هراء، وأنجع وسيلة لذلك هي أن نتحرك جميعا وسط الناس لكي نكون ثورة تمشي على الأرض، ليس بالصوت العالي والجعجعة والعصبية، بل بالفهم والوعي والقدرة على التواصل مع الناس وتحمُّل مخاوفهم واحتواء همومهم، ببساطة أنت واجهة الثورة، فانظر كيف

جعلت من حولك يتواصل معها، وستعرف هل أحسنت إليها أم أنك أسأت إليها بأكثر مما أساء الذين اتهموها بأنها مؤامرة. إذا كنت ترى أن كلامي محض وعظ لا طائل من ورائه وأنني لم آتك بالجديد الذي وعدتك به، فدعني أقل لك إن جديدي اليوم قديم لكن أحدا لا يذكِّر الناس به، ببساطة لا توجد ثورة كبرى لم تتعرض للاتهام بأنها كانت مؤامرة، وكان ذلك الاتهام وسيلة أعدائها لمقاومتها، أو وسيلة الذين لم يشاركوا فيها لتبرير خذلانهم لها، ودائما كانت تلك الاتهامات تموت عندما تمضي الثورة قدما وتشق طريقها لتصبح واقعا أقوى من التشنيعات والاتهامات، فيتحول الذين شككوا فيها إلى مؤيدين لها طمعا في مكاسبها أو حتى قانعين بكف أذاهم عنها خوفا على أنفسهم.

في مذكرات العالم الأزهري العظيم الشيخ عبد الوهاب النجار عن وقائع ثورة ١٩١٩ «الأيام الحمراء» والتي أصدرتها دار الكتب والوثائق القومية قبل ثورة يناير بتقديم وتحقيق المؤرخ الفذ أحمد زكريا الشلق، يروي النجار أن الإنجليز حاولوا مقاومة الثورة بالتأكيد على أن أعداءهم الألمان يقفون وراءها، وتحدثوا كثيرا عن نقود ألمانية تقوم بتمويلها، لكنهم لم ينجحوا لا هم ولا مناصروهم المصريون في إثبات ذلك، وعندما فشل السيناريو الألماني ظهر سيناريو آخر يتداوله الكارهون للثورة من أبناء مصر إما لأنهم اعتبروا أنها تضرب مصالحهم مع الإنجليز، وإما بسبب خوفهم من المجهول، حيث قالوا إن جمعية الاتحاد والترقي التركية التي كانت تصارع ضد الخلافة العثمانية هي صاحبة اليد الطولى في إثارة الثورة، والغريب أن الشيخ النجار برغم أنه كان يمتلك عقلا نقديا بديعا جعله يتصدى بالتحليل لكل ما عايشه

منتقـدا كثيرا مما عايشـه من شـطحات وأخطاء، إلا أنه لـم يضيع أكثر من سـطر ونصف للرد علـى ما قيل، حيث كتب بالنص «فما أسـخف العقول التي تتصور ذلك، وما أحط النفوس التي تسمح لنفسها باعتقاد هذه السـخافات»، بس، هذا كل ما قاله في مذكراته البديعة التي أرجو أن أعرضها لك بالتفصيل عندما تروق الأحوال قليلا بإذن الله.

كلام مشـابه لهذا وإن كان أكثر علمية وتحليلا كتبه دارس الثورات كريـن برنتون الذي فلقت دماغك بـه في مقالات عديدة حين يؤكد أن «كل الثورات شهدت جدلا حول ما إذا كانت مؤامرة أم لا، المعارضون للثورة الفرنسية ظلوا يصرون على أنها كانت من فعل أقلية مدبرة خبيثة من الماسـونيين والمهيجين المحترفين الذين سـيطروا على الصحف في النصف الثاني من القرن الثامن عشـر واعتادوا العمل منظمين. في حالة الثورة الروسية لا زال بعض المهاجرين الروس يؤمنون بأن أقلية من البلشـفيك ممـن لا ضمير لهم تآمـروا لقيام ثورتَـي فبراير وأكتوبر ١٩١٧، وفي نظر أنصار أسـرة سـتيوارت كانت الثورة الكبرى مؤامرة ناجحة لسـوء الحـظ قام بها الكلفانيـون المحبون للمـال ضد إنجلترا ذات التقاليـد، وفـي الثـورة الأمريكيـة لم تختـف نظريـة المؤامرة في التفسـير. نسـتطيع أن نسـتنتج من كل تلك الوقائع قانونـا هو أن الثوار المنتصرين ينسـبون نجاحهـم دائما إلى قيام الغالبيـة في وجه الطغيان الفظيـع، أمـا مؤيدو النظام القديم المهزوم فإنهم ينسـبون فشـلهم إلى خطـط أقلية من الأشـرار المهرة الذين لا ضمير لهم، وكلا التفسـيرين لا يعنى بالتفسير العلمي للحقائق ويستهدف إرضاء العواطف البشرية بهـذا الهـراء، لأن الثورات تنمو فعـلا من بذور غرسـها أناس يريدون

التغيير ويبذلون جهدا كبيرا في تنظيم حديقتهم، لكنهم لا يعملون ضد الطبيعـة، بل يعملون فـي تربة وطقس ملائمين لعملهـم، وثمار الثورة تمثل التعاون بينهم وبين الطبيعة المحيطة بهم».

لاحـظ أن ما أنجح هذه الثورات أو أفشـلها فـي النهاية كان قدرتها على التطور والتواصل مع الشـعب، فعندما نجحت لم يتذكر الشـعب سـيناريوهات المؤامرة، وعندما فشلت انشغلوا بفظائع فشلها أكثر من ملابسـات قيامهـا. أتذكر هنا الكاتب محمد جلال كشـك الذي أحب أسـلوبه كثيـرا برغـم اختلافي مع الكثير مـن أفكاره عندمـا بذل جهدا مضنيـا فـي التأكيد علـى أن ثورة يوليـو كانت أمريكية الصنع مسـتعينا بترجمات وتفسيرات لا حصر لها، لكن ما أسقط ثورة يوليو في النهاية لـم يكن أنها كانت مؤامرة أمريكية، بل إنها فشـلت في تحقيق أهدافها التي كان يمكن أن تكفل لها الحياة.

المعنـى واضح يا صديقي، إذا كنت غاضبـا لأن كثيرا ممن حولك مقتنعـون بأن الثورة مؤامرة، فعليك أن تسـعى شـخصيا لإنجاحها بأن تفعـل كل ما في وسـعك لكي تثبـت نجاح فكرة الحكـم الديمقراطي المنتخب الذي لن يشـهد النـاس ثمار الثورة الحقيقيـة إلا من خلاله، حتى لو كان الناجح في الانتخابات شخصا تكرهه أو تختلف معه، بأن تتوقف عن ترديد الإكليشـيهات الحمضانة التي تبخها أفاعي الإعلام، بـأن تسـتحضر دائمـا روح ٢٥ ينايـر عندمـا هتفنـا جميعا: «يـا أهالينا انضمـوا لينـا قبـل بلدنا ما تغـرق بينا»، بـأن تتذكر أن الثـورة لم تتفجر إلا عندمـا صـدَّق كثير من النـاس هتافنا فانضموا لينـا، لذلك لا تتعال علـى النـاس، لا تجعلهم يأخـذون عنك دائمـا انطباع الثائـر العصبي

ضيق الخلق، لا تنشر اليأس فيمن حولك، قاوم الحجة بالحجة، إذا وجدت حجة أقوى منك فلا تلجأ إلى الشتيمة بل إلى المعرفة، تذكر أنك أنت أخطر على الثورة من اتهامها بالمؤامرة، واشعر أن في يدك وحدك مفتاح نجاحها أو فشلها،كن واثقا بنفسك فأنت وحدك الذي تعرف أن الثورة لم تكن مؤامرة، وأنت وحدك الذي تستطيع أن تقنع الناس بذلك.

من الآخر.. اللي يحب الثورة يزق.

سبتمبر ٢٠١١

حدث ذات ثورة

يومها لم يصدق إحسان عبد القدوس نفسه عندما اكتشف منع مقال له يهاجم فيه علي ماهر؛ أول رئيس وزراء بعد ثورة يوليو، لأنه كتب في مقاله أن ماهر تجاوز - بحكم السن أو التعود - القدرة على الاستجابة الواضحة لمتطلبات ثورة تنتسب للشعب. أسرع إحسان للقاء جمال عبد الناصر شاكيا له الرقيب الذي رفض التصريح له بمقال «لا أبغي به سوى مصلحة الملايين التي سهرنا الليالي معا نحلم بتحقيق العدل لها»، هكذا قال إحسان لناصر الذي رد عليه: «الرقيب مظلوم يا إحسان.. أنا الذي رفضت المقال لأن هيبة الحاكم تحتم عليّ أن أمنع نشره».

يقول إحسان في حوار طويل له مع الكاتبة أميرة أبو الفتوح ستجد نصه في كتابها الجميل «إحسان عبد القدوس يتذكر»: «لم أفهم ساعتها ماذا يقصد جمال، لقد اعتدت أن ألقاه لقاء ثائر بثائر، إن تكن وسيلة التعبير عن الثورة قد فرقت بينهما، فقد جمعت بينهما روح الثورة، وجمع بينهما الإيمان بالحرية»، وبدأ جمال يفسر لإحسان قراره فحيره

أكثـر، قال لـه: أنا واثق من إخلاصك في كل حرف كتبته، ومتفق معك فـي أن علـي ماهـر يجب أن يذهـب.. لكن حرصي علـى الثورة يحتم علي أن أمنع المقال لأنني لا أريد أن أرسخ في أذهان الشعب أن هناك مـن يقترح علـى الثورة فتنفذ اقتراحه، حتى لـو كان هو عين الصواب، لا أريـد أبـدا أن يتصـور النـاس أن هناك وصايـة على الثـورة.. لو أننا نفذنـا اقتراحك يا إحسـان وأنت صحفي صناعتك القلـم، فماذا يبقى لنا لنعمله وقد صرنا كمسئولين عن الثورة حكاما صناعتنا الحكم؟!

لم يكن إحسان وقتها كاتبا عاديا، بل كان كاتب الثورة الأول الذي يُنظـر لها بمقالاته ويسـاند ضرورة إلغاء الملكيـة وإعلان الجمهورية، لكنـه كان صاحـب ضمير حـر؛ ولذلـك كان يحـذر في مقالاتـه التي نشرت بدءا من أغسطس ١٩٥٢ من مواكب النفاق التي تحرق البخور فـي هيكل السـيد الجديـد، ومن أن يأتـي رئيس جمهوريـة دكتاتور له سـلطات الملك، وعـن خطورة فكرة المسـتبد العـادل، وعن ضرورة ضمـان ممارسـة الحريـة الشـعبية المنظمة، وسـأل: متى يُقـدر لمصر أن تُحكـم بـلا أحـكام عرفيـة؟ طالبا رفـع الرقابة عن الصحـف، وبدأ يدعـو قادة الثورة إلى تشـكيل حزب يمثل الثـورة، لكنهم عندما قاموا بتشـكيل هيئة التحرير ورأى ملامح الحزب الواحد تتشـكل أحس بأن الحريـة قضيـة عمره معرضة للخطـر، ومهما كانت دوافـع هذا الخطر بالغـة الإخلاص فهو في النهاية خطر يتهدد الحرية، فبدأ يعارض ذلك ويتوسع في دعوته إلى الحرية النيابية ويرفض الاعتداء المدبر على أبي القانـون المصري عبد الرازق السـنهوري الذي لم يشـفع له أبدا دعمه

للثورة ولا تاريخه الطويل في خدمة العدالة قبل الثورة، ليكتب سلسلة مقالات كان أشهرها مقاله التاريخي «الجمعية السرية التي تحكم مصر»، قائلا في إحدى تلك المقالات: «لا يمكن أن تتجه الثورة إلى إقامة دكتاتورية عسكرية، وكل من حاول توجيه الثورة إلى هذا الاتجاه غبي لا يفهم، ولن تنتهي محاولته إلا إلى كارثة»، ليجد إحسان نفسه برغم كل حماسه للثورة ودعمه لها في إبريل ١٩٥٤ معتقلا في الزنزانة رقم ١٩ في السجن الحربي بتهمة قلب نظام الحكم، دون تحقيق قانوني وبأمر الذين كانوا يعتبرونه شريكا في الثورة حتى خرج عن خطه المرسوم.

قررت والدة إحسان السيدة الجليلة روز اليوسف أن تدافع عن حرية ابنها بطريقة مبتكرة حين قاطعت أخبار ثورة يوليو كأنها لم تقم أبدا،كان قد سبق لها بتاريخ ١١ مايو ١٩٥٣ أن نشرت خطابا مفتوحا لعبد الناصر تحت عنوان «الحرية هي الرئة الوحيدة التي يتنفس بها الشعب، إنك في حاجة إلى الخلاف تماما كحاجتك إلى الاتحاد»، وقد رد عبد الناصر يومها عليها بخطاب قال فيه إنه لا يخشى من إطلاق الحريات وإنما يخشى من تكرار مأساة الحرية التي كانت قائمة قبل الثورة حين كانت الحرية سلعة تباع وتُشترى. اعتبرت روز اليوسف أن عبد الناصر تجاهل نداءها بالحرية فقررت من جهتها أن تتجاهل أخبار ثورة يوليو كأن لم تكن، بل ورفضت لقاء عبد الناصر في مجلس قيادة الثورة، وبدأت تشن حملة غير مباشرة على النظام بنشر موضوعات تاريخية عن قراقوش وهتلر، وعندما أرسل عبد الناصر

مـن يتفاوض مع روز اليوسـف لرفع الحظر عن أخبـار الثورة رفضت وقالت: «آسفة.. لن أكتب حرفا واحدا عنكم ولو أعدمتم ولدي».

بعـد ٩٥ يوما في السـجن خرج إحسـان من زنزانته ليعـود إلى بيته دون أن يفهـم لمـاذا أفرجوا عنـه ولا لماذا اعتقلوه، حيـن عاد إلى بيته وجـد مكالمـة من عبد الناصر الـذي بدأ كلامه قائلا لـه وهو يضحك: «هيه..اتربيت ولا لسـه يا إحسـان؟»، ليدعوه إلى سلسلة غداءات قال له فيها إنه يهدف إلى علاجه نفسـيا من آثار سـجنه، لم يغير إحسان من موقفه وظل مدافعا عن الحريات، ليعود إلى السجن الحربي بعد أشهر متهَمًا بقلب نظام الحكم ومواجَهًا باعتراف من سـاعٍ في روز اليوسف بأنه حمَّله شـحنة من الأسـلحة لتسـليمها إلى مجهول، ووسط ذهول إحسـان فوجئ بمدير السـجن يرتعش من الخـوف ويطلب منه أن يرد على مكالمـة جاءته اتضح أنها من عبد الناصر الـذي اعتذر له وأعطاه عبد الحكيـم عامر ليعتذر لـه قائلا إنه لم يكن يعـرف بما حدث ويأمر بالإفراج الفوري عنه.

عاد إحسـان إلى بيته مذهولا من تعرضه لهذه المهانة وهو القريب مـن قادة الثورة، وسـائلا نفسـه عمـا كان سـيحدث له لـو كان مواطنا عاديا لا تربطه علاقة بقائد الثورة، يقول إحسـان: «وزاد من إحساسـي بالمأساة القادمة في الطريق أننا لم نكن وقتها قد جاوزنا العام الثاني من عمر الثورة التي قامت لتحرير الإنسان المصري من كل قيد، ولكي ترد للمواطن المصري إحساسه بالكرامة التي طالما اعتدى عليها الثالوث الحاكم قبـل الثورة، وإذا كانت هذه هي حـال الحرية ومدى احترامها

والحفاظ عليها، ونحن في بداية الطريق الثوري فما الذي ستنتهي إليه الأحوال بعد عشرة أعوام؟!».

ولعلك الآن تعرف الإجابة عن سؤال إحسان، وما الذي انتهت إليه الأحوال بعد ١٣ عاما من ذلك، وكيف ظلت مصر منذ ذلك الوقت تتخبط بين لحظات من الأمل وسنين من الآلام. فاعرف لرجلك قبل الخطو موضعها، وتذكر دائما عاقبة التفريط في الحرية تحت أي مبرر، واعلم أن الحذر خير من الثقة المطلقة، والعقل خير من الهتافات، والمية تكدّب الغطّاس، والثورة تكدّب الهجّاص.

صحيفة الشروق - ٢٣ يوليو ٢٠١٣

لا تخرج قبل أن تقول: عاش الهلال مع الصليب

ينظر الواحد منا إلى التعصب الذي يجتاح بعض من يحيطون به من المسلمين والمسيحيين، وانشغالهم بأسئلة من نوعية «مين ابتدا؟» أكثر من انشغالهم بأسئلة من نوعية «كيف سننتهي؟»، فيسأل نفسه. أين ذهبت أيام الثورة الجميلة، حين كان المسيحيون يصعدون إلى منابر المساجد ليخطبوا من عليها في المصلين؟ لن أقول اسم المسجد لكي لا يتعرض خادمه للأذى من قِبَل بعض المتشددين الذين سيعتبرون ما جرى مخالفة شرعية تتناقض مع عقيدة الولاء والبراء، مع أن ذلك حدث بالفعل ليس في مسجد واحد بل في عشرات المساجد خلال أيام الثورة؛ ثورة ١٩١٩

في مذكراته الرائعة «الأيام الحمراء» يحكي العالم الأزهري الشيخ عبد الوهاب النجار وقائع مدهشة عن التئام صفوف المصريين؛ مسلمين ومسيحيين، خلال أيام ثورة ١٩ ، كانت مصر قد شهدت فتنة طائفية رهيبة في الإسكندرية عام ١٩١١ سالت فيها دماء كثيرة، وبدا للناس أن ما انكسر لن ينصلح أبدا، هذا على الأقل ما ظنه الإنجليز الذين ظنوا أن العامل الطائفي سيساعدهم على قمع الثورة، فحرصوا

على أن يصوروا للعالم أن ما يجري ليس سوى ثورة دينية من المسلمين ضد المسيحيين، ليبرروا قمعهم لها بمعاونة بعض الأرمن الذين نزحوا إلى مصر هروبا من الاضطهاد العثماني، وقد تعرض هؤلاء للعقاب الجماعي من المصريين؛ مسلمين ومسيحيين، لكن المدهش أنه عقاب لم يتجاوز الأرمن إلى غيرهم من مسيحيي الديانة، حيث استطاع العقل الجمعي في لحظات عصيبة أن تكون لديه قدرة مدهشة على الفرز، جنبت مصر وقوع مذابح طائفية أليمة، كان يمكن أن تجعل أيام الثورة سوداء حالكة.

تنظر الآن إلى الدور المشرف الذي يلعبه النشطاء السياسيون في تفويت الفرصة على من يريدون اللعب بالورقة الطائفية لتدمير البلاد، فتتذكر أجدادهم الطلبة في أيام ثورة ١٩ وهم ينتشرون في المساجد والكنائس يخطبون ويحرضون على الثبات والاتحاد، يحكي النجار واقعة رائعة تثبت أن ما قدمه الراحل حسن الإمام في أفلامه لم يكن من نسج خياله، بل كان صورة أقل بكثير من الواقع، الواقعة حدثت يوم جمعة أعقبت مجزرة قام بها الإنجليز، حيث ذهب فريق من طلبة الأزهر للخطابة في كنيسة حارة الروم بالحمزاوي، ووصل الخبر إلى السلطات التي جاءت وأمرت القسيس بإغلاق باب الكلام، فامتثل للأمر، فانتفض شاب مسيحي ليهاجمه قائلا له: كيف تطلب منا السكوت؟! فقال: هذا بيتي أمنع منه من شئت، فقال له الشاب: اخرس هذا بيت الله، أليس عيبا أن يفتح لنا المسلمون مساجدهم، ويبيحوا منابرهم نخطب عليها ونقول ما شئنا مما فيه المصلحة وأنت تمنعنا في كنيستك وهي بيت الله؟! ونال القسيس من التأنيب والتوبيخ من

أبناء طائفته ما جعله نادما، واستمر الشباب في تجمعهم حتى انتهى، وتواعد الجميع على اللقاء بعد العصر بمسجد ابن طولون في حشد هائل خطب فيهم العديدون على رأسهم القمص سرجيوس الذي يذكره النجار في أكثر من موضع هو وخطيب مسيحي آخر اسمه راغب أفندي إسكندر، يقول النجار عن سرجيوس: « في خطابته خفيف الروح جذاب يميل إلى الولع بإيراد النكات الأدبية وكل ما من شأنه أن يلفت الأبصار ويسترعي الأسماع». المؤثر أن قسيس كنيسة حارة الروم جاء في نفس اليوم معتذرا عما بدر منه معلنا أن كنيسته مفتوحة الأبواب لإلقاء الخطابات، وقال إنه دُعي إلى قسم الدرب الأحمر وطلبوا منه الإدلاء بمعلومات عن الاجتماع الذي جرى عنده فلم يعطهم عُقادا نافعا».

في موضع آخر يحكي النجار عن خطبة رائعة ألقاها سرجيوس على المصريين في ميدان الأوبرا في عز الثورة استهلها بأن هتف في الحاضرين قائلا: «هل سمعتم؟»، مكررا الجملة حتى استحوذ على مسامع الناس، ثم بدأ يخطب: «هل سمعتم في أجيالكم أو في محاكمكم الشرعية أو أخبركم علماؤكم أن قسيسا قبطيا مسيحيا يعقد عقد فتاة مسلمة قبطية تعتقد الإسلام وتدين به على فتى مسلم يدين بالإسلام؟»، فقال له الجمع: لا، فقال: «أنا فعلت ذلك أمس»، فقالوا: وكيف ذلك؟ فقال: «مررت بفتاة قبطية الأصل مسلمة هيفاء القد، بارزة النهد كحلاء نحيلة الخصر وردية الخدين فتانة المحاسن قد تعلق بها فتى غربي سكسوني وحشي الطباع خشن الجانب يقول: هذه زوجتي لا أفارقها، وهي تقول: لا أتزوجك ولا أحبك، هو الزواج بالزور يا مسلمين؟ فاقتربت منه وقلت

لـه: يا فتـى، أنت أقمت بين القوم سـبعا وثلاثين سـنة ولا تعرف عاداتهم وطباعهـم، فإذا كانت الفتاة لا تحب الاقتران بك فلماذا لا تتركها؟ فقال: زوجتـي، ولا أتركهـا ولا تفلـت مـن يدي، فلمـا لم أجد بيـده عقد زواج صحيح بالرضا والاختيـار حكمت بطلاقها منه، أما الفتاة فهي مصر وأما الفتـى فالدولـة الإنجليزية. وإذا بفتـى معتدل القوام جميـل الصورة بهي الطلعـة، فالتفـت إليه فإذا معه سـعد زغلـول وأصحابه ورشـدي وعدلي وثروت فسـألتهم: أتعرفون الفتـى؟ فقالوا: نعم، هذا الدكتور اسـتقلال، فسـألت الفتاة: هل تحبين هذا وترغبين في زواجه؟ فقالت: نعم ولا أميل إلـى سـواه، فعقدت لـه عليها بسـم الله الرحمـن الرحيم عقـدا صحيحا شرعيا لا اعتراض للمحكمة الشرعية عليه، ولم أنس أني قسيس مسيحي فعقدت لهما عقدا مسيحيا عقدا مباركا وأملاكا مباركا أبديا دائما، وبذلك صـارت العـروس للعريـس والجـري للمتاعيس، ثـم قالت الفتـاة: إنني أخشـى أن يهجرني هذا الفتى ولا يميل إلي، فعملت لها تحويطة وعلقت عليهـا تميمة مـن كتابنا المقـدس، وذلك أن القديس بولس مـر بفتاة فيها شـيطان، فخاف الشيطان من الرسـول بولس، وقال له: أيها القديس إنك مبـارك من الله، وصار يتملقه بأنـواع التملقات، فالتفت إليه بولس وقال: اخرج منها، اخرج منها»، وصار سـرجيوس يقول: «اخرج منها». والناس من خلفه - مسلمين ومسيحيين - يهتفون: اخرج منها.

ثـم يحكي النجار عن اتفاق الأقباط على ألا يُظهروا فرحا أو سرورا بعيدهم الذي وافق يوم ٢٠ إبريل في عز اشتعال الثورة، مكتفين بإقامة طقـوس العيد داخل كنائسـهم التي توافـدت عليها وفود المسـلمين، وتحولـت الكنائـس إلـى مـكان للخُطـب الوطنيـة. بعدها بثلاثـة أيام نشرت جريدة الأفكار قصيدة لمحمد أفندي الهراوي يقول فيها:

حَيِّ الكنائس عن مساجد أحمد وانشر أحاديث الإخاء ورَدِّدِ
وعن العمائم أدِّ خير تحيةٍ لذوي القلانس والرداء الأسود
لا فرق بين كنائس ومساجد فكلاهما لله بيت تَعبُّد

في يوم ٣٠ مايو حاول الإنجليز إفساد هذه الروح الوطنية الرائعة بأن نشروا صورة زنكوغرافية لخطاب يوقع بين المسلمين والأقباط نسبته إلى أحد كبار الموظفين الذي يتجنب النجار ذكر ديانته لكي لا يوقع الفرقة قائلا: «إذا صح أن هذا الخطاب له، فقد دل على أنه أنذل وأخس والأم رجل وُجِد بين المسلمين والمسيحيين، وإنه جدير بأن يُنبذ من الفريقين ويُلعن في محاريب المعابد عند كل من الطائفتين»، لكن الخطاب لم يأت بأي مفعول بفضل وجود شخصيات رائعة مثل النجار ومثل سرجيوس الذي لم يجد الإنجليز بُدًّا سوى اعتقاله ونفيه إلى رفح ليظل منفيا فيها مدة تقارب الثمانين يوما.

لن أواصل تقليب مواجعك بمزيد من التفاصيل التي ستُذكرك كيف كنا وكيف أصبحنا، فقط سأختم لك بخبر يتوقف عنده النجار متأملا، حين حدث في يوم ٩ يونيو أن اقترح محامٍ سكندري اسمه محمد البشبيشي إقامة صلاة جامعة في المساجد والكنائس في الساعة العاشرة من مساء يوم الأربعاء الموافق ليوم ١٣ رمضان المبارك يحصل فيه دعاء للأمة بالخير، واقترح آخرون أن يتم وضع دعاء خاص لهذه الصلاة يرتله المسلمون في مساجدهم والأقباط في كنائسهم. بذمتك هل يمكن أن يحدث ذلك اليوم؟ أترك الإجابة لك، وأكتفي بمزيج متجانس من الحسرة والأمل.

صحيفة التحرير - سبتمبر ٢٠١١

في عرض ساعة عدل واحدة

لـو صـدر هـذا الكتاب فـي مجتمـع ديمقراطـي حيـوي يرغب أن ينصلـح حالـه لتفجر بـركان من الجـدل والنقـاش حولـه، لكنه صدر فـي مصـر، ولذلك مر شـهران منذ صدوره، ولا حـس ولا خبر، برغم صدوره عن أعرق سلسلة للكتب في مصر كان يشرف عليها قيادي في الحزب الوطني المبارك هو الزميل مجدي الدقاق الذي كان سيحسـن إلـى مصـر كثيرا لو قلـص ظهوره الفضائـي الفاضي للدفاع عن فشـل حزبه عمال على بطال، واكتفى بنصح قادة حزبه وعلى رأسـهم أستاذه جمال مبارك بقراءة الكتب القيمة التي أصدرها كتاب الهلال سواء في عهد مجدي الدقاق أو في عهود العظماء الذين سبقوه، لعلهم يتعلمون منها شيئا عليه القيمة بدلا من أن يتعلموا فينا.

الكتاب اسـمه «سـاعة عدل واحـدة.. الكتاب الأسـود عن أحوال المستشـفيات المصريـة ١٩٣٧ - ١٩٤٣»، كتبـه طبيـب إنجليـزي هـو د. سيسـيل ألبورت وترجمه الأسـتاذ سـمير محفوظ بشـير؛ وهو الكتاب الأسـود الثاني الذي صدر في مصر خلال الأربعينيات، سـبقه كتـاب المرحـوم مكـرم عبيد عن أحـوال الوفـد تحت رئاسـة الزعيم

مصطفى النحاس، والمؤسف أنه في حين أصبح الكتاب الأسود الأول مرتبطا بحقبة تاريخية صرنا نحن إلى سوادها الآن بعد أن شفنا السواد الذي على أصوله، فإنك عندما تقرأ الكتاب الأسود الثاني ستشعر أنك تقرأ كتابا معاصرا لو غيرت فيه بعض الأسماء والتواريخ، وهو ما يضاعف أهمية قراءتك له إذا كانوا قد خدعوك فصدقت أن مصر كانت قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ جنة الله في الأرض، ويضاعفها أكثر إذا كانوا قد اشتغلوك فصدقت أن مصر بعد ثورة يوليو أصبحت جنة الله في الأرض، لأنك وأنت تقرأ ستدرك أو سيتعزز إدراكك أن مصر للأسف كانت دائما جنة فقط للأغنياء والمقتدرين والمحتلين، أما للفقراء والمستضعفين فقد كانت دائما وطنا يشتاقون فيه إلى «ساعة عدل واحدة»، وهي الساعة الحلم التي اتخذها الطبيب الإنجليزي عنوانا للكتاب بعد أن اقتطعها من حديث شريف ينقله كالآتي. «ساعة عدل واحدة تعدل سبعين عاما من الصلاة المقبولة»، والغريب أن الحديث أثَّر في وجدان الطبيب الإنجليزي الذي جاء إلى هذه البلاد كمحتل، ولم تؤثر في حكام ومحكومي بلادنا الذين كما نعرف يفضلون سبعين عاما من الصلاة على ساعة عدل واحدة.

ينبغي أن أذكِّرك وأنت تقرأ الكتاب معي أو بدوني بما تعلمته من أستاذتنا الدكتورة عواطف عبد الرحمن وهي تدرس لنا مناهج البحث العلمي في كلية الإعلام عن ضرورة الحذر أثناء قراءة الكتب التي يكتبها الأجانب عن مصر، سواء كانوا رحالة أو باحثين؛ لأن قراءتهم حتى لو كانت بريئة فقد لا تكون دقيقة أو متجاوزة القشرة السطحية التي يراها الأجنبي فيحكم على الواقع بعيدا عن سياقه التاريخي والاجتماعي،

وهـو خطأ يقع فيه أيضا كثير منا عندما يكتبـون عن الغرب. وهو ما لم أجـده للأمانة في هذا الكتاب البديع الذي فرضت ظروف عمل مؤلفه كأسـتاذ للطـب الإكلينيكي بمستشـفى القصـر العيني عليـه أن يحتك بجوهر الواقع المصري المؤلم، فكتبه بعد أن ترك مصر يائسا ومحبطا ومصطدما بالمسـئولين فيهـا لدرجة أنه قام بتهريـب مذكراته عن فترة عمله في مصر بعد أن حاول المسـئولون عن الصحة مصادرتها، وكما يكشف لنا مترجم الكتاب في مقدمته القصيرة البديعة فقد كتب ألبورت هـذا الكتاب خلال عمله في ظروف قاسـية في أحراش كينيا ليخاطب بـه الرأي العام في بريطانيا وأمريكا ويطالبه بأن يتحمل مسـئوليته تجاه الفلاحيـن المصرييـن الفقـراء، «وهو لـم يتخيل يومـا أن تصل إحدى نسخ كتابه هذا إلى يد واحد من المصريين، مما ينفي عنه مظنة محاولة توجيه خطابه لنا والتأثير علينا بما يخالف الحقيقة»، ثم يطرح الأسـتاذ سمير بشير السؤال المركزي الذي لن يفارقك لحظة طيلة قراءتك لهذا الكتـاب: «علينـا كمصريين أن نقـارن بين حالتنا أيـام الحرب العالمية الثانيـة وبيـن أيامنا الحالية، بلا شـك حدث تقدم ورقـي ومدنية، لكن هل حدثت طفرة مماثلة في طُرق التفكير والتصرفات والأخلاق؟ لقد تم القضاء على طبقة الباشـوات الذين يصفهم المؤلف بأنهم مصاصو دمـاء الفلاحين المصريين، وأنهم السـبب الوحيد لتخلف البلاد وفقر العباد، لكن ألم يحل بدلا منهم طبقة مماثلة وشبيهة من ضمنها هؤلاء المليونيرات الذين يلهفون نقود البنوك ويُهربونها للخارج؟». وهو كما ترى سـؤال مرير كان سـيفقد معناه لو كان المصريـون لا يكتفون فقط بقراءة الكتب السـوداء دون أن يحاسـبوا من كانوا سـببا في صدورها،

وربمـا لو كانوا قد فعلـوا ذلك لكافأهم الله بحكام عادلين يسـتحقون كُتبًا بيضاء أو حتى رمادية.

لا ثـورة يوليـو وحدهـا أفسـدت الوطـن، ولا هـي بريئـة أيضا من مسـئوليتها عن ترسـيخ فسـاده، الدودة كانت دائما في أصل الشـجرة، ولأن مجهودنـا فـي علاج شـجرة الوطـن المصابة اقتصـر دائما على اسـتيراد مبيدات مسـرطنة أو تقليم فروع الشجرة أو التفكير في حرقها أو فـي أحسـن الأحـوال انتظار معجـزة لكي تثمـر الشـجرة، فقد كان لزامـا ألا نتنبه أبـدا إلى مكمن المرض ونتمكن من علاجه. أعتقد أنك ستشـاركني هذا الرأي وأنت تقرأ كتاب «سـاعة عدل واحدة» للطبيب الإنجليزي سيسيل ألبورت والصادر عن سلسلة كتاب الهلال بترجمة بديعة لسـمير محفوظ بشير، وتحديدا الفصول التي خصصها المؤلف لرواية تجربته المريرة كأسـتاذ للطب الإكلينيكي في مستشـفى القصر العيني في الأعوام من ١٩٣٧ وحتى ١٩٤٣

خذ مثالا هذه الفقرات التي أقتطعها لك دون ترتيب من بعض فصول الكتـاب، وتأمـل فيها ثم قل لي هل كنت مخطئا فيمـا قلته أم لا، يقول ألبورت: «يبدو أن مركز الذاكرة في ذهن الطالب المصري قد نما على حساب قدرته على تحكيم المنطق وكيفية الاستخدام العملي للمعلومة التي استظهرها في ذاكرته العجيبة، كثيرا ما كنت أسأل طالبا سؤالا في الامتحان النهائي فأجده ينظر إلى السـقف ثم يستعيد السؤال لنفسه ثم يسـرد أمامي ما كُتب في صفحة كاملة من مرجـع طبي طبعت كلماتها في تلافيف ذاكرته من التكرار المسـتمر.. الصعوبة تنشأ في محاولتك كأستاذ أن تجعل الفصل يفكر ويمنطق الأشياء، إنهم يتوقعون دائما أن

يقوم الأستاذ باستخدام ملعقة يسقيهم بها العلم، ليحصلوا على أكبر قدر من المعلومات بأقل قدر من الجهد... دارسو الطب من المصريين لهم خاصية عجيبة؛ فعندما أصطحبهم إلى جانب سرير مريض يعاني من لغط في القلب، يتجمعون حوله مبدين عظيم اهتمامهم، لكن ما إن أتركهم ولو لمدة ربع ساعة ليفحصوا الحال بأنفسهم، تجدهم عند عودتك متجمعين في الشرفة يتحدثون ويتحاورون. فيم يتكلمون؟ لم أكتشف هذا الأمر أبدا.. أعرف مصريين سُروا لأنهم خرجوا بابنتهم حية من مستشفى فؤاد وأخذوا يزغردون ويُعبرون عن خالص شكرهم لله.. أما عويل النساء المرعب فإنك تسمعه كثيرا في الجوار بقرب المشرحة والفلاحون لديهم قول مأثور: «من يدخل القصر العيني مفقود ومن يخرج منه مولود».. ولعل أكثر مظهر مقزز للنفس في المستشفيات الحكومية المصرية سواء بالقاهرة أو الإسكندرية أو باقي المديريات هو الابتزاز الذي يتعرض له الفقراء التعساء على يد التمورجية، معظم هؤلاء التمورجية ليسوا إلا رجال عصابات من أسوأ الأنواع، يسرقون مهمات وأدوية المستشفيات، بل وحدث أن سرق تمورجي عددا كبيرا من أرغفة الخبز من المستشفى ولفها في ملاءة سرير ووضعها في المسجد الصغير الملحق بالمستشفى، فلاحظه تمورجي آخر ودخل إلى الجامع واختلس الأرغفة، فضبطه السارق الأول ليدَّعي السارق الثاني أمام المدير أنه كان يريد التبليغ عن السرقة، فاستطاع أن يفلت من العقاب، أما السارق الأول فقد علق على الواقعة في التحقيق بقوله إنها جريمة لا تغتفر أن يسرق الإنسان خبزا من الجامع.. هؤلاء وأمثالهم يجب أن يستبعدوا من هذه الوظيفة

المهمة إذا أراد المسئولون أن تصبح المستشفيات مكانا لائقا يطلق عليها هذا الاسم بالمفهوم الحضاري».

في فصل آخر يتحدث ألبورت عن محاولاته لإدخال تعديلات على النظام التعليمي الطبي في عهد الدكتور علي إبراهيم رائد الطب المصري الحديث، ويكشف كيف رفضها الدكتور علي «لأنه موقن بكمال ما أنشأه، فهو المؤسس الأول لمستشفى فؤاد الأول التعليمي وعميدها، وبلا شك يشعر أن أي تحسين مطلوب يجب أن يصدر منه هو شخصيا وليس من أحد المدرسين»، طبعا سيترك الكثيرون كل ما قاله الرجل في مذكراته وسيمسكون فيما قاله عن الدكتور علي إبراهيم لينشدوا قصائد شعر تتغنى بعظمته ويرفضون أن يتطاول عليه إنجليزي خاسئ دنيء، وبالتأكيد سينتابني أنا ومترجم الكتاب من الحب جانب، لأن ناقل الكفر لدينا هو كافر عكس العالم كله، ومع أنني لا أعتقد أن ما ذكره الرجل في كتابه ينفي عظمة علي إبراهيم ودوره الريادي، ولو كان الرجل متحاملا عليه لما أثبت أنه استجاب لأحد اقتراحاته المهمة بأن يتم تغيير وضع الدرجات المخصصة للتحريري والعملي فتكون النسبة الأكبر من الدرجات للعملي لكي يتزاحم الطلبة على التدريب العملي وتزداد خبرتهم، ولا أدري هل استمر هذا التعديل حتى اللحظة أم لا، لكن الذي أدريه أن ما ذكره ألبورت عن طبيعة علي إبراهيم ورفضه لأي تطوير طالما لم يصدر عنه شخصيا هو طبع مصري حميم موجود لدينا جميعا كل في مجاله، ولعله يكون من الأفضل أن نواجه أنفسنا بهذه الحقيقة ونسعى لتغييرها، بدلا من أن ندفن رءوس الذين يواجهوننا بها في الرمال لنخنقهم ونستريح منهم.

وحدها الأمم المتخلفة لا تغير أسئلتها أبدا. أعلم أن علاقة الإنسان بالسؤال علاقة سرمدية، وأؤمن بما قاله معلمنا نجيب محفوظ أن الحقيقة بحث وليست وصولا، لكنني لا أتحدث هنا عن الأسئلة الكبرى حول الكون والوجود والغيب والتي لم تنقطع لحظة في تاريخ البشر، بل أتحدث عن الأسئلة المنشغلة بتفاصيل الحياة والتي لو عدت إلى صحف أوائل قرننا الماضي لوجدتها ذاتها التي يطرحها بعضنا على بعض في أوائل هذا القرن، بينما تجاوزتها الدول المتقدمة وأصبحت مشغولة بأسئلة أكثر حداثة وتفاصيل أكثر تعقيدا، بينما نحن حتى الآن لم نتفق على أن الديمقراطية هي الحل الأمثل حتى لو لم يكن نهائيا، لأنه لا يوجد في الكون كله حل نهائي، أعني الديمقراطية كسلوك ومنهج حياة وليس كديكور «قشري» نجمل به دكتاتوريتنا المفزعة في البيت والمدرسة والجامعة ومكان العمل وقصر الرئاسة، حتى الآن لم نتفق على أن التفكير العلمي وتدبر سنن الله في الكون هو سبيلنا الوحيد إلى الخلاص، ولذلك لم تصبح الخرافة لدينا مظهرا فولكلوريا كما هي في الغرب بل أصبحت وأمست أسلوب تفكير، حتى الآن لم ندرك أن العمل الجاد الحقيقي هو أجدى لنا من أن ننشغل بمحاكمة بعضنا بعضًا وننسى أن حساب البشر على الله تعالى وحده لا شريك له، ولذلك يظل ما كتبه سيسيل ألبورت وغيره قبل عشرات السنين ينطبق علينا هذه الأيام، وسينطبق علينا بعد مائة سنة وبعد مائتي سنة وحياتك.

مثلما يعتصرك الحزن الآن على حالنا اليوم، ستجد ذات الحزن يعتصر زمان ذلك الطبيب الإنجليزي وهو يحكي عن ذهوله لأن

المصريين يرفضون أن يطبقوا حلول مشاكلهم الموجودة في وصايا أجدادهم الفراعنة أو تعاليم الدين الحنيف الذي يعتنقه أغلبهم، ستعيش معه مأساة رجوعنا إلى الخلف وهو يحكي عن السيدة الثرية التي وجدوها مصابة بالبلهارسيا ثم اكتشفوا بعد دوخة أن التمورجي المكلف بنقل عينة بولها كسر الزجاجة وقرر من باب الفهلوة استبدالها بعينة من بوله الخاص! عن تعيين أبناء الكبراء والأساتذة بالكوسة في مناصب جامعية لا يستحقونها، عن غياب الطبقة الوسطى في مصر(!)، عن الطلبة الذين يعتبرون الامتحانات نهاية العالم ولا يستطيعون الحياة بدون الدروس الخصوصية التي تساعدهم على المزيد من الحفظ وتمحو قدرتهم على الفهم، عن استغرابه من كثرة العطلات والإجازات الرسمية، عن فقير رفض الإسعاف نقله وتركه مرميا في الشارع، عن وقائع تزوير الانتخابات التي شاهدها بعينه وتورط فيها الكل بلا استثناء، عن حال المرور المزري الذي يجعله يقرر أنه لا توجد دولة في العالم كله تصعب قيادة السيارات فيها مثل مصر، عن وزير الصحة الوفدي الذي أعلن خلو البلاد من وباء التيفود وشاء الله أن يموت بالتيفود بعدها بأشهر، وأخيرا عن تهمة كراهية الإسلام والمسلمين التي لاحقته عندما قرر أن يحارب الفساد.

ستجأر بالشكوى إلى الله وأنت تقرأ ما يحكيه سيسيل ألبورت عن كبراء مصر الذين يأتون من القرى والنجوع، لكنهم ما إن يصلوا إلى الحكم حتى يصبح همهم الأوحد جمع المال بأي وسيلة لكي لا يعودوا مرة أخرى إلى الفقر، قائلا - كأنه يحكي وجعنا هذه الأيام: «كان يمكن إنقاذ مئات الآلاف من المصريين لو لم تتصف طبقة

الباشـوات الحاكمة بكل هذا القدر من الفشـل المريع، مع ذلك كيف يلامـوا وتاريخهم وما ورثوه أثبت على مدى الأيـام أنهم غير مؤهلين لتبـوئ مناصبهم تلك، لقـد وُضِعوا في مناصب خطيـرة بدون تدريب على الحكم، وبدون خلفية خلقية سـليمة تسندهم وتشد أزرهم، تعتبر ضرورية لتحقيق ولو قدر بسيط من النجاح كرجال دولة مسئولين».

سـتغلق الكتـاب وأنت راغـب في تفجيـر آهات تزلـزل الكون، آه لو قام الذي أصدر هذا الكتاب بإرسـال نسـخة منه إلى قصر الرئاسـة مـع رجاء بضـرورة قراءته فـورا، وآهين لو قرأ الرئيـس مبارك الكتاب أو حتى ملخصا له قبل أو بعد مشاهدته لبرنامج المذيعة منى الحسيني ليـدرك كـم هو خطير أن تعود البلاد إلى الخلف بعد كل هذه السـنين، ثـم ألـف مليون آه لو قـرر الرئيس بعد قـراءة الكتـاب أن يبدأ إصلاحا حقيقيـا عاجلا قبـل أن تنتهي فترته الرئاسـية الأخيرة، لعلـه يوفر على مصر المزيد من الكتب السـوداء التي تحكـي أوجاعها، ولعلنا بعد أن فشـلنا في الاتفاق على إجابة لأسـئلتنا السـرمدية، لا نُضيع قبل فوات الأوان فرصة تغيير تلك الأسئلة.

صحيفة المصري اليوم - ٢٠٠٨

روشتة مصطفى كامل.. الأولاني

في ٣٤ عاما هي عدد سنين عمره القصير فشل الزعيم مصطفى كامل وحزبه الوطني في إقناع المصريين بأنه لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس. وفي ٢٦ عاما هي عدد سنين حكمه الطويل نجح الزعيم حسني مبارك وحزبه الوطني في إقناع المصريين بأن هناك حياة مع اليأس لدرجة أن بعض من عاش في عهده أصبح يعتقد أنه لا حياة بغير اليأس.

ستصل إلى هذه النتيجة من تلقاء نفسك وأنت تنهي قراءة كتاب «الشمس المشرقة» الذي كتبه الزعيم مصطفى كامل في بدايات القرن العشرين وجاءت هيئة قصور الثقافة لتقلب علينا المواجع بإعادة نشره. لا أنوي مبدئيا عقد مقارنة بين الزعيم مصطفى كامل والزعيم حسني مبارك، فمثل هذا النوع من المقارنات مبتذل لأنه يقارن بين سياقات تاريخية مختلفة، فلا ينصف أحدا ولا يظلم سوى الحقيقة، هنا تحضرني جملة بديعة قرأتها للمؤرخ د. يونان لبيب رزق في دراسة له بمجلة المصور نصها: «نسبة كل تطور إلى فضل أفندينا يجافي منطق التاريخ، كل ما في الأمر أن يأتي الحاكم المناسب الذي يتفهم الظرف التاريخي في الوقت المناسب»، وبالقياس فإن نسبة كل تدهور إلى

خطأ أفندينا فقط يجافي منطق التاريخ ويعفي من المسئولية كثيرين، منهم أعوانه الذين لم يأخذوا بيده أو على يده، ومنهم شعبه الذي وقف يتفرج على حكمه كأنه تمثيلية لا تبدو مغرية حتى بمتابعتها بشغف.

وأنت تقرأ الكتاب المدهش العصي على التلخيص ستكتشف عظمة مصطفى كامل ونفاذ بصيرته وهو يشخص أسباب تأخر مصر عن اليابان، لاحظ هنا أنه يتحدث عن اليابان أوائل القرن العشرين قبل أن تكبو في منتصفه ثم تنهض من كبوتها نهضة أشمل، يدوس رحمه الله على الجرح قائلا: «إن الأمم لا تنهض إلا بتوفر صفتين رئيسيتين فطريتين في الشعوب أو مكتسبتين هما الشهامة وحُسن الاعتقاد في النفس»، ويرى أن توفر هاتين الصفتين في الأمة اليابانية والتركية هو سبب تقدمهما برغم كل الحوادث العديدة التي لو لحقت بغيرهما من الأمم لقضي عليها، لكنه ينفي أن تكون هناك أمم تولد ذليلة أو جبانة قائلا: « إن مصلحة الحكام الظالمين تقتضي دائما قتل عواطف الشهامة والهمة والشعور الراقي في الأمم لأنهم يريدون أن يحكموا قطيعا من الأغنام في صورة إنسان... والمنفعة الكبرى للتاريخ هي إقناع الناس أنهم لم يكونوا جبناء من يوم مولدهم، وأن رضوخهم للظلم جاء لأسباب عارضية قهرية... وإذا جاء يوم يفتخر المصري فيه بأنه مصري ويقبل الموت حبا في مصر طائعا فرحا فبشر أهل هذه الديار بكل ما يبتغون من سيادة وعظمة واستقلال».

تدعو الله أن ترى هذا اليوم في حياتك وتواصل قراءة ما كتبه الزعيم مصطفى كامل متحسرا على كونه صالحا للاستخدام الآن لأنه لم يُمس وما زال بكرتونته وأغلب الظن أنه لن يمس أبدا، يقول

رحمه اللـه: «لو بحثنا بحث إنصاف واعتدال في الأسـباب التي قضت علينا لوجدناها في استعمال الحكام والأمراء للسلطة المطلقة استعمال جنون واسـتبداد واستخدامها لأهوائهم النفسانية ومطامعهم الشخصية وإماتتهم الشـهامة في الأمة وقتلهم لـكل إرادة فيها وإدخالـهم الاعتقاد فـي نفوس أبنائها بأنهـم ضعاف عاجزون لا حول لهـم ولا قوة، وأنهم متاع للحاكم يلعب به متى شـاء ويبيعه إن أراد، وهكذا السلطة المطلقة إذا ضلت تخرب في يوم واحد ما يعمر في قرون، وبالعكس إذا وجهت للخير تبني في يوم ما لا تبنيه حكومات الدستور في سنين وأعوام». هل يقال بعد هذا الكلام كلام؟

نعـم. في كتابه يسـأل مصطفى كامـل في لوعة عما كان سـيحدث لـو عـادت الحياة إلى محمد علي قائلا: « ألا تراه أشـقى الناس جميعا لـو رأى مصـر وقـد تشـوهت وقد تركهـا جميلة قـادرة تعشـقها الدنيا ولا يسـتطيع الدنو منها إنسان؟!». تسـأل نفسك فورا: ما الذي يحدث لـو عـادت الحيـاة إلى مصطفـى كامـل ليرى بعينَي رأسـه حـال مصر واليابـان اليـوم، تحمد الله لأنه لـن يعذبه عذابا كهـذا، فأنت تدرك أنه لـو شـهد أيامنا وافترضنـا نجاته من الجنـون الفوري لاسـتعوض الله في كل العمر الذي قضاه في النضال ولاسـتبدل شـعاره الشهير بشعار عبد الفتـاح القصـري الأصلـح لهـذه الأيـام المباركـة: «لا يـأس مـع الحياة.. ولا حياة لمن تنادي».

صحيفة الدستور - ٢٠٠٩

حتى ابن خلدون يقول لا لمبارك

شيء جميل جدا أن يشد الرئيس مبارك الرحال إلى إشبيلية بإسبانيا لحضور الاحتفال الإسباني الرسمي بالعلَّامة العربي الشهير ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع الحديث. لكن الأجمل من ذلك أن يقرر الرئيس مبارك معرفة ما الذي يجعل ابن خلدون بكل هذه الأهمية لدى العالم المتقدم. وبالتأكيد لن يجد الرئيس مبارك فرصة أفضل من هذا الاحتفال لمعرفة ذلك، وبالتأكيد أيضا سيكون المصريون في غاية السعادة لو قرر الرئيس أن يقضي بعض وقته في قراءة ولو صفحات من مقدمة ابن خلدون الشهيرة ليس فقط لكي يعرف الرئيس جيدا من هو الرجل الذي ذهب للاحتفاء به، بل لأن سيادته سيجد في مقدمة ابن خلدون تشخيصا وافيا لكل أزمات مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يبحث الرئيس بالتأكيد عن حلول لها.

لو قرأ الرئيس مبارك مقدمة ابن خلدون الذي هو ذاهب للاحتفال به لوجده يقول نفس الكلام الذي يقوله دعاة الإصلاح الذين تسحلهم قوات أمن الرئيس في شوارع مصر، هؤلاء الإصلاحيون الذين يقولون للرئيس إن مَن حوله ينافقونه عندما يقولون له إن الناس سعيدة لمجرد

أنـه باقٍ في الحكم، وإن القبضة الباطشـة لا يمكن أن تكون حلا ناجعا للأزمات السياسـية في مصر ليسـوا فـي حقيقة الأمر سـوى تلاميذ في مدرسـة ابـن خلدون الـذي يقول في مقدمتـه الخالدة مخاطبـا الرئيس مبـارك وكل مـن جـاء قبله ومـن سـيجيء بعده مـن حـكام: «اعلم أن مصلحة الرعية في السـلطان ليسـت في ذاته وجسـمه من حسـن شكله أو ملاحة وجهه أو عِظَم جثمانه أو اتساع علمه أو جودة خطه أو ثقوب ذهنـه، وإنمـا مصلحتهم فيه من حيـث إضافته إليهـم... فإنها إن كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة لهم وإن كانت سيئة متعسفة كان ذلك ضررا عليهم وإهلاكا لهم... فإن الملك إذا كان قاهرا باطشا بالعقوبات مُنقبا عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم شـملهم الخوف والذل ولاذوا منـه بالكـذب والمكـر والخديعـة؛ فتخلقـوا بهـا وفسـدت بصائرهـم وأخلاقهـم، وربما خذلـوه في مواطـن الحرب والمدافعات ففسـدت الحماية بفسـاد النيـات، وربما أجمعوا على قتله لذلك؛ فتفسـد الدولة ويخرب السياج. وإذا كان رفيقا بهم متجاوزا عن سيئاتهم استناموا إليه ولاذوا به وأُشـربوا محبته، واسـتماتوا دونه في محاربة أعدائه فاستقام الأمـر مـن كل جانب». يا ترى هل يمكن أن يتأمـل الرئيس مبارك جيدا هذا الكلام؟ أم أنه سـيجد بين رجاله من يقول له إن ابن خلدون مموَّل من الخارج مثل مركز ابن خلدون؟!

إننـي أتمنـى أن تقع عينـا الرئيس مبـارك لو قـرر أن يقلب صفحات مقدمـة ابن خلدون على فصل مهم عنوانـه «في أن الظلم مؤذن بخراب العمران»، يحكي فيه ابن خلدون الذي عاش في مصر قبل قرون سيرتها هـذه الأيـام قائلا: «اعلـم أن العـدوان على النـاس في أموالهـم ذاهب

بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال... فخف ساكن القطر وخلت دياره وخربت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان». ثم يحكي ابن خلدون في نفس الفصل حكاية مواجهة دارت بين بهرام ملك فارس والموبذان صاحب الدين الذي قال بلسان كل راغب في الإصلاح في كل عصر «أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل... وأنت أيها الملك عمدت إلى الضِّياع فانتزعتها من أربابها وعُمارها وأقطعتها الحاشية والخدم وأرباب البطالة... فقلَّت العمارة وخربت الضِّياع، وقلَّت الأموال، وهلكت الجنود والرعية، وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك إلا بها». الكلام لا يبدو موجها لملك فارس بل لملك مصر؛ وده اللي فارسني.

أعلم أن الرئيس مبارك قد يجد حوله من يقول له: «ظلم إيه يا جلالة الرئيس.. هو سعادتك بتظلم حد؟ أمال التأميم ده يبقى إيه؟! **ده مصر** عاشت في عهدك أزهى عصور العدالة»، وعندها سيأتي

صوت ابن خلدون قادما من الماضي جهورا بالحق صادحا بالحقيقة: «ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعم من ذلك، وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق، أو فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه، فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمنتهبون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، وغصاب الأموال على العموم ظلمة، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لإذهابه الآمال من أهلها». يعني بالبلدي فقد آمال الناس كما حدث للمصريين في هذا العهد السعيد.

وبما أننا نعلم أن الرئيس مبارك لا يقرأ الصحف المستقلة والمعارضة لأنه يرى أنها متحاملة عليه وتفتقد إلى أي منطق أو حجة فنحن نتمنى عليه أن يقرأ بعمق وتأنٍّ مقدمة ابن خلدون التي تفرد فصلا كاملا بعنوان «فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد والتوغل في الترف وإيثار الدعة والسكون»، يتحدث فيه ابن خلدون عن الحاكم عندما يُحكم سيطرته على الدولة بكل ما فيها من طوائف «وإذا تعين له ذلك، ومن الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والأنفة، فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استتباعهم والتحكم فيهم، ويجيء خلق التأله الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل باختلاف الحكام، فيجدع حينئذ أنوف العصبيات، ويكبح شكائمهم عن أن يسموا إلى مشاركته في التحكم، وينفرد بما

استطاع حتى لا يترك لأحد منهم في هذا الأمر لا ناقة ولا جملا..
ثم يصف ابن خلدون ما يحدث للحكام إذا فعلوا ذلك فيقول: «فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه، وآثروا الراحة والسكون والدعة، ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس فيبنون القصور، ويجرّون المياه، ويغرسون الرياض، ويتمتعون بأحوال الدنيا، ويؤثرون الراحة على المتاعب، ويتأنقون في أحوال الملابس والمطاعم والآنية والفُرش ما استطاعوا، ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم من أجيالهم، ولا يزال ذلك يتزايد فيهم إلى أن يتأذن الله بأمره».

آآآه. لو قرأ الرئيس مبارك مقدمة ابن خلدون لعلم أن ما يتحدث عنه معارضوه من إصابة دولته بالهرم والشيخوخة على المقاعد ليس سوى قبس من مقدمة ابن خلدون الذي يتحدث عن إصابة الدول بالهرم الذي تصاب به الأفراد مقررا « أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم»، كما يتحدث ابن خلدون في فصل غاية في الخطورة عن ظاهرة حجاب الحاكم عن شعبه، وكيف يعظم ذلك عند الهرم - هرم الحاكم والدولة معا - مستشرفا بعبقرية مستقبل مصر الذي نحياه الآن حيث «يبدأ صاحب السلطان أول دولته بالاقتراب من الناس والاستماع إليهم، لكنه إذا رسخ عزه وصار إلى الانفراد بالمجد واحتاج إلى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع أوليائه في خواص شئونه، لما يكثر حينئذ من غاشيته فيطلب الانفراد عن العامة ما استطاع ويتخذ

الإذن ببابـه على من لا بـد منه في أوليائه وأهل دولته، فيكون حاجبا له عن الناس.. وهذا الحجاب لا يقع في الغالب إلا أواخر الدول ويكون دليلا على هرم الدولة ونفاد قوتها... والله غالب على أمره».

ثـم يتجلى ابـن خلدون في وصـف حالتنا قائلا في فصل «انقسـام الدولة الواحدة بدولتين»: «اعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها؛ وذلك أن الملك عندما يستفحل ويبلغ أحوال الترف والنعم إلى غايتها ويسـتبد صاحب الدولة بالمجد وينفـرد به يأنف حينئذ عن المشـاركة ويصير إلى قطع أسـبابها ما اسـتطاع بإهلاك من استراب به مـن ذوي قرابته المرشـحين لمنصبه، فربما ارتاب المسـاهمون له في ذلك بأنفهسـم ونزعوا إلـى القاصية، ويكون نطـاق الدولة قد أخذ في التضايق، ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسـم الدولة أو يكاد».

ختاما لا أدري ماذا سـيكون شـعور الرئيس مبارك لو قرأ فصل «إن الهـرم إذا نـزل بالدولة لا يرتفع»، وفيـه يرد ابن خلـدون على ما يقوله أنصـار مبـارك وآخرهـم الدكتـور عليّ الديـن هـلال الـذي حـذر في روز اليوسـف بأن من يظن أن الدولة ضعفت فهو مخطئ، لن أرد عليه أنا بل سأترك ابن خلدون يرد عليه قائلا: « ربما تحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها، ويومض ذبالها إيماضة الخمود كما يقع في الذبال المشتعل؛ فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشـتعال، وهي انطفاء، فاعتبر ذلك ولا تغفل سـر الله وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه، ولكل أجل كتاب».

هـل يقـرأ الرئيـس مبارك كل هـذا الـكلام الخطير المهـم المذهل المبهـر فينفعـه اللـه بما قرأه ويُحـدث تغييرا علـى دولته التـي أصابها الهرم ويصالح شعبه الذي كاد يفقد أمله؟ أم أنه سيكتفي من زيارة ابن خلدون بمصافحة ملك إسبانيا والتجول في أرجاء المعرض فلا تنتفع مصر شيئا حقيقيا من زيارته هذه للأسف؟

علـى أي حال إذا لم يقرر الرئيس مبارك أن ينتفع حقا بابن خلدون فـكل ما نتمنـاه ألا يغضـب عندما يعلـم أن ابن خلدون هـو في حقيقة الأمر واحد من كبار معارضيه فيأمر فور عودته إلى البلاد بمصادرة كل نسـخ مقدمة ابن خلدون في البلاد، وإرسـال قوة مسلحة للقبض على كل من يتجمع أمام قبره، وحشر مقدمة ابن خلدون في مؤخراتهم.

صحيفة الدستور - ٢٠٠٦

المكالمة المهلكة

هل تفيد الحاكم أحلامه العظيمة وآماله العريضة عندما يكون مهووسا بالتسلط والبطش؟ وهل يكون عظيما حقا من ينشغل بإخراس أي صوت معارض له حتى لو كان صوتا خافتا ضئيل التأثير؟ سأترك هذه الواقعة الغريبة تجيبك بنفسها.

بطل الواقعة واحد من أعظم محققي التراث العربي الإسلامي والمنافحين عنه؛ وهو الأستاذ محمد محمود شاكر، الشهير بين محبيه بلقب «الشيخ شاكر»، والذي أتمنى أن تعفيني من طلب أي تعريف موجز لأنه حتما سيُخل بعظمته وقدره، دونك «جوجل» لتستزيد منه بمعلومات أتمنى أن تدفعك إلى قراءة كتبه والاستفادة من علمه وأسلوبه ولغته البديعة، ولتبدأ مثلا بصفحة الويكيبيديا العربية الخاصة به والتي أحسن محبوه تحريرها فجاءت دقيقة ومتميزة على غير العادة.

ستقرأ في أي سيرة موجزة عن حياة الشيخ شاكر أنه تعرض للاعتقال مرتين في عهد عبد الناصر؛ أولاهما في عام ١٩٥٩ حيث لبث في السجن تسعة أشهر، أما الثانية فكانت في أغسطس ١٩٦٥ واستمرت حتى نهاية ديسمبر ١٩٦٧، وربما ستظن حينها أن الرجل

بحكـم لقبه وتخصصـه وتاريخ اعتقاله تعرض للاعتقـال لأنه كان من قـادة جماعة الإخوان، لكن الحقيقة أنه لـم يكن له صلة بالإخوان ولا بغيرهـم مـن التنظيمـات السياسـية، فما تسـبب في حبسـته الأولى لم يكـن سـوى مكالمة تليفونية جمعتـه بأديبنا الكبير يحيـى حقي، يروي تفاصيلهـا الشـيخ أحمد حسـن الباقوري فـي مذكراته بوصفه شـاهدا عليها، حيث يقول إن حقي أخذ يشكو في التليفون لشاكر من نقله إلى موقع لا يناسبه في وزارة الثقافة التي كان يعمل بها، فقام شاكر تضامنا مـع صديقه بإطلاق شـتيمة قبيحة في حق عبد الناصـر وضباط يوليو، يـروي الباقوري أنـه كان وقتها يصلي وأنه بعد أن فرغ من الصلاة أنكر الشـتيمة على شـاكر، دون أن يدرك الاثنان أن المكالمة تم تسـجيلها، وأنها سـتلقي بشاكر في السـجن دون محاكمة عادلة، بل ستكون سببا في أن يستدعي عبد الناصر الباقوري بعدها بأيام ليقول له: «بلغني أنك تحضـر مجالـس تنتقد الثورة التـي أنت علم من أعلامها»، ثم يسـمعه تسـجيلا للمكالمة التي كانت سـببا في اسـتقالة الباقـوري في الصباح التالي من منصبه كوزير للأوقاف.

لكـي أقطـع الطريـق علـى مـن وصفهـم عمنـا محمود السـعدني بـ«أرامل الزعيم الراحل»، لن أعتمد فقط على رواية الشيخ الباقوري، ولا علـى تأكيد صديقه الحميم الكاتب الكبيـر خالد محمد خالد لها، بـل سـأعتمد على تحقيق وافٍ لها نشـره الكاتب الكبيـر رجاء النقاش فـي كتابه «رجال من بلادي»، كان الأسـتاذ رجـاء ممن أعلنوا محبتهم كثيـرا لعبـد الناصـر، لكـن ذلك لـم يمنعه من اسـتهجان هـذه الواقعة وانتقـاد موقـف عبـد الناصر مـن الحريـات، وهو ما جلـب له غضب بعـض الناصريين الذيـن يحلو لهم أن يُحمِّلوا كل الرؤسـاء أي أخطاء

تحدث في عهدهم إلا عبد الناصر، فهو وحده الزعيم الذي لا يعتبرونه مسئولا عن أخطائه، لأنها إما وقعت بفعل مؤامرة دولية وإما كانت تتم دون علمه، لدرجة أن بعض هؤلاء كتب لرجاء مُفَضِّلا الطعن في ذمة الشيخ الباقوري دون دليل قاطع، على أن يعترف بخطأ عبد الناصر وهوسه بالتسلط حتى على مكالمات التليفونات.

أما البعض الآخر فقد لجأ للتشكيك أصلا في حدوث ما رواه الباقوري، وهو ما رد عليه بشكل قاطع الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة الأشهر في تاريخ مصر وأحد رفاق عبد الناصر حين شهد لرجاء النقاش أن عبد الناصر استدعاه وأسمعه تسجيل المكالمة وطلب منه أن يفصل طرفها الثاني يحيى حقي، لكن ثروت عكاشة استغل علاقته القوية بعبد الناصر ليقنعه ببراءة يحيى الذي لا يجوز أن يتحمل ذنب غيره، ولو لم يكن ثروت عكاشة من العارفين بقدر يحيى حقي لكان قد شارك صديقه في دفع ثمن تلك المكالمة المهلكة.

خرج الشيخ شاكر بعد تسعة أشهر من السجن بفضل وساطات محبيه المقربين لعبد الناصر وعلى رأسهم الزعيم السوداني محمد أحمد محجوب، لكنه عاد إليه في عام ١٩٦٥ بعد سلسلة مقالات قوية نشرت في مجلة «الرسالة» شن فيها حملة على الدكتور لويس عوض - ستجدها في كتابه الشهير «أباطيل وأسمار» ـ وحينها ربط «عبقري» ما في جهاز أمني بين تلك المقالات المدافعة عن التراث الإسلامي وبين فكر جماعة الإخوان التي كانت تتعرض في ذلك الوقت لحملة اعتقالات ومحاكمات أعدم فيها مُنظِّر الجماعة الجديد سيد قطب، والذي كان لسخرية القدر قد خاض في طبعته القديمة معركة أدبية عنيفة مع الشيخ شاكر بعد هجوم سيد قطب على مصطفى صادق الرافعي أستاذ شاكر الأقرب إلى قلبه.

مـن سـخريات القدر أيضا أن الشـيخ شـاكر الـذي تـم اعتقاله مع الإخـوان لم يكن يطيق التعامل معهم بسـبب ثقل ظلهم، وكان يفضل عليهم صحبة الشيوعيين الذين كان بينه وبينهم ما صنع الحدَّاد، لكنهم كانـوا أخـف علـى قلبه كثيـرا، ومع ذلك فقـد ظل مسـجونا لأكثر من عاميـن، لأن الدفاتر الأمنية لا يمكن أن تخطئ أبدا، وحتى لو أخطأت فمـن العار أن يتـم إصلاح أخطائها أبدا، لأن ذلـك الإصلاح ربما يهز ثقـة المواطن بقيادتـه الحكيمة الملهمة التـي يتغاضى عن ظلمها على أمل أنه سـيحقق له العدل، ناسـيا أن ما بُني على باطـل لا يقود إلا إلى باطل، وإن صفَّقت له الملايين ورقصت وغنت.

أصبحنا نحتاج للتذكير بوقائع دالة مثل هذه مجددا، بفضل جماعة الإخـوان التي اضطرتنا بخيانتها للثورة وانتهازيتها إلى أن ننشـغل عن مستقبلنا بماضينا، فأخذ بعضنا يدَّعي أنه كان ماضيا مشرقا مهيبا يجب أن نسـتلهمه ونحن نقمع الإخوان، واضطر بعضنا الآخر للتنبيه إلى أن ذلك الماضي كان في أغلبه مظلما «مهببا» بدليل أن استبداده المتخفي تحت شـعارات حماية الوطن أوقعنا في حفـرة الهزيمة التي قمنا منها لنقع في دُحديرة الفسـاد، ولا زلنا للأسـف نواصل القيام والوقوع من نقـرة لدُحديرة، لأننا لا نبـدو راغبين في التعلم من أخطاء ماضينا بقدر مـا نفضل تكراره بحذافيـره التي كان من بينها أن كثيـرا من أبناء وطننا اختـار اعتناق مذهب جحا في تطنيـش أي قمع أو ظلم أو تضييق على الحريات يحدث في البلد، طالما كان بعيدا عن.. قفاه، مَشِّيها قفاه.

صحيفة الشروق - أكتوبر ٢٠١٣

رفع الإصر عن قضاة مصر

لم يكن الحافظ العلَّامة ابن حجر العسقلاني يعلم وهو يكتب سِفره الجليل «رفع الإصر عن قضاة مصر» أن قضاة مصر سيشهدون بعد مرور مئات الأعوام على نشر كتابه إصرا لا مثيل له، إصرا يصل إلى حد ضرب أحدهم بالحذاء وشتمه أقذع الشتائم ومحاصرة ناديهم بفرق الكاراتيه وعساكر الأمن المركزي وتشويه رموزهم على أيدي خدم السلطان وإرهابهم بسيف المذل بعد أن ثبت أنهم لا يرغبون في ذهبه. ربما تظن للوهلة الأولى وأنت تتصفح فهرس الكتاب أن ابن حجر لجأ لاستخدام اسم الإصر - أي الثقل أو الظلم - من باب الرغبة في السجع الذي دأب عليه مؤلفو زمانه، لكنك بعد أن تبدأ في قراءة الكتاب (الذي حققه العالم الدكتور علي محمد عمر ونشرته مكتبة الخانجي العظيمة قبل ثماني سنوات) ستدرك أن ابن حجر اختار هذا الاسم عامدا متعمدا، لأنه أدرك من خلال السنوات التي جمع فيها أخبار وسير قضاة مصر أن الإصر كان على الدوام لاحقا بهم من قِبل ولاة مصر، وأن من حق قضاة مصر على عالم جليل مثله أن يسعى لإنصافهم ونقل سِيرهم العطرة إلى الأجيال التالية.

عندما تقرأ كتاب ابن حجر ستعرف أن قضاة مصر الأجلاء الذين يرفضون اليوم أن يتاجر بهم السلطان الغاشم ويستخدمهم لتأكيد شرعيته المزورة المعيبة هم امتداد مُشرِّف لأجداد خالدين لهم مثل القاضي محمد بن مسروق الذي آلى على نفسه أن يعلي مركز القاضي ويأبى الخضوع لسلطة الوالي فيرفض حضور مجلس الوالي كما جرت العادة، بل إن الأمير عبد الله بن المسيب عندما طلب منه أن يحضر إليه بمجلسه هاجمه ابن مسروق هجوما عنيفا جعله يمتنع عن طلب ذلك منه ثانية، وكان يتعمد أن يظهر التكبر على الأمراء لكي يشجع الناس على طلب حقوقهم، وعندما أغضبت عدالته الصارمة الكثير من أهل السلطان بدءوا في إصدار التشنيعات والشائعات في حقه ليزعموا أنه سيحمل أموال اليتامى والأوقاف ليذهب بها إلى الخليفة، وعندها وقف ابن مسروق على باب المقصورة ليصرخ في الناس صرخة غاضبة: «أين أصحاب الأكسية العسلية؟ أين بنو البغايا؟ لم لا يتكلم متكلمهم بما شاء حتى يرى ويسمع؟»، فما أجابه أحد بكلمة، كما يقول المؤرخ الكندي.

في كتاب ابن حجر ستجد صورة طبق الأصل لموقف القضاة المشرف اليوم من ضرورة استقلال السلطة القضائية استقلالا تاما عن ألاعيب الحكام فيما حدث سنة ٧٧٦ هجرية في عهد السلطان الأشرف شعبان بن قلاوون، عندما عزل القاضي برهان الدين بن جماعة نفسه من منصب القضاء غضبا من تدخل بعض ألاضيش السلطان في عمله، فأغلق بابه واعتزل عن القضاء هو ونوابه، مسببا حرجا بالغا للسلطان الأشرف الذي أرسل إليه أحد أمرائه يسترضيه

ويسأله العودة لممارسة عمله فيمتنع القاضي ويصر على موقفه، ولا يتنازل عنه إلا عندما يعلم أن السلطان الأشرف سيركب إليه ويحضر إلى منزله إذا لم يذهب هو إليه، ولأنه طالب حق لا طالب دنيا يذهب إلى السلطان الذي أخذ يسترضيه ويعرض عليه العودة لمنصبه فيشترط عليه القاضي ألا يتدخل أحد في عمله أبدا، ويتعهد له السلطان بذلك ويكرم وفادته ويعود القاضي إلى منصبه وسط جمع من الأمراء والأعيان فيزداد رفعة ومهابة وعظمة عند الأمراء والعامة.

قبله بكثير كان هناك نموذج مشرف آخر هو القاضي إبراهيم بن إسحاق الذي يصفه المؤرخ ابن يونس بأنه كان صالحا صدوقا متشددا لدرجة أنه واجه أمير مصر السري بن الحكم قائلا له: «تحدّون الزاني وأنتم تزنون، وتقطعون السارق وأنتم تسرقون، وتجلدون في الخمر وأنتم تشربون»، ووقف الأمير أمامه خانعا يسأله أن يترفق به دون أن يأمر بقتله أو يسلط عليه فرق الكاراتيه، بعدها تهتز مصر كلها لموقف ابن إسحاق عندما امتنع عن القضاء بعد أن أصدر حكما على رجل فتشفع بالأمير الذي أرسل إلى القاضي يطلب إرجاء تنفيذ الحكم حتى يصطلح المحكوم عليه مع غريمه، واعتبر ابن إسحاق ذلك إهانة كبيرة؛ فقرر الامتناع عن القضاء، ورغم أن الأمير ركب إليه ليسأله الرجوع فقد صمم ابن إسحاق على الامتناع وترك منصبه ليلقى ربه بعدها بشهر مُسطرًا نموذجا خالدا في تاريخ القضاء المصري.

يحكي لنا ابن حجر كثيرا في كتابه كيف دأب حكام مصر المتعاقبون على التضييق على كل قاض يحرص على الاستقلال والعدالة، بل ووصل ببعضهم البطش إلى إلغاء منصب القاضي نهائيا؛ كما حدث

في عهد المأمون، بعض القضاة كانوا يصمدون حتى النفس الأخير أمام ألاعيب الحكام واستبدادهم مثل القاضي أبي البقاء السبكي الذي كان يتصلب في الأحكام ولا يحابي أحدا من كبار الدولة، وعندما أراده السلطان الأشرف أن يبيع له وقف بيت كتبغا وبلغت به الوقاحة أن يطلب من القاضي أن يلتمس له حيلة لذلك، رفض مرارا ولم يستجب لكافة الضغوط التي مارسها السلطان عليه، واستفز ذلك السلطان الذي واجهه أمام الناس فقال له: «يا قاضي لأي معنى أسألك في شيء لا مشقة عليك فيه فلا تفعل؟»، فأجابه القاضي بغلظة كما يصف ابن حجر: «اسمع يامولانا السلطان، إن كنت ما تعرفني فأنا أعرفك بنفسي، والله الذي لا إله إلا هو لو علمت أحدا يصلح للقضاء في هذا العصر غيري ما توليت»، ومشى غاضبا مديرا ظهره للسلطان بدون حتى أن يسلم عليه، وبالطبع أسعد ذلك من كان أبو البقاء يقف ضد مصالحهم فظلوا يأمرون السلطان بعزله حتى عزله.

كان هناك قضاة آخرون لم يواجهوا السلطان بهذه القوة، لكنهم لم يعطوه ما أراد أيضا، فكان السلطان يمارس معهم ألاعيب عديدة للتأثير على أحكامهم، بعضهم كان يمل تلك الألاعيب سريعا ويفضل أن ينأى بنفسه عن المنصب بكل ما فيه من وجاهة وثروة حفاظا على تاريخه وذمته، من هؤلاء شرف الدين أبو العباس الحنفي الذي يصفه ابن حجر بأنه كان صارما مهيبا نزها قوالا بالحق كثير النفع للناس مع أنه لم يكن يجد من يعاونه، وكان يباشر صرف الصدقات بنفسه ولا يقبل لأحد هدية ولا يعمل برسالة أحد من أهل الدولة ولا يراعيهم - شوف التعبير - فكثرت عليه رسائلهم - أي شكاواهم للوالي والخليفة -

فكـره الإقامة بينهم وسـأل العزل مرة بعد مرة، حتى عزل نفسـه عندما ضغط عليه أهل الدولة لحل بعض الأوقاف للاستيلاء عليها.

نمـوذج مشـرف آخـر نجده فـي سـيرة القاضـي أحمد بن عيسـى الأزرقـي الـذي أعلـن بين الناس عـدم التفاته لشـفاعة أحد أو رسـالة كبيـر أو صغيـر، وعندما أراد سـلطان مصر أن يسـافر إلى الشـام طلب مالًا يقترضه للسـفر من ودائع القضاء، وكان يمكن لقاضينا أن يسـمح بذلـك؛ خاصـة أن السـلطان طلـب المـال قرضـا لا نهبا، لكنـه توجه إلـى الوالـي وأخـرج من كُمـه مصحفـا قائلا له: «سـألتك باللـه منزل هـذا القـرآن لا تتعـرض لمـال الأيتـام، وإن كان لا بـد من ذلـك فهذا المنصـب يوليـه السـلطان لمن شـاء»، فسـكت عنه السـلطان وسـافر بماله الخاص.

لا يمكن هنا أن ننسى واحدا من أشهر قضاة مصر؛ وهو بائع الملوك؛ العز بن عبد السلام الذي صار نموذجا تاريخيا لنزاهة القاضي وعدله، والغريب أن ابن حجر لا يروي عنه قصة بيعه الشـهير للمماليك، لكنه روى قصصـا عديدة عن صراعه مع الملك الصالح أيوب وعدم خوفه من إنكار المنكر في وجه الحاكم، مرة أنكر على الصالح أمام حاشـيته وجـود حانـة خمر قريبة من قصره فقال له الصالـح: هذا من زمن أبي، فرد عليـه القاضي العادل: «أفترضى أن تكون ممـن يقول يوم القيامة: إنـا وجدنـا آباءنا على أمة؟ بعدها سـأله تلاميذه: كيف تجسـرت على هذا السلطان مع شدة سطوته؟ فقال: رأيته قد تعاظم في موكبه فأردت أن أهينـه. قالوا له: أما خفته؟ فقال قولته الشـهيرة: «اسـتحضرت هيبة

الله في قلبي فصرت أراه كالقط»، فهل نجد بيننا اليوم من يقول عن حاكمنا: «استحضرت هيبة الله في قلبي فصرت أراه كممتاز القط»؟!

بالطبع فإن سير قضاة أجلاء مثل هؤلاء تسطع مشرقة وسط سير مهينة ذليلة لقضاة آخرين ارتضوا أن يسلموا منصب القاضي لنفوذ السلطان يلعب به كيفما شاء، فساروا في أحكامهم وفق رغبات السلاطين، بل تولى بعضهم كما يروي ابن حجر منصبه «ببذل المال للأمراء ونشطوا في جمع الأموال بكل السبل لتعويض ما دفعوه في سبيل الحصول على المنصب، ونتج عن ذلك أن تولى القضاء في بعض عصور مصر رجال لا علم لديهم ولا معرفة فأساءوا إلى هذا المنصب الجليل»، والمفرح أن التاريخ خلَّد سِير هؤلاء أيضا فحظوا بتجريس أبدي سيحظى به الذين يشقون صفوف زملائهم ويعينون السلطان عليهم، ولعلَّهم لو أحبوا مهنتهم لعادوا لقراءة ابن حجر فوجدوا كيف قرر في كتابه أنه عندما تم في أكثر من عصر الجمع بين منصبي القضاء والوزارة تدهورت أحوال القضاء حتى صار القضاء مبتذَلا مُهانا بنص تعبيره، والغريب أن هناك فقرات تتعلق بهذا الموضوع تم حذفها من المخطوط كما يقرر محقق الكتاب، والله أعلم من الذي تطوع بحذف هذه الفقرات، وما هي الحقائق المؤسفة التي تضمنتها.

عندما تقرأ في كتاب ابن حجر أسماء الحكام والوزراء الذين قبلوا أن يوقعوا الإصر على قضاة مصر تسأل: هل يظن الذين يوقعون الإصر اليوم على قضاة مصر أنهم سيفلتون من حساب التاريخ؟ ولماذا لا يفكرون ألف مرة في أن يضمنوا لأنفسهم سُمعة حسنة تجلب لهم

الدعـوات لا اللعنات؟ بالطبـع أعلم أنه من العبث أن تطلب من حاكم لا يعترف إلا بالأمن المركزي وفرق الكاراتيه أن يراجع نفسه جيدا قبل أن يخلده التاريخ كواحد من الذين قمعوا القضاة وحاربوهم وعصفوا بهم، لكنني أعلم أيضا أنه مهما نجح حكام مصر اليوم في قمع القضاة والسـماح لغلاظ القلـوب من زبانيتهـم بضربهم بالأحذيـة والتطاول عليهـم، والتفكير فـي تلفيق قضايا تخابر لهم، وتشـويه صورتهم لدى النـاس، وإطـلاق كلاب الإعـلام المسـعورة عليهـم، فإن هنـاك الآن فـي مكان ما من مصـر ابن حجر جديد يكتب تاريخ هـذه الفترة ليترك للأجيال القادمة سـيرة الإصر الذي أوقعه مبارك ورجاله بقضاة مصر، فينالوا ما يسـتحقونه من حسـاب قبل أن يمثلوا بين يدي من نسـأله كل يوم ألا يحمل علينا إصرا كما حمله على الذين من قبلنا. اللهم آمين.

صحيفة الدستور - ٢٠٠٦

إيش يعمل أمين الاحتساب.. وكافة أرباب الأصناف محمية؟

منذ أن قرأت ذلك الكتاب وأنا لا أكف عن ترديد العبارة السابقة التي ربما أثارت استغرابك لكل من يشكو لي ظلما وقع عليه أو فسادا شهد عليه، وما أكثر ما يقع من ظلم وما نشهد من فساد في بلادنا المحمية بالحرامية.

أما الكتاب؛ وهو من أهم وأخطر ما قرأت من دراسات تاريخية، فعنوانه «الأزمات الاجتماعية في مصر في القرن السابع عشر» وهو عبارة عن أطروحة جامعية للدكتور ناصر أحمد إبراهيم أنجزها قبل سبع سنوات بإشراف العلَّامة الدكتور رءوف عباس ونشرته مشكورة دار الآفاق العربية. وأما عبارة «إيش يعمل أمين الاحتساب.. وكافة أرباب الأصناف محمية؟»، فقد قالها في وقت ما من النصف الثاني من القرن السابع عشر الأغا حسن بلفيه الذي فوضه الوزير قره محمد باشا بأن يكون أمينا للاحتساب يرعى شئون البلاد والعباد، وعندما تدهورت أحوال البلاد الاقتصادية أراد الوزير أن يحاسبه فرد عليه

حسن أغا بتلك العبارة البليغة التي تستطيع أن تترجمها إلى العربية الفصحى بقولك: «وما الذي يفعله أمين الاحتساب في بلد كل من فيه يستقوي بمن يحميه؟»، ويمكن أن تترجمها إلى عامية هذه الأيام بعبارة مليئة بالألفاظ القبيحة لا أجرؤ على نشرها. المهم أنك ستجد في هذه العبارة بكل ترجماتها توصيفا غير منتهي الصلاحية لكل ما تشكو منه هذه الأيام من تغول لأصحاب النفوذ وعجز القانون عن أن يطال أحدا فيهم إلا إذا حانت ساعته ورفع من يحميه يده عنه.

لا شك أنه من المؤسف أن نعود إلى القرن السابع عشر لكي نبحث عن عبارة تصف حال بلادنا في القرن الحادي والعشرين، فالمعتاد أن يرجع الناس في بلاد الله الواسعة إلى التاريخ ليدركوا كم تطورت أوضاعهم وتحسنت أحوالهم فيفرحوا بما حققوه ويهنئوا بما أنجزوه، أما في بلادنا التي ضاقت واستحكمت حلقاتها فنرجع إلى التاريخ لنعزي أنفسنا بأن ما نعيشه الآن شهدناه من قبل وعشنا فيها سنين طويلة ونردد تلك العبارات المقيتة التي تحضرنا كلما فتحنا كتابا يحكي تاريخنا: «التاريخ يعيد نفسه» و«ما أشبه الليلة بالبارحة!» و«تيتي تيتي زي ما رحتي يا مصر زي ما جيتي».

لا أريدك أن تتهمني بأنني أنظر إلى واقعنا بنظارة سوداء تجعلني أتعامى عن رؤية إيجابياته، فأنا لا أدعي أن مصر لم تتغير قيد أنملة منذ القرن السابع عشر، بالتأكيد هناك تطورات كثيرة قد جرت ولم تعد أزماتها الاجتماعية كما كانت «تيبيكال»، لكن «أبسلوتلي» إذا كانت أشكال أزماتها قد تغيرت؛ فقد بقي جوهر أزماتها على حاله؛ الظلم. لماذا أصدع رأسك بكلامي ولا أترك التاريخ يتكلم؟! دعنا

نعود سـويا إلى تفاصيل الواقع المصري الذي يرسـمه الباحث المتميز ناصـر إبراهيم بعـد أن غاص في أرشـيفات المحاكم الشـرعية التي لم أكـن أتخيـل أنهـا يمكن أن تشـكل إلى هـذا الحد منجما يكشـف أدق وقائـع الحيـاة اليوميـة فـي مصـر، كما أنـه اعتمـد علـى المخطوطات الطبية المكتوبة في تلك الفترة وعلى شـهادات عدد من الرحالة العرب والأجانـب وشـهادات مؤرخـي تلـك المرحلة ليرسـم صـورة خطيرة وحزينة لمصر المنكوبة بفسـاد حكامها وطرمخة أبنائها، حيث شهدت مصر في تلك الفترة وعلى مدى سـنوات متفرقة من القرن السابع عشر مجاعات شديدة وصل تأثيرها إلى حد أن يلجأ الناس إلى أكل الجيف والميتـة ولحـوم الدواب، ويـدق بعضهم العضم ويأكلـه، بل إن بعض تلك السنوات شـهدت إخراجهم لجثث موتاهم وافتراسها، أعلم أنك تقول في عقل بالك الآن: «يا سـاتر، ومنـذ متى يمكن أن نصل إلى هذا المنحدر السـحيق؟!»، الحقيقة أن هذا هو جوهر ما يمكن استخلاصه مـن هذه الدراسـة القيمـة، فعندما تسـأل عـن ما الذي يمكـن أن يدفع الإنسـان المصـري إلى أكل لحم موتاه، فسـتعرف أن ذلـك لم يحدث إلا بعد أن عاش سـنوات من الظلم والإفقار والنهب جعلته يتردى شيئا فشـيئا تحـت خط الفقر الذي يعرف بأنه «مسـتوى الدخـل الذي يكفي لإشـباع الحاجات الأساسـية للفرد»، وهنـا يسـتخلص الباحث نوعية تلـك الحاجات الأساسـية التي كان فـي إمكان فقـراء المصريين وقتها الحصـول عليهـا معتمدا على مصـادر الرحالة الأجانـب الذين اهتموا كثيرا بتوصيف المسـتوى المعيشي السـائد والنمط الغذائي السائد بين المصريـن، فنجد الرحالة الطبيب الفرنسـي بيلون يتعجب من بسـاطة غـذاء الفلاحيـن المصريين الذي لا يتجـاوز الحبوب أبـدا، بينما يقرر

الرحالـة ألبين أن تناول اللحوم والطيور، سـواء فـي الريف أو الحضر، كان مقتصرا إلى حد كبير على المواسـم والأعيـاد، بينما كانوا يكتفون بـأكل خبز الـذرة والجبن القريش والخضـراوات الرخيصة كالملوخية والبسـلة، أما الرحالـة العثماني مصطفى علي فيقـول في كتابه «وصف القاهرة عام ١٥٩٩»: «إن من الحقائق المثيرة بالفعل أن سـكان الريف في مصر، وكذلك أهالي المدن، يعيشـون بصفة دائمة في حالة تقشف؛ ذلـك أن معظمهم يكفيـه أن يتناول القهوة كمشـروب وتحميص حب البن وقطعة أو قطعتين من الخبز الجاف كطعام أساسي والجبن المقلي الـذي كان يمثل قوام غذائهم اليومي، وقد دفعهم التهامهم للمأكولات الرخيصـة أن يتناولـوا أطعمة صعبـة الهضم كرءوس الثيـران وأرجلها ورئتهـا ومعدتهـا، وبصفـة عامـة كان طعامهم غير صحـي ولا طعم له ومشـبعًا بالزيت وعسر الهضم». (طبعا سكان مصر بحمد الله وبفضل عبـده حسـني مبارك لم يعـودوا يأكلـون سـوى اللحم الصافـي الهبر، ولا يذوقـون من الطعام سـوى أطايبه كمـا لا يخفى عليك، بالمناسـبة سـيؤلمك أن تعـرف أن السـمك فـي تلـك الفتـرة كان وجبـة متاحـة للمصريين بسبب رخص ثمنه، ولا حول ولا قوة إلا بالله).

يسـتخدم الدكتـور ناصر إبراهيم هـذه المعلومـات المحزنة ليتتبع العلاقـة بيـن سـوء التغذيـة الـذي كان عليـه المصريـون وبين انتشـار الطواعيـن والعـدوى الوبائيـة، وبيـن أزمـات الغـلاء، وهـو ما أدركه عـدد مـن المؤرخيـن القدامـى؛ منهـم صاحـب «زبـدة اختيـار ملوك مصـر المحروسـة» الـذي يقـول: «وغلـت الأسـعار فسـبب ذلك في الفنـاء العظيـم»، والمـؤرخ علي بن رضـوان الطبيب المصـري الذي

شهد على الفترة وكتب قائلا: «إن المرض الوافد؛ أي الوباء، قد يحدث في الناس من قبل ارتفاع السعر وعدم الطعام»، أما الرحالة الفرنسي فيكتب قائلا: «إن التغذية الرديئة هي سبب ما نرى من هياكل المتسولين دميمة المنظر ومن مسحة الشقاء والوهن»، ويلاحظ د.ناصر هنا في المصادر التاريخية للفترة تكرر عبارات مثل «وقع الغلا الوبا» و«وقع الغلا وأعقبه الفنا» و«وقع الفنا وكان قبله شدة الغلا». (هل أدركت أننا نتحدث الآن عن موضوع شديد المعاصرة وليس موضوعا تاريخيا كما قد يوسوس لك الشيطان؟)، صحيح أن الغلاء لم يكن دائما مقترنا بحدوث الأوبئة، كما أن الأوبئة كانت تظهر أحيانا دون أن يكون هناك غلاء في الأسعار، وكان غالبية المصريين يضطرون في ظروف الغلاء النسبي المتصاعد إلى ضغط نفقاتهم الزهيدة بشراء الأغذية الرخيصة التي لا تكفل لهم الحد الأدنى من السعرات الحرارية، لكن كما يلاحظ د. ناصر فإن البقاء طويلا على حافة المجاعة يصبح شيئا مستحيلا مع تواصل ارتفاع الأسعار، وهو ما أدى بعد سنوات من الصبر والتعايش إلى انفجار مظاهرات شعبية عام ١٦٧٨ اتجه فيها هؤلاء الذين صبروا طويلا صوب القلعة - مركز الحكم - وبنوا صوامع الغلال أسفل القلعة ثم قاموا بحرق تلك المخازن، لكن الثورة لم تكن كافية لحل مشاكل الناس؛ فبسبب تفاقم سوء التغذية وقع الطاعون ليحصد آلاف الفقراء الذين أضناهم الغلاء الشديد وارتفاع نفقات المعيشة بحد يفوق كل إمكانياتهم. هنا تلاحظ المصادر التاريخية المعاصرة للفترة طريقة تعامل المصريين مع تلك الأوبئة بوصفها بلاء قدريًّا اقتضته المشيئة الإلهية بسبب خروجهم عن طاعته؛ ولذلك كان يتم عمل جداول تحمل أسماء الله الحسنى،

وأمام كل اسم يتم تحديده بأرقام معينة، ويوصى بوضعها على رأس المريض الموبوء، أو تعليقها في بطانة بملابسه، أو وضع الجدول في كوب من الماء ليذاب حبر الأسماء به ثم يشربها المطعون. بعض الرحالة لفت انتباههم أن الأمراض الوبائية مثل الجذام والجدري والفتاق والرمد كانت أمراضا معتادة بين المصريين بشكل صارت معه أمراضًا مألوفة رغم خطورتها على الحياة، «حتى لقد كان الواحد منهم يلقى حتفه بسببها دونما جزع، كما أن المحيطين به يتلقون نبأ الواقعة بغير دهشة»؛ كما يلاحظ الرحالة إيبيد.

بعدها بسنوات، وتحديدا في الفترة من ١٦٩٠ إلى ١٧٣٦ لم تتحسن الأحوال على الإطلاق؛ فقد شهدت مصر ١٦ حالة غلاء و١٣ أزمة نقدية بحيث لم تكد تفيق من أزمة حتى تلاحقها أزمة أخرى، واللافت كما يلاحظ د. ناصر أن تلك الأزمات لم تكن نابعة من وجود ندرة قاسية في المواد الغذائية بقدر ما كانت نابعة من نجاح كبار الملتزمين والتجار في فرض أسعار احتكارية من خلال قوة تحكمهم في إمداد الأسواق بالكميات التي لا تفي بقوة الطلب المتزايدة خلال تلك المجاعة، حيث كانت ما تزال حواصلهم مليئة بالغلال والسلع الغذائية. (لم تكن البلاد تعاني من أزمة شاملة إذًا، بل كان فقراؤها وحدهم هم الذين يعانون)، ولأن أمراء البلاد لم يتدخلوا لإيقاف هذه المهزلة التي شهدتها البلاد فقد تفاقمت الأمور بشكل غير مسبوق حيث شهدت القاهرة هجمة من جياع الأرياف الذين أخذوا يهاجمون أفران الخبز مما اضطر أصحاب الأفران لتدبير فتوات لحماية أنفسهم وبيع الخبز من خلف سياجات خشبية محكمة، وبدأ الناس يأكلون

القاذورات ثم الحيوانات إلى أن وصلوا إلى أكل لحوم البشر، كما يقول مؤلف الزبدة: «وفشا أكل بني آدم واشتهر»، وبدأ الجياع يتساقطون موتى في الطرقات، فلم يعد ممكنا دفنهم بسبب تفشي الطاعون، حتى إن الشيخ عبد الله الشرقاوي يروي مشهدا رهيبا يصف فيه كيف كان يتساقط مشيعو الجنازات أثناء المواكب الجنائزية بفعل المرض والجوع، بل وبدأت تتعذر عمليات الدفن بسبب موت القائمين على أمور التغسيل والتكفين والدفن، فيما وصف بأنه أشد أزمة عرفتها مصر منذ عصر الدولة الفاطمية، وهنا وحده أدت كثرة الموتى إلى انخفاض قوة الطلب على الغلال فانخفضت الأسعار أخيرا.

عند هذا الحد سأترك لك أسبوعا بحاله لكي تعلق على ما قرأت وتتأمله وتحلله لعلك تدرك أن صمتك على تغيير أحوال بلادك لن يفضي بك وبها إلا إلى خراب مطبق.

بالطبع لم تحدث المجاعات والأوبئة التي استفضنا في سرد وقائعها المحزنة في مصر طيلة القرن السابع عشر لأن الله عز وجل كان يكره المصريين، أو لأنه اختصهم دون غيرهم بعذاب من عنده، بل كانت تلك المجاعات والأوبئة نتاجا طبيعيا لسياسات حكام مصر. يضع الباحث على رأس القرارات الإدارية والسياسية التي أفضت بالمصريين إلى ذلك الحال المحزن من أوجاع وأوبئة «إرهاق كاهل المواطنين عاما بعد عام منذ بدايات القرن السابع عشر بكميات مختلفة من الضرائب غير الشرعية والتي بلغ من تعددها وتنوعها الشاذ

أن استوعبت معظم الدخول الزراعية، وظهرت ضرائب متعددة بأسماء مثل مال السلطان والعونة والوجبة ونزلة الصراف ومجيء الديوان ونزلة الكشاف والفردة والكلفة ومال الجهة والمرية وحق الطريق وحق الطلبة والتساويف الصيفية والشتوية... وغيرها من المغارم التي كان مجرد ذكر اسمها يثير الرعب في نفوس الفلاحين، خاصة أن بعض جباة الضرائب كانوا يتآمرون على تكبيد الفلاحين دفع الضرائب مرتين»، وقد أدى كل ذلك إلى انهيار البنية الزراعية وتوقف تحسين شبكات الري، وبدأت تظهر حوادث تهدم القناطر والجسور وبوار القرى وسد الترع والقنوات، وتوقفت عمليات استصلاح الأراضي، وعزف الفلاحون عن زراعة الأراضي الأقل خصوبة ليجنبوا أنفسهم ثقل الأعباء الضرائبية، وهنا حصلت مهازل، منها: اعتبار بعض جباة الضرائب أن القرية وحدة ضرائبية متضامنة، وبدءوا «يدعون بالفلاحة على أهالي لم يكن لهم صلة بالزراعة»، ووصل تدهور الأمور إلى حد أن أكثر من ثلث الوجه البحري بارت واختفت قراه تماما، حين توحشت ظاهرة ابتزاز التجار وأصحاب الطوائف من قبل أصحاب النفوذ والضباط الذين دأبوا على التحرش بالحرفيين والمتسببين والأهالي، غنيهم وفقيرهم، فالذي لا يمكن الحصول على أموال منه كان يتم إجباره على إطعام خيول هؤلاء مجانا، بل ووصل الأمر ببعضهم إلى منع الأهالي من إقامة الأفراح ما لم يدفعوا لهم الرشاوى أولا، وزاد الطين بلة أن الناس لم يكونوا يجدون جهة نزيهة يطلبون عندها العدل بعد أن ساد مبدأ شراء وظائف القضاء والحسبة، ينقل هنا د. ناصر من أرشيف محكمة دمياط شكوى تقدم بها أهالي دمياط ضد

نائبَي الوالي نور الدين بن كوفيه وبدري اللذَيْن كان «من دأبهما التعدي على الرعايا بالظلم والجور، وأخذ أموالهم بغير حق، وكتابة الحجج بالتزوير والتلبيس، وقطع السجلات المحفوظة، وكتابة الوقائع التي لا أصل لها، وزج الأهالي في السجون». بالذمة كأنك تقرأ موضوعا منشورا في الدستور عن أيامنا السوداء هذه.. إنها مصر يا عبلة.

في موضع آخر يرصد الدكتور ناصر إبراهيم دور المساوئ الإدارية والأخطاء السياسية في تفاقم أزمات تلك الفترة، فهو يلاحظ قِصَر مدة حكم الوزراء في القرنين السابع عشر والثامن عشر كدليل على ضعف الإدارة؛ وهو ما جعل عددا كبيرا من هؤلاء الوزراء يطرقون كل السبل التي تحقق لهم الثراء السريع خلال فترة حكمهم القصيرة، يحكي البكري في «الروضة الزهية» عن أحد هؤلاء واسمه محمد باشا البستنجي فيقول: «جمع في مدة ولايته القصيرة التي استغرقت شهرين ونصفًا ما يعجز تحصيله غيره في عام»، كان هؤلاء الوزراء يسعون بتكالبهم على نهب أموال المواطنين لتعويض المبالغ الضخمة التي يدفعونها للحكام الأعلى منهم، ولذلك اتجهوا لممارسة تجارة الغلال المحظورة مع الأجانب والأوربيين خاصة في السنوات التي كان يقل فيها إنتاج الحبوب أو يعم البلاد فيها القحط. لدينا هنا نموذج حقير للوزير علي باشا السلحدار الذي قام في عام ١٦٠٤ باستغلال الغلاء فباع كميات هائلة من القمح للأجانب على أساس أنه بهارات بفارق سعري يصل إلى ١٤٤ بارة في الإردب الواحد، وقد أعقب فعلته الشنعاء هذه ظهور مجاعة انتشرت في كافة الأقاليم وأعقبها طاعون شديد التدمير. بعدها باثنين وعشرين عاما قام

الوزير مصطفى باشا باستخدام نفس فكرة سابقه علي السلحدار فباع مخزون البلاد من القمح المغربل للأجانب على أنه «فلفل محزوم في الجلود»، وهو ما سبَّب صعوبات جمة لحصول الأهالي على مئونتهم، وبالتالي عندما وقع طاعون في أعقاب هذه الأحداث أخذ يفتك بالسكان من جميع الأعمار بسبب معاناتهم من نقص التغذية. نفس الظاهرة تكررت في عام ١٦٤٢ حيث قام كاتب الديوان الذي كان الوزير مصطفى باشا بين يديه «كالولب يديره كيف شاء» – الكلام ده من زمان برضه – ببيع غلال الشونة السلطانية للأجانب، بل وبلغ به الجبروت أن يمنع صرف جرايات الفرق العسكرية لأكثر من عام ويبيبعها للأجانب، وكادت البلاد تشرف على مجاعة محققة لولا أن صادف موت أحد الأمراء البكوات في مكة وصودرت تركته التي كان بها ٢٠٠ ألف إردب من الغلال – شوف الجبروت – تم توزيع جزء كبير منها على الأسواق لتمثل انفراجة غير متوقعة، لكن «الأسعار ظلت دون متناول يد الأهالي فاستمرت المجاعة التي تسببت في أشد جائحة طاعونية انتابت المجتمع المصري خلال النصف الأول من القرن السابع عشر حيث استمرت سبعة أشهر متتالية».

مظهر آخر من مظاهر سوء الإدارة ورغبة الوزراء الجامحة في استدرار الأموال تمثل في قيامهم بشكل قديم من أشكال تزوير العملة هو حمل الفضة المغشوشة معهم إلى مصر ليستبدلوها بالذهب، فكانوا فور توليهم مقاليد الحكم يدفعون بها إلى دار ضرب العملة لتسك بارات فضية توزع على الناس ليكتشفوا فيما بعد أنها فضة نحاسية، وتلحق بهم خسائر فادحة، وهو ما تسبب في أكثر من فترة في

خلق أزمات نقدية سـاعد على تفاقمها غيـاب الضوابط الإدارية، وهو ما وصفـه المؤرخ المعاصر للفتـرة أحمد كتخدا الدمرداشـي بتعبيره: «سيب السايب في السايب»، لـم يتوقف الأمر عند ذلك كله بل انتشرت أعمـال مصادرات أملاك الموتى بالطاعـون، خصوصا الأغنياء منهم، وربمـا من هنـا ظهر تعبير «موت وخـراب ديار»، الـذي أصبح ملمحا خالدا من ملامح الحياة في مصر، وسـاهم في تفاقم كل هذه الأزمات ضعـف الـوزراء وحرصهـم الشـديد على تجنـب الاصطـدام بالفرق العسـكرية وقادة البيوت المملوكية (!) واسـتثمرت الفرق العسـكرية ضعف الوزراء من خلال سـعيها الدءوب على اسـتحواذ أكبر عدد من المـوارد والالتزامـات الريفيـة والحضرية، وسـاهم كل ذلك في خلق أزمات مؤقتة حتى إن كُتاب تاريخ هذه الفترة كانوا يبدون تعجبهم من انقضاء ولاية أحد الوزراء دون أن يحدث بها قيل ولا قال ولا نزاع.

أعتقد أن السـؤال الذي يبقى في ذهنك بعد قراءة كل هذه التفاصيل هـو: إذا كان العذر الذي يمكن أن نلتمسـه لأولئك الحـكام العثمانيين وهـم يعيثـون فـي مصـر فسـادا أنهـم لا يرتبطـون بها بـأي مـن روابط الـدم أو الحنيـن أو الانتماء، فكيف نفهـم ونفسـر قيام مـن يدَّعون أنهم مصريـون انتمـاء ودمـا وحنينا بما هو أشـد فسـادا وأنكى ظلمـا؟! لن يغادرك هذا السؤال بل سيلح عليك أكثر وأنت تقرأ كيف شهدت مصر فـي تلك الفترة - وأكرر أننا نتحدث عن القرن السـابع عشـر - إهمالا متراكما للمرافق والخدمات الصحية بسبب تلوث مياه الشرب، فبرغم اعتمـاد المصريين الوحيد علـى النيل كمصدر لمياه الشـرب، إلا أنهم كانوا يسـتخدمون مياهه كمصرف صحي طيلـة العام ولا يتورعون عن

إلقـاء المخلفات والقاذورات على جانبيه وفـي مجراه اعتمادا على أن الفيضان سـيجرف ويطهر كل ذلك، ومن ثم كان تأخر مجيء الفيضان يتسبب في تحويل خليج النيل الذي يشق القاهرة إلى مستنقع جاف من القـاذورات، وبرغم تخصيص مبلغ مائة ألف بارة للإنفاق سـنويا على أعمال جرف الخليج مما به من مخلفات، إلا أن ذلك لم يكن يتم على أكمـل وجه بسـبب عمليات الاختلاس الشـائعة في كل المشـروعات العامـة والتـي كان يتربـح منهـا باشـا مصـر طبقـا لشـهادة العديـد من معاصري الفترة - أكيد كان بيشـرب مية معدنية برضه - وقد أدى ذلك فـي النهايـة إلى تفجيـر أزمات صحية شـنيعة، حتى إن قـوة اندفاع مياه النيل ضعفت في عام ١٦٢٤ بسـبب تراكم المخلفات، وبعدها بعامين أصدر الوزير مصطفى باشـا أمرا لسكان القاهرة بالامتناع عن العب من مياه الخليج لمدة سـبعة أيام أملا في ارتفاع منسـوب الفيضان برغم أنه بلغ الوفاء. لم يكن ذلك هو السـبب الوحيد لانتشار الأمراض، بل كان هناك سبب آخر هو تلال الأنقاض والقاذورات التي تحيط بالمدن على الرغم من تحمل الأهالي لنفقات إزالتها ونفقات كنس الشـوارع ونقل مخلفاتهـا - برضه - إلا أن ذلك لم يمنع تراكمها خارج المدن بشـكل أدى إلى تصاعد روائح نتنة وسحابات دخانية سوداء - برضه - بلغ من كثافتهـا أنها حين كانت تظلـم النهار كان الناس يظنـون أن القيامة أتت كما حدث في عام ١٦٩٤

هنـا يرصد الباحث نقطة مهمة هي أن مظاهر الأزمات الاجتماعية مـن غـلاء ومجاعة وأوبئـة كانـت تنحصر عندمـا يقيَّـض لمصر ولاة عادلـون، من هـؤلاء مثلا مقصود باشـا الذي تسـلم باشـوية مصر في

عـام ١٦٤٣ وهـي منهكـة من القحـط والغـلاء، ومن طاعـون جارف وقـع قبل وصولـه بأيام، لكنه قـام بإحداث تغييرات شـاملة في أرباب المناصب وبطانة السوء وخصوصا كتخدا الوزير مصطفى باشا وكاتب ديوانه أحمد أفندي - وآه من أحمد أفندي هذا على مر التاريخ - حيث كانا وراء أعمال الاختلاس والاحتكار وتفريغ الشون السلطانية وبيعها للأجانب. لكن قدر مصر السيئ يشـاء أن يقوم العسـكر بإثارة متاعب في وجه مقصود باشـا انتهت بعزله وقتله ظلما بإسـتانبول ليعيد الوزير التالي أيوب باشـا جميع المظالـم التي أبطلها سلفه، ويقضي على كثير مـن إصلاحاته، ويعيد الامتيازات غير الرسـمية للطوائف العسـكرية. بعدها بسنوات جاء والٍ اسمه علي أغا اتخذ إجراءات إيجابية أضرت بمصالـح القـوى المتنفـذة وخاصـة تجار البـن - كانـوا أياميها أجمد مـن أحمـد عـز الآن - وهو مـا أدى لتكاتف هـؤلاء على عزلـه مرتين ليحـل محله رضـوان أغا الذي أعـاد كل ألوان الحمايات والرشـاوى والاضطرابات النقدية. ولعله كان أحسن حظا من كوجك محمد باشا أوضباشه الانكشـارية الذي قام في عام ١٦٩٤ بعمل تسعيرة للسيطرة على انفلات أسـعار القمح وأنذر من يتجاوز التسـعيرة بالشـنق، وكان يقوم بنفسـه بجولات يومية على الأسـواق لمراقبة الأسعار، وحاولت الجماعات الاحتكارية اسـتمالته برشـوة ضخمـة قدرها ٥ آلاف دينار لكنه رفضها وشـدد إجراءاته الصارمة، وقام بقتـل بعض المحتكرين، وانتهى الأمر به كما هي سـنة الحياة في مصر قتيلا أثناء عودته للديوان ليتسـارع ارتفاع الأسـعار بصورة دفعت مصر إلى الوقوع في المجاعة من جديد.

«لكـن أين كان الناس في مصـر وكل هذه الأزمات الطاحنة تحدث لهم؟». لحســن الحظ لم يفت على باحثنا المتميز أن يسـعى لإجابتك عـن هذا السـؤال عندما سـعى لرصـد موقـف الجماهيـر المصرية من المجاعات والأزمات الغذائية الناتجة عن سوء الإدارة وانتشار الفساد، والملاحظـة الأولـى المثيـرة للتأمـل أنـه يكـذب ما يقال عـادة عن أن المصرييـن لا يثورون أبدا على حكامهم مهما فعلوا فيهم، فتاريخ تلك الفتـرة يـروي لنا وقائع أربع هبَّات شـعبية متتالية فـي الفترة من ١٦٧٨ إلـى ١٧٠٣، خرج المصريون فيها للاحتجاج علـى الغلا والكوا، ولم تكن احتجاجاتهم مجرد مظاهرات سـلمية أو جعجعة على الفاضي فقد وصلت هبَّاتهم إلى تحت رجلَي الحاكم؛ أي إلى أسـفل سـور القلعة، حيـث قامـوا بنهب وحرق مخـازن وحوانيـت تجار الحبـوب في حي الرميلة أسفل القلعة. في الهبَّة الأولى أرسل عبدالرحمن باشا عددا من الجنود لقمعهم فسقط ١٣ قتيلا فقط، وفي عام ١٦٨٧ نهب المتظاهرون جميـع الغلال ولـم ينجح أحد في قمعهم، أما في عام ١٦٩٥ فقد صعد الأهالي إلى ديوان القلعة وصاحوا جميعا: «يا مولانا الوزير نحن جياع من شـدة الغلاء»، وحين أصم الباشا أذنيه وكذا ممثلو الديوان والنخبة العسـكرية الذيـن كانوا فـي اجتماع معـه، اندفع الثائرون نحـو الديوان وأخذوا يقذفونهم بالحجارة، فأمر الباشا بخروج العسكر لقمعهم، غير أن المتظاهرين تحركوا سـريعا إلى الرميلة ونهبوا مخازن الحبوب بها، كمـا نهبوا وكالة التفاح وحاصل كتخدا الباشـا والذي كان مليئا بالفول والشـعير، وأصدر الوزير عبثا بإشـهار النداء في جميع الأحياء بأن يرد النـاس ما أخذوه - طبعا اتَّاكل فـورا - أما في هبَّة ١٧٠٣ فقد أبدى قرا

محمد باشا استجابة لمطالب الحركة الجماهيرية بعد أن فوجئ بتدهور الأوضاع سريعا، وهو ما دفعه إلى إلزام الأمراء والأغوات والعلماء والتجار وأرباب السجاجيد إلى عقد الجمعية لإيجاد حل، وبالفعل عولجت الأزمة على يد الوزير علي أغا، وتجاوز المجتمع أزمته.

بعد أن يلاحظ الدكتور ناصر إبراهيم وهو يدرس نتائج هذه الهبَّات وفشلها في إحراز نتائج ذات جدوى في الضغط على الإدارة لكي تعالج أزمات المجتمع، يقوم بجهد علمي مذهل لدراسة الفئات الاجتماعية التي شاركت في صنع هذه الهبَّات ويقوم بتقدير مدى ثقلها الاقتصادي والاجتماعي، فيكتشف أن من قام بهذه الهبَّات هم العامة وأُجراء الطوائف وأصحاب المهن المتجولة والتي ليست لها دخل ثابت مثل السائقين وسائقي الحمير والكناسين ومُنظفي آبار المراحيض والعتَّالين والشحاذين والذين كانوا يمثلون أفقر فئات المجتمع الحضري، وهو ما جعلهم يتأثرون مباشرة بنوبات الغلاء والمجاعة، ومن ثَمَّ كان لديهم أكثر من غيرهم استعداد للعنف والشغب والتمرد عندما تصير ظروفهم غير محتملة. ومع أن الفلاحين لم يكونوا أقل تأثرا من هؤلاء بالأزمات إلا أنهم لم يساهموا بدور واضح وفعال في هذه الهبَّات برغم أنهم أكبر طبقات المجتمع، ويفسر الباحث ذلك بانخفاض درجة استعداد الفلاحين للقتال بعد استهلاك طاقتهم في النزاعات المحلية بين القرى على مياه الري، فضلا عن نجاح الإدارة في تثبيت سلطة الإدارة في نفوس الفلاحين باستخدام قوة ردع عسكرية جاهزة لإخماد أي حركة عصيان، هنا يستشهد

الباحث بقصيدة «هز القحوف» الشهيرة للشاعر الفلاح أبو شادوف، والتي صارت وثيقة تاريخية مهمة لدراسة تلك الفترة، حيث يقول فيها أبو شادوف واصفا حاله عندما ينزل جباة الضرائب مصحوبين بقوات عسكرية مخيفة: «ومن نزلة الكشاف شابت عوارضي.. وصار لقلبي لوعة ورجيف.. ويوم يجي الديوان تبطل مفاصلي.. وأهر على روحي من التخويف.. وأهرب حدا النسوان وألتف بالعبا.. ويبقى ضراطي شبه طبل عنيف.. ويوم تجيء العونة على الناس في البلد.. تخبيني في الفرن أم وطيف»، بالطبع لم يفرق فعل أبو شادوف كثيرا عن كثير منا، باستثناء مسألة الضراط طبعا فهي تتوقف على كل واحد وأكلته.

ومع أن تاريخ الفترة يرصد قيام هبَّات فلاحية كان يتم فيها قتل جباة الضرائب والمغارم، لكن ذلك قلما كان يتم بشكل جماهيري، مثلما حدث في أزمة ١٦٤٣ عندما قام أهالي ناحية منية أبي عبد الله بالتعدي على أمين الرسائل وجماعة العسكر المرافقة له فأصابوهم بجروح بالغة، وهو ما يعد حدثا فريدا في التاريخ يفسره الباحث بقوله: « من الواضح أن طول المعاناة التي عاشها هؤلاء على مدى سبعة أشهر من الطاعون والقحط هي التي دفعت بهم للتعبير عن موقف الرفض في صورة عنيفة وسريعة، وإن كان مثل ذلك لم يتكرر في شكل ظاهرة مما يجعله مجرد استثناء، بدليل أن الفلاحين في أشد أزمة مجاعة في ١٦٩٥ لم تذكر المصادر ما يفيد مشاركتهم مع العناصر الفعالة في أحداث الشعب على الرغم من توافدهم من الأرياف إلى القاهرة في أعداد ضخمة وكبيرة».

طيب الفلاحين وفهمنا موقفهم، لكن ماذا عن المثقفين والنخبة؟! يقول الدكتور ناصر في كلمات شديدة الخطورة: «أما جماعة المتصوفين والعلماء - مثقفي ذلك الزمان - فقد قاموا بدور بالغ الأهمية في تطبيع حياة المجتمع بطابع الاتكالية والاستسلام، واعتبار المجاعات والأوبئة اختيارا من الله أو نتاجا لسوء أفعالهم، ولذلك كانت الدولة تلجأ إلى المتصوفة إبان هذه الأزمات، ليهدئوا من روع الأهالي وإقناعهم بأن زوالها لا يتأتى إلا بالأدعية والأوراد والصلوات... وكان شيوع أفكار القضاء والقدر وضرورة إطاعة ولي الأمر قد دفع الدولة إلى تبني أفكار الصوفية والعلماء، وإغداق الأموال عليهم والأوقاف وتثبيت المشايخ والعلماء في نظارتها، ومن ثَمَّ كان الصعب على هؤلاء أن يكونوا قيادة حقيقية للحركات الجماهيرية في ذلك الوقت». إنها سياسة «إطعم الفم تستحي العين»، تطبقها الدولة المصرية جيلا بعد جيل بكسر عين المثقفين والعلماء وأساتذة الجامعات، لمعرفتها أن هؤلاء هم الذين يمكن أن يحركوا الشارع بشكل يسفر عن نتائج حقيقية، وبحيث لا يمكن وصف انتفاضة العوام بأنها انتفاضة حرامية. ويرصد الباحث أنه حتى عندما شارك العلماء والنخبة في أحداث ١٧٠٣ فإن الأهالي هم الذين توجهوا إلى الجامع الأزهر وألزموا العلماء بالمضي معهم إلى القلعة، مما يؤكد أن دورهم كضباط اتصال بين الأهالي الثائرين والإدارة لم يكن يعني تمثيلهم للأهالي أبدا، وبالتالي يعتبر الباحث أن سيطرة الدولة على هؤلاء من خلال تأمين دخولهم ورواتبهم هو الذي كان يفقد حركات العوام فاعلية التأثير دائما، خاصة مع انعدام التكافؤ بين

حركاتهم والقوة العسكرية المناهضة لها، ويسجل الباحث هنا في ربط ذكي حرص الإدارة منذ مطلع الحكم العثماني على السيطرة على مصادر تسليح الأهالي، حتى إن بنود قانون نامة ١٥٢٥ ينص على أنه «لا ينبغي أن تقوم بالصعيد صناعة للذخيرة أصلا، وإذا علمنا أن أحدا يقوم بصنعها في الخفاء أمرنا بمعاقبة من أمر بصنعها ومن يقوم بصناعتها»، وهو ما يفسر اتجاه الأهالي في جميع الهبَّات الشعبية إلى استخدام الأحجار والمزاريق والنبابيت في مقاومتهم للسلطات، مما كان يسهل سرعة فضها.

يقول الباحث الألمعي هنا منهيا دراسته لموقف الجماهير المصرية من الأزمات الاجتماعية الطاحنة التي تعرضت لها بقوله: «وحيث كانت المواجهة المباشرة في الغالب دموية ولا تحقق النتائج المرجوة، كان الأهالي يؤثرون العودة إلى طريقتهم المعتادة في النيل من ممثلي السلطة بأسلوب الرمز أو السخرية كنوع من التمرد البديل»، من أهم مظاهر ذلك إطلاق المسميات الساخرة والمزرية للتهكم على ممثلي السلطة، من ذلك إطلاق المصريين على الوزير الظالم أيوب باشا اسم «خيوب باشا»؛ لأنه هدم كافة إصلاحات سلفه مقصود باشا، والتي أثبتت فاعلية كبيرة في احتواء آثار مجاعة وطاعون عامَي ٤٢ و١٦٤٣ ومما يبرز توفر الوعي الكامل لدى المصريين أنه لم يثنهم ذلك الرخاء الذي عهدوه في ولاية أيوب باشا من أن يحقروا سياسته وشخصه، لإدراكهم أن ما تحقق وقتها كان بسبب عودة انتظام وفاء النيل، «ومن هذا القبيل كان إطلاقهم «المجنون» على حسين باشا الدالي، و«زلعة السم» على محمد باشا، و«الشيطان» على إبراهيم باشا - ماذا يقول

المصريون الآن ياترى؟ - كما لم يَسلم الأمراء والأغوات العسكريون من ألقاب هزلية مثل «ابن المكسح - جلب القرد - بارم ديلو -- ابن قرا جهنم - الجزار - ظالم علي»، وغيرها من الألقاب التي كانوا يُنفسون بها عما يلاقونه من شتى المظالم غير المحتملة خلال سنوات الأزمات. وعلى النقيض من ذلك كان الأهالي ينعتون كل من يواصل عطاءه وإحساناته عليهم أو يذود عنهم بألقاب شرفية، فعلى سبيل المثال يذكر المؤرخ الملواني أن المصريين اتخذوا من قدوم مقصود باشا تأريخا للأحداث تحت مسمى «مقصود بخير»، وعندما عزل العسكر الوالي الصالح إسماعيل باشا عام ١٦٩٧ خرج الأهالي في شبه مظاهرة احتجاج يدعون له أثناء خروجه من مصر بقولهم: «الله تبارك وتعالى يكفيك غدر السلطان وكر الشيطان ويحرم من حرمنا منك»، لأنه كان رفيقا بهم طيلة شهور المجاعة والطاعون، كما أطلقوا على الأمير رضوان بيك لقب «ملجأ الفقراء والعاجزين ومرجع الضعفاء والمعدمين»، وعلى إبراهيم بيك أبو شنبك لقب «أبو الفقرا» لعلاقته الطيبة بالشحاتين والفقراء، حيث كان يعرفهم شخصيا ويتذكر جيدا كم أعطى لكل منهم، وقبيل وقوع مجاعة ١٦٩٤ يخرج الأهالي لاستقباله حيث كان غائبا عن مصر في مهمة عسكرية استغرقت عاما، وقد صاحوا جميعا: «يا أبا الفقراء ما أحد افتكرنا وإنت غايب أبدا»، أما كوجك محمد الذي دفع حياته ثمنا لانحيازه للمصريين فقد أُلفت بعد اغتياله روايات شعبية تناقلها الناس في منتدياتهم وورَّثوها لأولادهم.

هل فهمت الآن بعد كل هذه الوقائع التاريخية المثيرة التي رصدها الباحث ناصر إبراهيم في كتابه «الأزمات الاجتماعية في

مصـر» لماذا لم تتغير مصر على مـر العصور؟ وهل أدركت لماذا لم تنجـح هبَّات الفقراء إن قامت في تغييـر الواقع؟ ولماذا يفضل فقراء المصريين السكون والسخرية على الثورة والتغيير؟ وهل عرفت الآن أننا نكذب كثيرا عندما نتهم التاريخ بأنه يعيد نفسه؟ لأننا نحن الذين في حقيقة الأمر نعيده بمزاجنا. ثم نسـأل: «متى تتغير أحوالنا؟»، مع أننـا جميعا نحفظ تلك الآيـة التي يكمن فيها مفتاح خلاصنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[الرعد: ١١]. ولأننا نحفظها فقـط دون أن نعمـل بها تظل حياتنا على مـر العصور رهنا لـ«خيوب باشا» والجزار وابن المكسح.

صحيفة الدستور - ٢٠٠٦

على حطة يد الجبرتي

إذا لـم يكـن فـي الناس مـن يصدع بالحـق ويأمـر بالمعروف وينهـى عن المنكر ويقيم الهدى فسـد نظام العالـم وتنافرت القلوب، ومتى تنافرت القلوب نزل البلاء، ومن المعلوم المقرر أن صلاح الأمة بالعلماء والملوك، وصلاح الملوك تابع لصلاح العلماء، وفساد اللازم بفساد الملزوم، فما بالك بفقده؟! والرحى لا تدور بدون قطبها».

عندمـا كتب مؤرخنا العظيـم عبدالرحمن الجبرتـي هذه الكلمات الصادقة الموجعة الملخصة والمخلصة قبل عشـرات السنين، لم يكن يظن ولو في أسـوأ كوابيسـه أن الجامع الأزهر سيكون على رأسه يوما ما شـيخ يضع مكانته الجليلة في خدمة السلطان لدرجة لم نعد نستبعد فيهـا أن يفتينـا قريبـا أن التوريث سـنة مؤكـدة. ولـم يكن لحسـن حظه قد شـاهد برامـج الإفتاء التي تفتي في كل شـيء تحـت الخصر طالما لا يؤذي سيد القصر، ولـم يكن قد رأى بأم عينيه حَمَلة كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وهم يتسابقون على نيل شرف التصفيق للسيد الرئيـس في احتفال المولـد النبوي، دون أن يكلف أحدهم خاطره بأن

يعمل بميثاق العلماء الذي أخذه عليهم الله لَيبيننه للناس ولا يكتمونه، فيُسمع حاكم البلاد ما فتح الله عليه من آلام الناس وأوجاعهم.

عندما كتب الجبرتي كلماته هذه في الجزء الأول من تاريخه كان يصف فجيعة المصريين بموت مفتي الديار المصرية الشيخ الحناوي، معتبرا أن حال العلماء في عصره من أبرز «مظاهر نزول البلاء واختلال أحوال الديار المصرية»، فماذا نقول نحن الآن عن بلائنا النازل وأحوالنا التي في النازل؟ المؤسف أننا مهما قلنا فلن نقول أكثر مما قاله الجبرتي نفسه في الجزء الثالث من تاريخه عن فقهاء السلطان والبيزنس الذين «افتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء الألوف الأقدمين، واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان، وأجْروا الحبس والتعذير والضرب بالفلقة والكرابيج...وصارت لهم استعجالات وتحذيرات وإنذارات عن تأخر المطلوب مع عدم سماع شكاوى الفلاحين... وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميري والفايض والمضاف والرماية والمرافعات والتنجي مع الأقباط واستدعاء عظمائهم في جمعياتهم وولائمهم والاعتناء بشأنهم والتفاخر بترددهم عليهم، والمهاداة فيما بينهم... إلى غير ذلك». أقفل قوس التنصيص لأفتح قوسا مفترضا أؤكد فيه على أهمية ألا نُخرج كلام الجبرتي عن سياق العصر الذي كان يكتب فيه، ولا أن تفصله عن تبرم الجبرتي وغيره من اتصال عدد قليل جدا من الأقباط بالفرنسيين.. لكنني لا يمكن أن أجبرك على أن

تطرد من خيالك وأنت تقرؤه صور موائد الوحدة الوطنية التي لم ينتج عنها سوى زيادة أوزان من يحضرونها.

الآن، وهنا، وبعد كل هذه السنوات على رحيل الجبرتي، وعندما تدير النظر فيما حولك يبدو لك أن الدين حاضر في كل ما حولنا من فرط ما نتكلم عنه، لكنك لو أطلت النظر قليلا لوجدته غائبا عن كل ما حولنا، ربما لأننا لم نشهد عالِما قدوة على غرار الإمام الحسن البصري يقتدي به المحكوم عندما يرى جرأته في نصح الحاكم، يروي لنا التاريخ كيف مر يومًا على باب الأمير ابن هبيرة فوجد عددا من العلماء يقفون أمامه فقال لهم: «ما يجلسكم هنا؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء؟ أما والله ما مجالسهم بمجالس الأبرار، تفرقوا فرَّق الله بين أرواحكم وأجسادكم، قد شمرتم ثيابكم وجززتم شعوركم، فضحتم القراء فضحكم الله، أما والله لو زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم، لكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيما عندكم». ولم يكتف رحمه الله بمواجهة علماء السبوبة، بل واجه الحجاج بن يوسف بفظاعة بطشه مواجهةً ذل فيها الحجاج عندما سأله البصري: « كم بينك وبين آدم من أب؟»، فأجاب الحجاج: «كثير»، فسأله: «أين هم الآن؟»، فخشع الحجاج ولم يجرؤ على معاقبته.

من يسأل سؤالا كهذا اليوم؟ ومن يخشع؟

صحيفة الدستور - ٢٠٠٧

أخلاق المثقفين في الزمن الذي لم يكن جميلا

«وعايزيني أكسبها!»، تقولها لنفسك مترحما على القدير محمود المليجي وأنت تتابع تلك المعارك الصغيرة التي يشتعل أوارها كل يوم والثاني بيننا معشر الكُتاب والمثقفين، والتي لا يقع ضحية لها سوى القارئ الذي صدقنا ووثق بنا وظن أننا سنكون يدا واحدة في مواجهة الظلم والفساد وتوريث الأوطان، ثم ها هو يا ولداه يكتشف أن بأسنا بيننا شديد، وأن كُلًّا منا تماهى مع صورة الدكتاتور الذي يقاومه، فأخذ يصب اللعنات ويكيل الاتهامات يمينا وشمالا ويرمي الناس بالطوب وبيته من زجاج، دون أن يتفرغ لمحاسبة نفسه وتطويرها والاستماع إلى من ينقده، ودون أن يتحلى بفضيلة الاعتراف ولو لمرة بأنه بشر خطَّاء، والقارئ يرى كل هذا فيحمد الله وينبغي أن نشاركه في الحمد والشكر أن أيا منا لم يصل إلى السلطة أبدا وإلا لكان قد بدأ يومه الأول بإعدام كل منافسيه والمختلفين معه.

ذاك ورب الكعبة مرض عضال متجذر فينا من قديم، وإلا لما كنت تجد عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين وهو يكتب في الجزء

الثالث من «حديث الأربعاء» عن أخلاق المثقفين ومعاركهم الصغيرة هذه السطور المذهلة التي أنقلها لك بتصرف:

...انظر إليهم حين يعرض لهم ناقد بما لا يحبون، وأكثرهم لا يحبون إلا الثناء، انظر إليهم كيف يستقبلون هذا النقد ضيقين به، ثائرين بصاحبه، ثم كيف تفسد له حياتهم فسادا، وتضطرب له أمورهم اضطرابا، فإذا هم يشغلون عن الإنتاج وعن تقويم المعوج من آثارهم بالدفاع عن أنفسهم، كأنهم هوجموا مهاجمة تعرضهم للخطر الذي ليس بعده خطر، وللموت الذي ليس بعده نشور... بعض هؤلاء سيطر عليهم الغرور فملأ قلوبهم وعقولهم، وصرفهم عن العناية بالفن والحرص على الإجادة والرغبة في الإتقان، وخُيِّل إليهم أنهم قد بلغوا الكمال أو تجاوزوا إلى ما هو فوق الكمال، هناك آمنوا بأنفسهم، واستيقن كل واحد منهم أنه نابغة، وأنه آية بين أترابه، وأنه مظلوم في هذا العصر الذي يعيش فيه، ويعجب الناس به لكنهم لا يوفونه حقه من الإعجاب، ويؤمن الناس له ولكنهم لا يوفونه نصيبه من الإيمان، ثم أخذوا يبحثون عما يحول بينهم وبين ما يرون أنه أهل له من الإكبار والإعجاب، فلم يتهموا أنفسهم بضعف، ولم يظنوا بأنفسهم قصورا أو تقصيرا، لأنهم فوق الضعف وفوق القصور والتقصير عند أنفسهم على أقل تقدير، ولم يشكّوا في أن الناس يقرءونهم، وكيف يستطيع الناس ألا يقرءوهم وهم ينزلون عليهم الآيات إذا أصبحوا وإذا أمسوا؟ ولم يشكّوا في أن الناس يرضون عنهم، وهل وصل الناس من الجحود والغفلة إلى حيث لا يرضون عن هذا البيان المعجز، والسحر الذي ليس إلى تقليده من سبيل.

أكتب هـذا وقد وصلت إليَّ الأنباء بأن جماعـات كُتابنا المحدثين ثائـرة فائرة، وهائجـة مائجة، وقاعدة قائمة في هذه الأسـابيع منذ أخذ بعضهـم ينقـد بعضا... فتـرى كيف يفسـد ما بين الأصدقـاء؟! وكيف يستحيل الحـب إلى بُغـض، والود إلى عـداء؟! أأخلاق أدبـاء هذه أم أخلاق صبيانٍ يحتاجون إلى التربية والتنشـئة؟ إنني أكره لهم أن يطغى الغـرور علـى نفوسـهم فيفقدها ما يقـوم النفـس الكريمة مـن اعتدال المزاج وصفاء الطبع، واسـتقامة الخلق، والتواضع الذي لا سبيل إلى الكمال من دونه.

وأكثـر من هذا كلـه أن يعظم التنافس بينهـم، وأن ينكر بعضهم بعضا ويزدري بعضهم بعضا، ويبلغ بهذا أنك تنقد اثنين منهم في فصل واحـد، فإذا بأحدهما سـاخط عليك ضيق بك، يقطـع ما بينك وما بينه مـن صلـة، لا لأنك ظلمته.. بل لأنك قرنته إلـى صاحبه، وما ينبغي أن يكون له شـريك.. هذه أخلاق لا ينبغي أن تكون للشـبان فضلا عن أن تكون للذين يرون أنهم نابهون وأنهم قادة الرأي...أيها السادة إن كنتم متواضعيـن فقوِّموا ما يظهر لكم مـن عَوَج، وأصلحوا ما يظهر لكم من فسـاد، فإن كنتم مغرورين فاسـتمتعوا بغروركم وانظروا إلى أنفسـكم في المرآة ثم امتلئوا بها عجبًا وتيهًا، ولكن لا تَعدوا هذا ولا تتجاوزوه إلـى أخذ الناس بما تحبون أنتم ولا يحبون هم، فذلك ليس لكم، ولن يُقِرَّكم أحد على أن تطلبوه وتطمعوا فيه».

ولعلك إذا تذكرت أن هذا الكلام قد قيل قبل سبعين عاما فستدرك لماذا لم «نكسبها» حتى عندما كان على رأس فريقنا طه حسين!

صحيفة المصري اليوم - ٢٠٠٩

صندوق شيخ الإسلام

عشـت عددا لا بأس به من السـنين أحلم برؤية فضيلة شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي ثائرا جريئا مقتحما عنيفا لا يخشى في الله لومة لائم ويقول للأعور يا أعور في عينه، كتبت كثيرا عن تلك الأحلام التـي شـاركني فيها ملايين المصريين، وعندما عشـت لأشـوف معهم تحقُّـق ما حلمنا به، وجدنا فضيلتـه ثائرا جريئا مقتحما وعنيفا.. ولكن بحق بنتٍ من دور حفيداته، مارس فضيلته عليها ما دأبنا عليه جميعا من اضطهاد للموصومات بالوحاشـة وقلة الحظ من الجمال، وهو أمر إذا كان طبيعيا على أمثالنا الذين تربوا في ظل مفاهيم مشوهة عن الجمال المسـتورد، فمن تمام المهزلة أن يشاركنا فيه رجل كان ينبغي أن نتعلم منه جميعا معنى الجمال الإنساني الحقيقي كما خلقه الله الجميل الذي يحب الجمال.

أشـارك فضيلة شـيخ الأزهر موقفـه الرافض للنقاب الـذي أعتبره ليـس فقط إسـاءة للإسـلام ولكن إسـاءة للإنسـانية نفسـها (مثله مثل العُـري الفاحـش الـذي يُحول المـرأة إلى دمية في سـوق النخاسـة)، ولـو كان فـي مصـر دولة تعرف ما تفعله لحسـمت مثل هـذه الملفات

مـن زمان، وأعلنت أن النقاب حرية شـخصية لمن أرادت ولكن بعيدا عـن المؤسسـات التعليمية والحكومية، فلا نحـن أفغان ولا خلايجة، حيـث النقاب هناك سِـلْو بلدهـم أيا كان رأينا فيه، نحـن في مصر التي لـم تكـن العفـة فيها أبـدا مرتبطة بالشـكل. لكننـي أتمنى وأنا أشـارك فضيلته في موقفه وأختلف معه في شكل التعبير عنه، ألا ينسى فضيلته دوره الشـخصي في انتشـار النقاب في مصر، فلـو كان الأزهر في عزه وعنفوانـه وتوهجـه لما وقـع غالبية المصريين تحت سـيطرة التفسـير الواطئ للإسـلام الـذي ينزع عـن الفضيلة كونها مفهومـا لتتحول إلى شـكل، ولَمَا زاد الحجـاب بينما نقصت العفة، ولـما كثرت المسـاجد بينما قل المصلون الذين تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر.

حاشـا لله أن أعظ شـيخ الأزهر، أنا فقط أريد أن أهديه قصة جميلة قرأتها في كتاب «مقهى الباب العالي» للكاتب التركي سرقان أوزبورن، وترجمها المترجم السـوري القديـر عبد القادر عبد اللي، وهي تحكي عن اسـتدعاء السـلطان العثماني سليمان القانوني لشـيخ الإسلام في عهده أبو السـعود أفندي قبل سـفر السلطان إلى حملته العسكرية على النمسـا، كان السـلطان السـبعيني مريضا ويشـعر أنها سـتكون حملته الأخيرة، وعندما مثل شـيخ الإسـلام في حضرته وضع السـلطان بيده صندوقا صغيرا، وقال له: عندما أموت ادفن هذا الصندوق معي.

مـا تبقى معلـوم لمتابعي التاريـخ العثماني: جيش مؤلـف من مائة ألـف جنـدي انطلق في طريق زيغاتفار، وهناك أسـلم السـلطان روحه لبارئهـا. بعد عـودة الجنود مـن الحملة، اجتمع العلمـاء وتحدثوا عن وصية السلطان أكثر مما تحدثوا عن موته، فحسب الشريعة الإسلامية

يحرم دفن شيء مع الشخص عندما يموت، والتصرف على غير هذا الوجه لا يمكن تسميته بغير الوثنية، وحاشا القانوني أن يكون وثنيا، دافع بعض علماء الحديث عن رغبة القانوني انطلاقا من الحديث النبوي: «يُحشر المرء مع من يحب»، وذكّر بعض الفقهاء أن حضرة السلطان شهيد، ويجب أن لا يعتبر الشهداء كالموتى، وبينما كان علماء التفسير يناقشون أن كلمة «ادفن» لم تكن أمرا بل وصية، ناقش علماء الكلام أن كلمة صندوق هنا لا تعني الصندوق بل التابوت، وفي تلك اللحظة دخل خادم مكلف بضيافة العلماء، فذكَّرهم بتساؤل نَسَوْه في غمرة المكلمة «ترى ماذا يوجد بالصندوق؟»، وبعد نقاش طويل حول حكم فتح الصندوق قرروا فتحه، ليجدوا فيه كومة من الأوراق اتضح بعد قراءتها أنها ليست سوى جميع الفتاوى التي أخذها السلطان من شيخ الإسلام حول كل ما فعله منذ جلوسه على العرش وحتى آخر يوم في حياته. في تلك اللحظة وقع شيخ الإسلام أبو السعود أفندي في حالة يأس شديد، وقرّب الصندوق منه، وبدأ ينظر في أوراقه ليجد بها فرمانات إعدام شيخ ملامي إسماعيل المعشوقي المعروف باسم الشيخ الولد، ومحيي الدين قرماني، وحمزة بالي، والفتاوى التي أصدرها حول جواز قتل اليزيديين، وفتواه بتحريم الجلوس على المقاهي، وخرجت من فمه هذه الكلمات: «آه يا سليمان، أنت أنقذت نفسك، حسنا، ماذا سنفعل نحن؟».

انتهت القصة، ولست أدري.. هل ينبغي أن نتعظ منها بالشيخ الذي أدرك بعد فوات الأوان جُرم تحويله الدين مطية للسلطان؟ أم بالسلطان الذي رحل وهو مهموم بهول السؤال يوم الحساب؟

صحيفة المصري اليوم - ٢٠٠٩

بيرم وأكذوبة الزمن الجميل

بعض الناس يزعلون عندما تهاجم أكذوبة الزمن الجميل ويتعاملون معك بعنف كأنك ذكرت أمهاتهم بسوء، لأن مجرد وجود وهم اسمه الزمن الجميل يريحهم نفسيا ويعطيهم مبررا لكي يستمروا في الندب والعويل دون أن يفعلوا شيئا لتغيير واقعهم القبيح، خاصة أن تكلفة اليأس أرخص بكثير من تكاليف الأمل. ولهؤلاء الواهمين أهدي هذه الأشعار من أعمال عمنا الأعظم بيرم التونسي، لعلها تدفعهم للتفكير في أنه لم يكن هناك أبدا في مصر ولا في غيرها زمن جميل، لأن سنة الله اقتضت أن يكون الزمن الجميل في علم الغيب لكي نحاول صنعه بأيدينا.

ابتداءً.. للذين يسألون عما جرى للمصريين من عنف، ولماذا لم يعودوا يتحملون بعضهم البعض يقول عمنا بيرم:

من هفوه أو كلمة هايفة نِتحِمِق ونقوم

نِسبّ ونِدِبّ ويدور العراك بالشوم

وكل محموق وله فرقه تقوم بهجوم

من قبل ما تعرف الظالم من المظلوم

ومنين نشوف العدل ولَّا السفينة تعوم

مادمنا فوق قلبها قاعدين لبعض خصوم

تضحك علينا الحدادي في السما والبوم

أمـا للذيـن يَلِتـون ويعجنون في حـال الصحافة ولماذا لـم يعد بها ما يبل الصدى ويشفي الغليل يقول بيرم.

اللتّ والعجن منهم قلبنا منشق

واللتّاتين دمهم من صنف دم البق

والطحن في ثانية يغني عن أسابيع دق

إحنا في عصر البخار مش في عصر الزق

ياما مقالات قراها اللي قراها وطقّ

وياما ناس من ثقالتهم تخش الشق

واللت والعجن آخرتهم ضياع الحق

وقال بيرم كأنه رأى للتو حملات يوسف بطرس غالي الإعلانية:

يسرني ويهنيني.. أدفع ضرايب على عيني

أدفع أُلوفي وملاييني.. لكن تعالوا حاسبوني

أكون سعيد وأكون شافع.. لو تتصرف على شيء نافع

مثلا مصانع ومدافع.. ولَّا على القصرالعيني

وأقطع لكم لحم أكتافي.. وأبيع هدومي ولحافي

ولا أشوفش جايع ولا حافي.. يغمني ويبكيني

ماهيش سياسة ولا عداله.. الأمة نُصّها شغّالة

ونُصّها التاني عاله.. يتبطّ ويقول رقّوني

وقال شيخنا بيرم كأنه جالس بين بسلامتهما الدكتور الجمل والدكتور الهلال رمزَي التعليم الوطني المبارك:

يقول الفتى المصري بتاع المدارس.. العايق الكابتن بتاع التيم

يامن يبادلني وياخد شهادتي.. بجلابيه ولا بالطو قديم

سوق الوظايف فين ياطاهره ياسيّده.. شبعت دوخه واكتفيت تلطيم

حافظ بروجرام الصياعه الموضب.. توضيب مهندس مستخبي لئيم

يطلَّع التلميذ بين البنت والولد.. لا هوّ صاحب صنعه ولا هوّ غشيم

ابعت لنا الفباريك إلهي من السما.. هي اللي تغني فقرنا يا كريم

وقال في هجاء شيوخ السلطان وقتها ما سيصيبك بالحسرة وأنت تقرأ:

إيه رأيكم ياسامعين.. في الشيخ كباب كفته الأمين؟

طالع يعرّ المسلمين.. أمال ياريته كان كفر

لازم تجيبوا المفتري.. حالا في مجلس عسكري

ياكلها لما يتهري.. وغيره راخر يعتبر

ألزم ما يعمل فيلسوف.. ويحط لي فروة خروف

وتحت منها جبّة صوف.. قال يعني عالم معتبر

ياخي اتلهي جاك البلا.. في دقنك المتدلدله

روح اترمي في مزبلة.. واكفي على الماجور خبر

يلعن أبوكم كلكم.. ويدوس فضيلة علمكم

كلاب ما يشبِع بطنكم.. غير الرشاوي يا غجر

لم يكن الحزب الوطني المبارك قد أحكم قبضته على البلاد والعباد عندما كتب شاعر الشعب المصري بيرم التونسي الأبيات التالية، فاقرأها واعجب ما تعجب، ثم سلِّم لي على الزمن الجميل الذي كان بيرم ينعاه في سطوره هذه، فأصبحنا ننعى نحن زمنه الجميل، كأن قدرنا دائما هو النعي والعزاء ولطم الخدود على الزمن الجميل الذي لن يعود، كأنه كان موجودا من أساسه:

إلا البلد ياولاد ما لها.. مقلوب حالها؟

في عز عصر استقلالها.. شبعت تشخير

كانت صلاة النبي أحسن.. من كده واتخن

والعمله ماشية عدل معدن.. ورغيفها كبير

أما البلاد الدون رِبحِت.. مصر اندبَحِت

غاية ما في التهويش صَبَحِت.. جرايدها كتير

يادي الغلا ياللي ورانا.. بالخرزانه

والمَقرَعه لما هرانا.. وبقينا حمير

يقول بيرم التونسي مخاطبا الذين لا يكفون عن الشكوى من انتشار الفساد بين العباد والإفراط في اللجوء إلى التقاضي على عكس أيام زمان الجميلة:

ياواد يافندي الديوان معفِّن.. من كتر ما بتحشي فيه وبتدفِن

حايضبطوك عن قريب مكفِّن.. بسرقتك والحنوط عليه

جيت إنت يادولة الموظف.. بدل ما تهتم أو تنضف

بديت لنا تختلس وتخطف.. من مال جناب أُمّك الماليه

الهف وشيل في الفلوس ياشاطر.. وشغّل اللحس في الدفاتر

دا كل راجل شجاع مخاطر.. والجُبن للطفل والوليه

في مصر أربع تلاف محامي.. أشوف عددهم أقول ياحامي

أتاري فيه مليونين حرامي.. وكل واحد عليه قضية

وقال رحمه الله في هجاء قلدس جرجس الذي طعن يومها في مقام النبي الكريم كأنه يكتب عن المدعو زكريا بطرس اليوم:

قلدس ياجرجس ياغبي.. كُلِّ القَبَط كَهل وصبي

يقولوا من سبّ النبي.. ينزل لسانه بالبلا

كل القبط متنوّره.. متخرَّجين من لندره

ليه إنت تخريج معصره.. قلدس يا جرجس جاك بلا

إنت صحيح راجل عويل.. يانطع ولسانك طويل

تشتم نسايبك يارذيل.. يقطع لسانك والغلا

وقال يخاطب منبوذي الهند لكي يعرفوا النعمة التي يعيشون فيها:

يامنبوذين الهند كفوا دموعكم.. دي مصر فيها المنبوذين ملايين

من منبوذين حافيين يلموا سبارس.. ومنبوذين ماسحين جِزَم دايرين

ومنبوذين شُبّان معاهم شهايد.. حُرُم عليهم يدخلوا الدواوين

ومنبوذين في البيت عشاهم فلافل.. في العيد وأيام السنة جايعين

ومنبوذين ضايعين ما يعرف خَبَرهم.. وَنَا اللي فيهم يِنسِمِع له أنين

يا غاندي يكفي الصوم تعالى بلادنا.. شوف اللي فيها من زمان صايمين

إنت لقيت الملح أمّا الكنانه.. الملح ميري واللي ينهب مين

ختاما قال عمنا بيرم كأنه ينطق بوجعي ووجعك وأملي وأملك في بكره:

«يامصري ليه تِرخي دراعك.. والكون ساعك.. ونيل جميل حلو بتاعك.. يِشفي اللهاليب.. خلق إلهك مقدونيا.. على سردينيا.. والكل زايطين في الدنيا.. ليه إنت كئيب.. وتقول له كرماء لضيوفنا..

لكن صوفنا.. ما يتنتفش إلا بكيفنا.. وبيد حبيب.. ما تحطّ نفسك في العالي.. وتنباع غالي.. وتتفّ لي ع اللي في بالي.. من غير ما تعيب».

ولعل في كل ما ارتشفناه من نهر بيرم التونسي الخالد، ما يجعلك تفكر بألف مرة قبل أن تترحم على الزمن الجميل، وتبدأ في العمل على صنع زمن جميل يخصك تحط فيه نفسك في العالي، وتنباع غالي بدلا من أن تكتفي بالتف على اللي في بالي، والذي هو للعجب نفس اللي كان في بال عمنا بيرم.. وإن تغير اسمه ورسمه.

صحيفة المصري اليوم - يناير ٢٠٠٨

فتنة الواعظ الرومي

لا تغُرنّك جعجة المتاجرين بشعارات الدين وإفسادهم في الديار، فأمثالهـم مروا على مصر كثيرا وذهبوا كغثاء السيل، لأنهم لم يكونوا سـوى ظاهرة صوتية لا علاقة لها بهموم النـاس وآلامهم، لذلك حتى وإن كَـدّر هـؤلاء صفـو الحاضر ونغّصـوه على الناس، فسـيظلون بلا مسـتقبل، لسـبب بسـيط هو أنهم ينتمون إلى الماضي، والإنسان دائما محكـوم بالأمـل الـذي يدفعه إلـى الحلم بمسـتقبل أفضـل حتى وإن استولت عليه الشعارات المنتمية إلى الماضي حينا من الوقت.

فـي الجـزء الأول من تاريخـه الأشـهر، يحكي المـؤرخ المصري العظيـم عبدالرحمن الجبرتي كثيرا عن أولئـك الذين يعلو نجمهم في الأيام التي يصفها بأنها «أيام فتن وحروب وشرور»، حيث يبدءون في اسـتقطاب المريدين باسـم الدين، ويبدءون في تشـكيل قوة هوجاء لا عقل لها، وسـرعان ما يغرهـم الحشد فيخطئون قراءة الواقع وينجرون إلى معارك غير محسـوبة تسـتعدي الجميع عليهم، وينتهي الأمر غالبا باختفائهـم من مسـرح الأحداث، من أبـرز الأمثلة علـى هؤلاء واعظ

ظهر في عام ١٧١١ بعد فترة قليلة من وقوع اضطرابات عنيفة شهدتها القاهرة بين عدد من الطوائف والعسكر، سرى بسببها الذعر في القاهرة وهجر الناس منازلهم، وفي هذا المناخ المحتقن بزغ نجم ذلك الواعظ الذي لا يذكر الجبرتي اسمه أبدا، يكتفي طيلة الوقت بوصفه بالواعظ الرومي، ربما لأنه استكثر عليه تخليد اسمه، مع أنه يروي بالتفصيل كيف بدأ ذيوع صيته في شهر رمضان في جامع المؤيد، عندما بدأ يجتذب جمهورا من الذين استهواهم انتقاده لتبرك أهل مصر بأضرحة الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل على قبورهم واصفا ذلك بأنه كفر يجب على ولاة الأمور إبطاله، ويبدو أن عدد مريديه غره فقرر أن يخرج إلى تجمعات المصريين على قبور الأولياء أمام باب زويلة لتغيير ما ينتقده بنفسه، يستخدم الجبرتي هنا تعبيرا تشعر أنه قادم من عصرنا نحن، فيقول إنه أصبح للواعظ الرومي حزب: «وخرج حزبه بعد صلاة التراويح ووقفوا بالنبابيت والأسلحة فهرب الذين يقفون بباب زويلة»، وبدأ أعضاء حزب الواعظ يقطعون الجوخ الذي تغطى به الأضرحة وهم يقولون للناس: أين الأولياء؟ وهنا لجأ بعض الناس إلى العلماء بالأزهر وأخبروهم بقول ذلك الواعظ، فأفتى لهم الشيخان أحمد النفراوي وأحمد الخليفي بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت، وأوصوا بأن يقوم الحاكم بقتل الواعظ الرومي، فأخذ هؤلاء الفتوى وأعطوها للواعظ وهو في مجلسه، فغضب وقال لمريديه إنه يريد أن يناظر هؤلاء الشيوخ مناظرة علنية بحضور قاضي العسكر، وألهب مشاعر الحاضرين لكي يساندوه في طلبه، فتجمع حوله ألف شخص مر بهم من وسط القاهرة في مظاهرة كانت حدثا جللا في

ذلـك الزمن، وعندما وصل بهم إلى بيـت القاضي ارتعب القاضي من المشـهد، فقدموا له الفتـوى وطلبوا منه إحضـار المفتين لمناظرتهما، فحـاول التهرب، طلبوا رأيه فـي الفتوى، فقال لهم تحت تأثير الخوف إنـه يراها باطلة، فطلبـوا أن يكتب لهم حجة ببطلانها، فلما تحجج بأن الشهود غير موجودين، انفعلوا عليه وضربوا ترجمانه، فهرب القاضي هو وأهل بيته، وقام نائبه بكتابة حجة لهم ببطلان الفتوى.

فـي اليوم العشـرين من رمضـان اجتمع الناس وقـت الظهر بجامع المؤيد لسـماع وعظ الرومي ففوجئوا بغيابه، وعلموا أن القاضي منعه مـن الوعـظ، فاحتشـدوا وذهبوا إلـى المحكمة للبحث عـن القاضي، ففـر مـن كان بها مـن الخوف ولم يبـق إلا القاضي الـذي أنكر معرفته بمكان الواعظ، فطلبوا منه أن يركب معهم إلى الديوان ليكلموا الباشـا فـي أمر الواعظ، ويطلبوا منه إحضار الشـيوخ الذين أفتوا بقتل الواعظ «فإن أثبتوا دعواهم نجوا من أيدينا وإلا قتلناهم، فركب القاضي معهم مكرها وتبعوه من خلفه وأمامه إلى أن طلعوا إلى الديوان، سـأل الباشا القاضي عن سـر حضوره في غير وقته، فحكى له أنه مكره، وحكى له مـا يريده أنصار الواعظ»، وجد الباشـا أن الاصطدام بهذه الجموع أمر غيـر مأمون فأمر بأن يتم السـماح للواعظ بالوعـظ ثانية، وعندما صعد الواعـظ إلى منبره أخذ يحرض أنصـاره على أن يجتمعوا غدا ويذهبوا إلـى القاضي لكي ينتصـروا للدين ويقمعوا الدجاليـن، ولـم يعرفوا أن الباشا في نفس اللحظة كان قد أرسل إلى كبار الأمراء «يعرفهم ما فعله العامة من سوء الأدب وإثارة الفتن وتحقيرنا، نحن والقاضي، ولذلك فقد عزمت أنا والقاضي على السـفر من البلد، فلما عرف الأمراء ذلك

لم يقر لهم قرار»، وأجمعوا رأيهم على التضامن لتخليص البلد من فتنة هذا الواعظ والمتعصبين له أيا كان الثمن؛ لأنه خرج عن حدود الوعظ المقبولة وبدأ يصبح صاحب سلطة يلتف حولها الناس، وفي حين كان الناس يظنون أن هذا الصدام سيكون داميا بسبب قوة أنصار ذلك الواعظ، إلا أن الجبرتي كما روى نشوء ظاهرة هذا الواعظ في صفحتين فقد روى صدامه مع السلطة في كلمات قليلة حكى فيها عن تضارب الأنباء حول مصير الواعظ الذي اختفى فجأة وقيل إنه باع أنصاره وفر من البلاد، ثم قال كلمتين لا ثالث لهما: «وسكنت الفتنة»، مما يوحي أن الآلاف الذين تحلقوا حول الواعظ الرومي انفضوا عنه عندما حانت ساعة الجد، لأنه لم يكن يطرح مشروعا لإصلاح أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية، بل كان يقود الناس إلى معركة شعاراتية لا تخص مصالحهم، وهي معركة قد تكون مغرية بالفرجة والتعاطف والمؤازرة، بل والتظاهر، لكنها لن تكون أبدا مغرية بالموت من أجلها.

لذلك صدقني، كثير من هؤلاء الذين يملئون الدنيا الآن ضجيجا وصخبا ظنا منهم أنهم يمكن أن يسيطروا على الواقع بالشعارات الدينية التي يرفعونها، لن تذكرهم كتب التاريخ إلا بما يدعو للسخرية والاحتقار، وربما وجد كثير منهم «جبرتي» لزماننا يروي للأجيال القادمة وقائع مثيرة للسخرية عن فتنة الواعظ الأهطل.

صحيفة الشروق - مارس ٢٠١٣

دوامات النسيان

«يا مثبت العقل يارب»، تهتف هكذا من قلبك عندما ترى إخوانجيا يتصور أن طريقه للهروب من تحمل مسئولية كذب رئيسه وفشل جماعته لن يكون إلا بنبش قبر جمال عبد الناصر وكَيل الاتهامات له، وتهتف بها أيضا عندما تجد ثائرا شابا يتصور أن الرد المفحم على ذلك الإخواني يجب أن يكون بعبارات من نوعية: «هنرجعكو السجون زي عبد الناصر هو اللي عرف يشكُمكم ويلبِّسكو الطُّرَح»، كأن مشكلة ذلك الثائر ليست مع الظلم في كافة أشكاله، بل مع الظلم أبو دقن بس.

صدق أو لا تصدق، لن يحل مشاكل الإخوان التي أوقعوا أنفسهم فيها قيامهم بلعن سنسفيل عهد عبد الناصر ليل نهار، ولن يحل مشاكل معارضيهم أن ينسوا أن تلبيس عبد الناصر الطُّرح للإسلاميين حوّلهم إلى شهداء ومظاليم وقام بتعطيل اكتشاف المصريين لحقيقة شعاراتهم ستين عاما، لم نحقق فيها بالمناسبة الكثير، نعم حلمنا فيها بالكثير، وكانت أحلامنا نبيلة ورائعة، لكننا من أجل تحقيقها دهسنا أثمن قيمة إنسانية، هي قيمة الحرية، فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولم يذهب ضحية هذا الدهس الإخوان وحدهم، بل ذهب ضحية له كثيرون من

النبلاء والعقلاء والشرفاء الذين دخلوا السجون، ليعربد خارجها أهل الثقة والموالسة ولحس الأعتاب وتمام يافندم.

لكي لا تسلم نفسك لدوامات النسيان فتجرفك بعيدا عن الحقيقة، أدعوك لقراءة شهادة الكاتب اليساري الكبير الراحل أحمد عباس صالح التي كتبها في مذكراته الرائعة «عمر في العاصفة»، والتي صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، وفي أحد فصولها يحكي عن ضابط من الصف الثاني من ضباط يوليو اسمه اليوزباشي محمد أبو نار، كان ميالا إلى معاشرة الكُتاب والمثقفين، وقد عرَّفه عباس صالح على أصدقائه المقربين يوسف إدريس ومحمد عودة وكامل زهيري ونعمان عاشور، وهي معرفة نفعتهم جميعا فيما بعد دون أن يدروا ولا يحتسبوا، «ففي سنة ١٩٥٩ خاصم عبد الناصر الاتحاد السوفيتي، فقرر اعتقال جميع الشيوعيين، بل اليساريين بشكل عام، وكانت وزارة الداخلية بناء على أمر من عبد الناصر تُعِدُّ كشوف الاعتقال، ذات يوم زار أبو نار صديقه عباس رضوان وزير الداخلية في مكتبه، فوجد كشوف المعتقلين أمامه فقرأها ليجد بها أسماء أصدقائه وعلى رأسهم عباس صالح الذي كان العائل الوحيد لأسرته الكبيرة، فرجا الوزير أن يشطب أسماءهم قائلا: «إنهم أصدقائي الحميمون، وسوف يكون موقفي محرجا لو تم القبض عليهم»، قال الوزير بعد تردد إنه سيفعل تقديرا له، لكنه يحذره بأن من عادة عبد الناصر أن يقرأ الكشوف بنفسه ليشطب اسما أو يضيف اسما، وبالتالي إذا وجد عبد الناصر أسماء أصدقائه غير موجودة وأضافه فلن يكون بمقدوره فعل شيء، وبالفعل أعيدت كتابة الصفحة التي تحتوي على أسمائنا

وذهبت الكشوف ولم يتذكر عبد الناصر أي اسم منا، وهكذا نجونا من اعتقالات سنة ١٩٥٩».

يروي أحمد عباس صالح أنه لم يعرف بالقصة إلا بعد زمن طويل من حدوثها، ثم يحكي موقفا يراه مضحكا، لكني رأيته محزنا بشدة، حيث كان عند بدء الاعتقالات ظهرا على قهوة ريش مع أصدقائه عودة وزهيري وإدريس ونعمان عاشور، وأخذوا يسمعون أخبار الاعتقالات التي تتوالى، فتوقعوا أن يُعتقلوا وبدءوا يستعدون نفسيا لذلك، لكن الدكتور لويس عوض ظهر عليهم الثالثة عصرا ليطمئنهم أن الحملة انتهت، فهدءوا نفسيا وبعدها ذهب صالح إلى جريدته في المغرب فوجد الدكتور محمد مندور أمامه فأخبره عما قاله له لويس عوض عن نهاية الحملة، فضحك مندور وأخبره أنهم قبضوا على لويس عوض قبل قليل، «ثم وجدت مندور يقول ضاحكا بمكره الريفي الظريف: ذهبت إلى المشير عامر وقلت له إني «سان سيموني» ولا علاقة لي بالفكر الشيوعي، فأمنه المشير ووعده بأنه لن يعتقل، استمعت إليه وأنا شديد القلق سارحا في هذه الحجة العجيبة عن سان سيمون، وهل بالفعل يعرف المشير عامر ما هو مذهب سان سيمون. وانتهت الحملة بالفعل دون أن نعتقل، ولم نعرف ما هي الأسباب، وخرج لويس عوض بعد عام ونصف بينما ظل بقية المعتقلين لخمس سنوات في السجن دون أن يعرف أحد لماذا خرج ولماذا بقوا»، تماما كما لم يعرف أحد لماذا لم يعتقل صالح ورفاقه الذين نجوا بفضل صدفة تدخل «محمد أبو نار»، وهو ما جلب لبعضهم - كيوسف إدريس - اتهامات بالخيانة من بعض رفاقه ظلت تضايقه لسنين.

يقـول أحمد عباس صالح معلقا على هـذه القصة المؤلمة: «هكذا كانت الحياة السياسية في مصر بكل بساطة، لم تكن هناك جريمة معينة أو موقف سياسـي خطير معادٍ يسعى أو يقدر على قلب السلطة، وكان اعتقال الناس رسالة رمزية لا أكثر ولا أقل في بعض الأحيان، ولكونك يسـاريا بشـكل ما، كان عليك أن تحذر الفصل من العمل أو الاعتقال حسـب الأحـوال المزاجية أحيانـا، ويبدو أن عمليـة الاعتقال لم تكن شيئا مقلقا بالنسبة لمُصدِر القرار، وأذكر أن الرئيس عبد الناصر قال في إحدى خطبه مهددا إنه ألقى في السجن عشرات الألوف من معارضيه، وإنه على استعداد ليزيدهم عددا، وكما رأينا كان اعتقال الشيوعيين في سـنة ١٩٥٩ ردا على موقف لم يقبله من السـوفييت، وكأن المصريين الذيـن اعتقلهـم ليسـوا مصرييـن، بل أتباع السـوفييت، ولـم يكن هذا صحيحا في الواقع، وحدث نفس الشيء بالنسبة للإخوان المسلمين».

هـذا ولا يبقـى إلا أن يختم المـرء كلامه اليوم بدعـوة ربه كما بدأ: اللهم إنا نتقرب إليك برفض الظلم، سواء كان ملتحيا أو حليق الذقن، اللهـم ألهم أبنـاء وطننا التعلق بالمسـتقبل واقذف فـي قلوبهم كراهية التعلـق بالماضـي، اللهـم وقـد أردت أن تدخلنا في تجربـة، فنرجوك يا مولانا أن تنجينا من الشرير.. ومن ضعاف الذاكرة.

صحيفة الشروق - إبريل ٢٠١٣

حديث الساعة

«كل شيء في مصر يعود إلى الوراء، وكل مصري يضرب كفا بكف عندما يسمع ما يروى وما يقال، وواجب الوزراء أن ينتبهوا إلى ما هناك ليعلموا أن مصر كلها جالسة فوق بركان، ويفهموا أن تحت الرماد نارا، وأن مدرسة السخط أصبح لها تلاميذ في كل مكان، وياويلنا يوم يتخرج هؤلاء التلاميذ.

كل من تقابله في الطريق يستوقفك ليسألك: ما هو الحل؟ كيف النجاة مما ينتظرنا؟ كيف الخلاص مما نحن فيه؟ متى يستيقظ الغافلون؟ متى يجدّ اللاهون؟ إننا لا نريد أن نيئس اليائسين، فإننا نرى دائما شعاعا باسما من النور في الظلام الكئيب، ولكننا نعترف بأن الحال في مصر لا يفيده تغيير رئيس وزارة أو تغيير وزارة أو تغيير برلمان، لا إن المسألة تتعلق بطريقة الحكم، ومبادئ الحكم، لا بأسماء الحكام.

نحن لا نرضى أن نبدل ساسة وإنما نريد تبديل سياسة، نحن نفضل أن يحكمنا خصومنا حكما نزيها دستوريا، على أن يحكمنا أصدقاؤنا

حكما فاسدا طاغيا، والذي نريده اليوم عهد جديد، عهد يشعر فيه الشعب بأنه راض عن حكامه، مُقِر لتصرفاتهم الخاصة وتصرفاتهم العامة. إننا لا نشارك المتشائمين في أنه لا أمل في إصلاح الفاسدين، وإنما نرى أننا اليوم على مفترق الطرق، وأن واجب حكامنا أن يصلحوا أنفسهم ليستطيعوا إصلاح بلادنا. هذا هو الحل الوحيد، بل الحل الأخير.

إن الدنيا تغيرت، وشعوب ألف ليلة وليلة ليست شعوب هذا الزمان، إن الشعب اليوم يحس كل شيء ويعرف كل شيء. وصحيح أن هناك مبالغات، وأن هناك أكاذيب يصدقها الناس كالحقائق، ولكن الوعي الشعبي أصبح دقيقا كجهاز الرادار، يستطيع أن يسجل عن بعد ما لا تستطيع تسجيله مطابع الصحف. وواجب الحكام أن ينزلوا إلى الشارع ليسمعوا ما يقوله الشعب، فإن من الخطر أن يصبر الحكام حتى تتحول الهمسات إلى صيحات، ويخطئ الساسة الذين يفكرون بعقليات قديمة متعفنة عندما يتصورون أن كل شيء مقبول في مصر، وأننا شعب يخاف ولا يختشي. إن مصر الآن تغيرت كثيرا عما كانت عليه، والذي يسير في قراها وفي مصانعها وفي أكواخها يسمع ما لم يكن يسمعه إلا في نادي محمد علي أو نادي السيارات. فلننظر إلى الشعب كأنه رقيب متيقظ، لا كأنه كم مهمل، ولنعلم أن الشعب قد يغلق عينيه، ولكنه لا ينام.

إن الشعب يبحث عن قائد، يقوده من الهزيمة إلى النصر، ومن اليأس إلى الأمل، ومن العدم إلى الحياة، قائد يرفع الشعب ولا يرتفع على رأسه.. الشعب يبحث عن قائد يمتلئ صدره بالإيمان

لا بالنياشين، يحاول أن يرفع الشعب، ولا يغتني على حساب الشعب، قائد يعلم أن قيادة الشعوب ليست مغنما إلا للصوص، وليست عضوية في إدارة شـركة تـدر الذهب على المديرين والرؤسـاء، الشـعب يريد قائـدا لا يثري ويزداد الشـعب فقـرا، ولا يلعب القمار، والشـعب يريد كل وقته للعمل، ولا يعتبر مصر ضيعة يسـتغلها أو بقرة حلوبا يستنزف لبنها، الشـعب يريد قائـدا يعتبـر المصريين جميعا أنسـباءه وأصهاره، ويعتبـر خزائـن الدولة حرامـا عليه وعلى من يلوذ بـه، نريد رجلا يبني للفقـراء بيوتا، لا أن يبني لنفسـه قصورا، نريـد أن يهتم بمضاعفة دخل العمـال والفلاحيـن، لا أن يضاعـف دخلـه الشـخصي على حسـاب العمـال والفلاحيـن، الشـعب يريـد قائدا لـه إرادة، لا رجلا مسـلوب الإرادة يُسـيره من حولـه، يريد رجلا قويا لا يضعـف للمال ولا يحني رأسه للسلطان، ولا يشتري الدنيا بالآخرة.

إن العَلَـم اليوم ملقى على الأرض فمـن ذا الذي يتقدم لحمله؟ إن الزمـن الذي كانت تسـير فيه الشـعوب علـى غير هدى قـد انتهى ولن يعـود، فلا بـد من رجل وبرنامـج، ولا بد مـن قائد مؤمن برسـالة هذا الشـعب الذي يريد أن يُبعث من جديد. إن كل إنسان تجتمع معه اليوم يقول لك: أين الرجل الذي يقود؟ فنحن أشبه بجيش مستعد في حاجة إلـى حامـل البوق ينفـخ إيذانـا بالابتـداء، فليتقدم الرجـل، أي رجل، ولينفخ في البوق صيحة النداء، وليعلم أن هذه الصيحة ستأخذ سبيلها إلـى آذان الملاييـن. نريد ذلك القائد أيـا كان، لا يعنينا، إن كان صديقا أو خصمـا، لا يعنينا إن كان في أرفع المناصب أو في أحقرها، لا يهمنا

إن كان حاكما أو محكوما، إنما كل ما نريده أن نجد رجلا شجاعا مؤمنا بحق هذا الشعب في أن يحكم حكما شريفا عفيفا وطنيا.

في سنة ١٩١٨ وجدت مصر ثلاثة رجال يقولون لأقوى دولة في العالم. اخرجي من بلادنا. قالوها دون أن يفكروا في عاقبة هذا النداء، قالوها ووقفوا في مكانهم لا يخشون الطغيان والجبروت، قالوها ولم يفكروا في أملاكهم ولا زوجاتهم ولا مستقبلهم السياسي، وكان تعداد مصر حينئذ ١٤ مليونا... ولسنا في حاجة إلى ثلاثة رجال... بل إلى رجل واحد».

(للأسف هذه السطور التي قرأتها للتو يمكن أن تجدها منشورة بالنص ودون أي إضافات في كتاب «لكل مقال أزمة» للكاتب الكبير مصطفى أمين، والذي أصدرته دار الشروق قبل ربع قرن تقريبا، ويؤسفني ويحزنني أن أقول لك: إن هذه السطور مقتطعة من مقالين لمصطفى أمين نُشرا في يومَي ٢ سبتمبر و٩ سبتمبر من عام ١٩٥٠، أيوه ١٩٥٠ ومع ذلك تشعر أنها صالحة للنشر الآن للأسف الشديد، لا تخرج قبل أن تقول: الثورة مستمرة، حتى تصبح مصر بلدا يستحيل فيه إعادة نشر مقالات كتبت منذ ستين عاما، ومع ذلك تبدو كأنها كُتبت في التو واللحظة).

صحيفة الشروق - يناير ٢٠١٣

لو كان الحل حلا

بالطبـع، لا تُجـدي كلمة «لو» نفعا فـي تغيير مســار التاريخ، لكنها حتما نافعة لمن أراد تأمل مســاره والتعلم من دروســه. لذلك أقول لو كان المرحـوم محمـود فهمي النقراشــي لم يصدر قراره الشــهير بحل جماعـة الإخوان، واختار الطريق الأصعــب؛ وهو ملاحقة المتورطين من أبنائها فـي مخالفة القانون قضائيا، وفضحها إعلاميا، ومحاسـبتها سياسـيا، وتأطيرها قانونيا، فربمـا كان ذلك قد حماه من الاغتيال على يد أحد إرهابيي تنظيمها السري، وربما أغنى مصر عن تحول الجماعة لسنوات طويلة إلى القوة الأكثر تنظيما في مصر، لأنها عندما تم حجبها من العمل فوق الأرض لجأت إلى العمل تحت الأرض، فاكتسبت كل مميزات الجماعة الســرية عبر العصور المتواليـة، ونجت من التحدي الذي يتعرض له أي تيار سياسـي علني حين يجبره وصوله إلى الحكم على الاشـتباك مع تعقيدات الواقع، فيجد نفسه مطالبا بأن يقدم للناس إجابات وليس شعارات.

بعيـدا عن منطق كلمة «ياريت» التي عمرها ما عمّرت بيتا أو وطنا، أدعوك لقراءة شهادة أحد أبرز المقربين من النقراشي والشاهدين على

صراعه مع الإخوان، بل والمشاركين فيه، وهو السياسي المصري إبراهيم عبد الهادي صاحب التاريخ الوطني في النضال؛ والذي جلب له حكما بالإعدام في قضية المؤامرة الكبرى عقب ثورة ١٩ بسبب مشاركته في قتل جنود إنجليز، والذي تم تخفيف الحكم عليه إلى المؤبد، ثم أفرج عنه سعد زغلول بعد أن قضى ٤ سنوات من العقوبة، ليتدرج في تقلبات العمل السياسي، حتى أصبح الرئيس الثالث لحزب الهيئة السعدية بعد كل من أحمد ماهر والنقراشي اللذَيْن مات كل منهما غيلة بسبب مواقفه السياسية.

في مذكراته التي نشرتها مجلة «روز اليوسف» في السبعينيات وحررها محمد علي أبو طالب، وأعاد نشر أهم ما فيها الدكتور محمد الجوادي في كتابه المهم «مذكرات الشباب الوفديين والعمل السري في ثورة ١٩» الصادر عن مكتبة الشروق الدولية، يروي إبراهيم عبد الهادي كيف أصر النقراشي على قرار حل جماعة الإخوان بعد تأكده من مسئولية الجماعة عن العمليات الإرهابية التي مورست ضد خصومها، وكان على رأسها عملية السيارة الجيب المحملة بالمتفجرات التي كان يراد لها أن تنفجر في محكمة استئناف القاهرة، لم يستجب النقراشي لمطالبات وكيل الداخلية عبدالرحمن عمار له بأن يؤجل هذا القرار أو يمتنع عنه لأنه سيدفع ثمنه حياته، وقال: هذا واجبي والحياة والموت بيد الله، وعندما عرضوا عليه كشفا بأسماء شبان الإخوان الخطرين وجد بينهم اسما لطالب بالسنة النهائية في كلية الطب البيطري، فقام بشطب اسمه من الكشف، وعندما اعترض اللواء أحمد طلعت وكيل حكمدارية القاهرة قال النقراشي: «حرام أن

أؤخر دخوله امتحان الدبلوم، هذا كابني تماما»، وللأسف كان هذا الطالب الذي حرص النقراشي على مستقبله هو محمود عبد المجيد الذي قتل النقراشي بعدها بأسبوعين، بعد فتوى حصل عليها من المفتي الإخواني الشيخ سيد سابق، وبمساعدة ضابط بوليس إخواني فَصّل للقاتل بدلة ضابط لكي يدخل بها وزارة الداخلية حتى لا يشتبه فيه أحد، وقد حكم القاضي مختار عبد الله على قاتل النقراشي وشركائه بالإعدام، وعندما وصل إلى سيد سابق قال له: «يا أستاذ أنت بُرِّئت لعدم كفاية الأدلة فقط».

الغريب أن إبراهيم عبد الهادي يحكي في مذكراته وقائع كانت ستكون أكثر فعالية من الحل لو تم استخدامها سياسيا وإعلاميا في مواجهة الإخوان، لكن الهيئة السعدية الحاكمة استسهلت الحل القمعي للأسف، أخطر هذه الوقائع حديثه عن ثبوت حصول الإخوان على خمسين ألف جنيه، وهو مبلغ ضخم في وقتها ممن وصفها بالجاسوسة الإنجليزية فريا ستارك رئيسة جماعة أنصار الحرية في مصر، وقد أورد ذلك في مقام الرد على اتهامات الإخوان بعد ثورة يوليو لماهر والنقراشي بأنهما اجتمعا مع السفير البريطاني للاتفاق على حل جماعة الإخوان، وهو ما يعتبره مغالطة يرد عليها قائلا: «لقد فاتهم أن أحمد ماهر قُتِل قبل ثلاث سنوات من الحل، ثم سفير مين الذي يريد حل الإخوان المسلمين؟ إن أسعد أيام الإنجليز أن تخرب مصر بيد أبنائها، وكانت أسعد أيامهم وأمانيهم أن توجد هيئة مثل هذه تقتل النقراشي وأحمد ماهر لقد لفق لهما الإنجليز القضايا ليقتلا ويخلصوا منهما فينجيهما الله، فنأتي نحن المصريين أبناء البلد نقتلهما ونقدم للإنجليز رأسيهما هدية».

يحكي إبراهيم عبد الهادي واقعة يقول إنها كانت سببا في شكه في توجهات الإخوان بعد أن كان يثق فيها، حيث حدث خلاف شرس حصل داخل الصف الإخواني، عرف به عبد الهادي عندما جاءه ثلاثة من قادة الجماعة هم الدكتور إبراهيم حسن والسفير كمال عبد النبي وأحمد السكري، ومعهم ملف قالوا إنه خاص بتحقيق مع واحد من قادة الإخوان اسمه عبد الحكيم عابدين كان قد تم إدانته في تحقيق داخل الجماعة بعد اتهامه بمخالفات خطيرة، لكن لم يتم اتخاذ إجراء معه لأنه صهر الشيخ حسن البنا، وهو ما دفع وكيلَي الجماعة إبراهيم حسن والسكري للاستقالة بسبب ذلك، ولأنهم تلقوا تهديدات بسبب الاستقالة، فقد لجئوا إلى إبراهيم عبد الهادي بصفته كوزير للداخلية لتوفير حراسة على منازلهم، فقام بطمأنتهم واستوعب خوفهم، ولم يكن يعلم أن الأيام ستمر لتقوم ثورة يوليو، وخلال شهر العسل الذي طال في أولها بين الضباط الأحرار والإخوان، سيقوم عبد الحكيم عابدين دون غيره بشن هجوم شرس على إبراهيم عبد الهادي الذي وجد نفسه هو وكثيرًا من رموز عهد الملكية مطلوبين للمحاكمة بمباركة من الإخوان الذين تعرضوا بعدها للتنكيل من عبد الناصر بعد أن ساعدوه على التنكيل بكل المنافسين السياسيين لهم، وشرعوا له ذلك بأسانيد شرعية وتخريجات سياسية، ولذلك قرر عبد الهادي أن يحكي في مذكراته قصته مع عبد الحكيم عابدين التي تجاهلها عندما كان وزيرا للداخلية.

برغم كل ما تلقاه السياسي المخضرم إبراهيم عبد الهادي من هجمات أنصار جماعة الإخوان واتهاماتهم، يحرص على أن يبدأ

حديثه عنهم في مذكراته بقوله: «أُشهد الله على أني ما حملت لهذه الجماعة غلا أو حقدا، أو سعيت للانتقام من أحد منها، وأقول إن فيهم أناسا أطهارا دخلوا الدعوة مخلصين لله ولدينهم، وقد عرفت بعضهم واحترمتهم، وكانوا يزورونني من وقت لآخر، ولكن المجموعة الأخرى؛ مجموعة الجهاز السري، مجموعة القتلة، فهؤلاء ليسوا أعدائي وحدي، وإنما أعداء الملة الإسلامية وأعداء الوطن»، ثم يبدأ في سرد جرائم هذه المجموعة قبل أن يسأل بحرقة: «عندما أقاوم هذا الضلال أبقى كفرت يا أيها الناس؟».

وبعد أن حرص إبراهيم عبد الهادي على تبرئة ذمته بتفريق الصالح من الطالح، يقرر ألا يصمت على اتهامات القطب الإخواني عبد الحكيم عابدين له عقب ثورة يوليو فيقول: «للسيد عبد الحكيم عابدين وكيل جماعة الإخوان قصة أرويها وأنا حزين، ليكتشف الشباب المضلل من أي المصادر يستقون معلوماتهم»، ثم يروي تفاصيل لواقعة شائكة أتعفف عن نشرها، لكن يمكن أن أقول إنها استتبعت أن يقوم أحد الأزواج من أعضاء الإخوان بشكوى إلى مكتب الإرشاد ضد عابدين في مسألة أخلاقية، «وقَدّم مكتب الإرشاد السيد عبد الحكيم للمحاكمة التي استمرت ثلاثة أيام بلياليها، وفي النهاية انتهى إلى الإدانة، ولكنه اعتبر الجرم الذي ارتكبه عبد الحكيم صهر الشيخ حسن البنا من اللمم؛ أي الذنب البسيط، فاستقال بعض أعضاء مكتب الإرشاد وفي مقدمتهم الدكتور عبدالرحمن حسن، والأستاذ كمال عبد النبي، وكان ذلك قبل قرار حل جماعة الإخوان ربما بأكثر من سنة ونصف السنة». ثم يعترف عبد الهادي أنه عندما جاءه قادة

الجماعة لكي يطلبوا فرض حراسة لهم تأمينا لحياتهم بسبب تعرضهم للتهديدات من إخوانهم بالأمس، أخذهم على قد عقلهم حتى انصرفوا، لكنه يقول إن هذه الحكاية هي التي دفعته للشك في جماعة الإخوان، لأنه لم يتعامل معها بصفتها واقعة شخصية من بشر معرضين للخطأ، ومن منا ليس كذلك؟! بل باعتبارها دليلا على طريقة إدارة الجماعة نفسها على قواعد غير عادلة استفزت حتى قادتها المخلصين ودفعتهم للاستقالة.

يحكي عبد الهادي أيضا واقعة مهمة عن قيام قيادات الجماعة بشن حملة ابتزاز ضد وزير الزراعة في الحكومة السعدية لأنه رفض طلبات قدمها له حسن البنا لمصلحة بعض أفراد الجماعة، ويعترف الوزير بنفسه أنه كان يجاري البنا في البدء لأنه «رجل طيب قريب من الله»، لكنه عندما تأخر في تنفيذ بعض ما طلبه فوجئ بحملة عنيفة يتعرض لها في صحيفة الإخوان اليومية، فلما عتب على البنا أنكر اطلاعه عليها وأبدى أسفه، لكن الحملة تواصلت وتصاعدت بدعوة عمال الزراعة المنتمين إلى الإخوان بتفتيش شمال الدلتا للإضراب للضغط على الوزير الذي اضطر لأن يشكو البنا إلى رؤسائه لكي لا يتهموه بالتقصير في عمله.

تظل القصة الأهم التي يرويها إبراهيم عبد الهادي هي قصة لقائه بالشيخ حسن البنا عندما كان عبد الهادي رئيسا للديوان الملكي، وكان قد شاهده قبل ذلك في موسم الحج وأعجب بفصاحته وهو يخطب، وجاءه البنا بعريضة مرفوعة إلى الملك يعرض عليه خدمات الجماعة وتعاونها في تشكيل الوزارة الجديدة بعد أن علم أن وزارة

النقراشـي في طريقها إلى الاسـتقالة، فقال له عبد الهادي إن معلوماته غيـر صحيحة وإنه سـيرفع العريضة إلى الملك، لكنـه يريد أن ينصحه بأن سـعيه للمشـاركة في الحكم سـابق لأوانه، متخيلا أن البنا سـيهتم بما سـيقوله عن تجربته الشـخصية في دنيا السياسـة التي لخصها للبنا بقوله: «لما بدأنا العمل في الحركة الوطنية والسـير في طريقها الخطير لـم يفكـر واحد في أن يبدأ بأن يكون وزيرا أو يُسـند إليه عمل رسـمي بحكـم الظروف.. فالعجلة ليسـت السـبيل إلى الحكم، وإنما السـبيل إليـه الخدمـة والوقـت بطبعـه يحقق آمـال النـاس الذين صـارت لهم تجربـة وممارسـة، وصار قدرهم ووضعهم إلى هذا، وشـأنك وشـأن كل وطني هو هذا». لكن البنا لم يسـتوعب درس إبراهيم عبد الهادي، ولم يسـتوعبه الذين خَلَفوه عندما تعجلوا على الاسـتحواذ والتكويش على السـلطة، وسـعوا لمسـاعدة عبد الناصر على الاسـتبداد في بداية حكمه، ثم دفعوا ثمن تلك المساعدة غاليا، وظلوا يُحاربون ويُقمعون بشكل كان يرفضه أحرار المصريين وعلى رأسهم بعض ممن يعتبرهم الإخـوان أعـداءً الآن دون أن يحفظـوا لهـم جميلا أو معروفـا، ثم لما أتاحت ثورة يناير للإخوان فرصة عمرهم في أن يحظوا بوجود طبيعي فـي المجتمع المصري، فلا يجورون على أحد ولا يجور عليهم أحد، غلبـت عليهم العجلة والطمع من جديد، فنسـوا وعودهم بالمشـاركة لا المغالبة وبعدم ترشـيح إخواني لمنصب الرئاسة، ومن حينها توالت خطاياهم التي يكتوي بنارها الوطن.

طيـب، مـاذا يحدث لو كان محمود فهمي النقراشـي قد سـمع من إبراهيـم عبد الهـادي كل ما لديه مـن وقائع تدين الإخـوان، ففكر فيها

طويلا واستجاب لنصائح مساعده عبد الرحمن عمار، وقرر أن يمتنع عن توقيع قرار حل الجماعة، ليقوم بتعريتها إعلاميا ويحاربها بسلاح السياسة وحده دون غيره، بل ويسعى لتوريط الجماعة في الواقع الملتبس ليتبدى حجمها الحقيقي وينكشف للناس الفرق بين الشعارات الطنانة والإمكانيات الكتيانة، بدلا من أن يمنحها بطولة لا تستحقها، ويعينها على البقاء في موقع المضطهد؟ ألم تكن بذمتك أشياء كثيرة في حياة المصريين قد تغيرت منذ ذلك الحين وحتى الآن؟ ها أنا أنهي حديثي كما بدأته بالأمس بقولة «لو»، مع أنني سَلّمت أنه بالطبع لن تجدي كلمة «لو» نفعا في تغيير مسار التاريخ، لكنها نافعة لتأمل مساره وفهمه وتحليله والتعلم من دروسه، فهل نتعلم من دروس التاريخ؟ أم نفضل الاستسهال واتباع منهج ست البيت الأروبة التي تخفي التراب تحت السجاجيد، وتظن أنها بذلك نضّفت بيتها إلى الأبد؟!

صحيفة الشروق - مارس ٢٠١٣

عن زمن الفن الجميل الذي لم يكن كذلك تماما

ليس جديدا أن نقول إن مصر تعشق أن تصبح على ما باتت فيه، وتحب أن تعيد اللي تزيده. هذا هو حالها للأسف وحالنا، ليس فقط بدليل ربع القرن الماضي الذي أضعناه في اللاشيء. ستكتشف أن الأزمة أعمق من ذلك بكثير لو كنت مولعا بذلك الولع المؤلم والممتع.. ولع الأرشيف.. ولع اقتناء المجلات القديمة التي ستصيبك في البداية باليأس، لكنها مع الوقت ستتحول إلى علاج يمكّنك من التعايش مع الحياة في بلد عاش كل معاركه ومشاكله وأزماته وهزائمه بدل المرة ألف مرة. بلد يبدأ القرن وينهيه ويدخل في الذي يليه وهو يتحدث عن نفس المشاكل والأزمات بنفس المنهج ونفس الطريقة، بل وبنفس الألفاظ.

أي قراءة منتظمة لأرشيف الصحف القديمة ستجعلك تكتشف كيف يعيش المصريون الآن أسرى لوهم من فرط إلحاحهم على تصديقه تحول إلى سيف مصلت على رقاب الأجيال الحالية والقادمة التي يرهبونها ويأتونها ويلعنون سنسفيلها مستخدمين وهمًا ليس له وجود، وهمًا اسمه زمن الفن الجميل، مع أن الله تعالى خلق كل

الأزمنـة مليئـة بالجمال والقبح معـا، وربما كان هذا سـر جمال الزمن وسـر قبحه أيضا. هنا قبل أن تنهال الشتائم عليَّ لتتهمني بتشويه الزمن الجميل لمصلحة الزمن القبيح. سـأدع الأخبار والوقائع المسـتقاة من أكثـر صحف ومجلات مصـر احترامـا ومصداقية في القـرن الماضي تتحـدث، مذكـرا بأنني أحتفـظ بأصول كل ما سـتقرؤه هنـا، وأنني لم أختر إلا ما ثبت عدم تكذيبه في الأعداد التالية لنشـره، مكتفيا بالتعليق فـي أضيق الحدود ومحتفظا بحق التعليق في أوسـع الحدود إذا دعت الحاجة وطلب المزاج. وعلى زمن الفن الجميل اتفرج يا سلام:

● تحـت عنـوان «حـوادث علـى خشـبة المسـرح»، نشـرت هـذه الحادثـة بأسـلوب الكتابـة الصحفيـة قديمـا تقـول: «المفـروض في مناظـر السـكْر على المسـرح أن يتنـاول الممثلون شـرابا لا يمت إلى الخمـر بصلة، ولكن في إحدى روايات يوسـف وهبـي أراد أربعة من ممثلي الفرقة وهم حسـن البارودي وأحمد علام وسـراج منير وفتوح نشـاطي أن يكون سـكْرهم بحق وحقيق، فأحضـروا ذات ليلة زجاجة ويسكي شربوها أمام الجمهور حتى الثمالة، وكانت النتيجة أن شردت عقولهـم، وبدءوا يـرددون كلام الملقن خطأ وسـط ضحك الجميع». تخيـل لو حدثت هـذه الحادثة الآن، فكيف سـيكون التعليق عليها في الصحـف؟ وكيف سـيلعن الجميع سنسـفيل ممثلي زمـن الفن القبيح ويترحمون على عظماء زمن الفن الجميل؟

● «أتمنـى أن يتعـود زوجـي نيـازي مصطفـى الذهـاب إلـى مكـة والمدينـة بدلا من فينسـيا وكان وهوليود، وأن يؤمـن الزملاء معي بأن الفن يصح أن يتوجه وجهة مفيدة غير التي درجوا عليها منذ سنوات».

كان هذا نص تصريح نشرته مجلة «الكواكب» للفنانة كوكا عام ٥٢، يعني في عز زمن الفن الجميل، دون أن توضح كوكا قصدها بالوجهة التي دعت أن يتوب منها زوجها وزملاؤه. بالمناسبة التصريح كان جزءا من حوار مع عدد من الفنانين عنوانه «لو أديت فريضة الحج»، وفيه قالت أمينة رزق إنها ستدعو الله أن يشمل التطهير جميع أنحاء الوسط الفني.

● في حوار له مع الشاعر العملاق بيرم التونسي عام ٥٢ - يعني في ذروة عطاء وتألق بيرم - يقول الصحفي لطفي رضوان: «طلبت من بيرم أن أزوره في منزله، فقال لي. ربنا أمر بالستر عاوز تفضحني ليه؟!»، ذهب إليه لطفي في بيته في شارع النواوي في حي السلخانة فوجده يجلس ليكتب جالسا على كليم جوار باب الشقة، مبررا له ذلك بأن أولاده يملئون غرف الشقة الثلاث، ولذلك قرر الجلوس جوار باب الخروج، قائلا له: «لا أحد يعرف مهنتي في هذا الحي، حتى زوجتي إذا سألتها إحدى جاراتها: النبي حارسه بيعمل إيه؟ أجابتها: والله ما نا عارفه أهه بيشتغل وخلاص وبيجيب فلوس.. ده المهم. إنني أعيش في بلد لا يعرفني.. أبيع الأغنية بمليم بسبب عدم اعتراف مصر بحقوق المؤلف.. لقد قال سيدنا سليمان الحكيم عن الهدهد: لأذبحنه أو لأعذبنه عذابا شديدا، فقيل له. ما هو العذاب الذي يكون أشد من الذبح؟ فأجاب أن يوضع في طائفة من غير بني جنسه. كذلك أنا يا صديقي».

● «كان حسين رياض ممثلا ذائع الصيت منذ عشرين عاما، وكان حسن فايق يستغل اسم ممثل صغير في فرقته يدعى حسين رياض في

الدعايـة عن الفرقة، حتـى يوهم الجمهور بأن حسـين رياض الأصلي يعمـل عنـده. وإن المرحـوم نجيـب الريحانـي تشـاجر ذات يـوم مع عبد الفتـاح القصـري، واعتـدى عليـه بالضـرب، لأن القصـري أهان أحـد عمـال المسـرح». (نص فقـرة منشـورة ضمن بـاب «أضف إلى معلوماتك» - الكواكب - عدد ٥٣).

● «بينمـا كان الفنـان عزيز عيد يـؤدي دوره في مسـرحية تراجيدية لـم تلق هوى لـدى الجماهير أخـذ المتفرجـون يتصايحـون مهللين: «عاوزين ضحك، عاوزين ضحك»، واصطنع رحمه الله الصبر طويلا دون جـدوى حتى إذا وجد فنه لا يلقى الآذان المصغية خرج عن دوره وخاطـب المتفرجيـن: «انتـو عاوزين تضحكـوا.. طيب. بطّـل تمثيل يا جدع»، وراح يتشـقلب على المسـرح ويثيـر ضحكهم ودموعه تملأ عينيـه صائحا بهـم: «اضحكوا بقـى.. اضحكوا زي ما انتـم عايزين»، وأمـر بإنزال السـتائر ورد أثمان التذاكر إلى النظارة، وقضى ليلة سـيئة يبكـي الفن الصحيح ويرثي لشـعب لا يقـدِّر الفن. (لاحـظ أن التهمة كالعادة رسـيت على الشعب المصري وليس على فن عزيز عيد نفسه. ولاحظ أيضا أن هذا الكلام نشر في أغسطس ١٩٥٢).

● «عندمـا يجتمـع المخرج ومسـاعدوه فـي صالة عـرض الأفلام الموجـودة في الاسـتديو لمشـاهدة بعـض المناظر التي تـم تصويرها وسـماع حوارها يفاجئـون أحيانا بأصوات سـجلها المكروفون عفوا، فيسـمعون مثلا صوت بطـل الفيلم وهو يقول للبطلـة: «ماتعرفيش قد إيـه أنـا متضايق منـك وقرفان من الشـغل معاكـي»، فترد عليـه البطلة في غضب: «وإيش تكون إنت ياحشـرة عشـان تتضايـق مني؟! إحمد

ربنـا إنـي قبلـت أمثل معاك المشـهد الغرامـي ده.. والحقيقـة أنا كنت أتمنـى المـوت على إني أظهـر معاك في فيلـم واحد»، وفجـأة يصيح المخرج قائـلا: ابدءوا العمل، وهنا ينقلب الحـوار بين البطل والبطلة إلـى عبارات رقيقـة كلها غزل وهيام». (هذا نص خبر نُشـر مجهلا في بـاب «وراء السـتار» - الكواكب عـدد ٥٥ دون تحديد أسـماء أبطال، فـي عصر ذروة الأفلام الرومانسـية التي نتغـزل نحن فيها جميعا الآن. لا أريد أن أذكر لك أفلاما أنتجت في تلك الفترة لكي لا أفسد غرامك بها إذا كنت من المخلصين لنظرية زمن الفن الجميل).

● مجلـة الكواكب تعقد ندوة لمنتجي الأفلام تناقش لماذا لا تصل أفلامنـا إلى الخـارج، الندوة التـي حضرها منتجون مثـل أنور وجدي ومحمد فوزي وفريد الأطرش وآسـيا وجبرائيل نحاس وحسن رمزي كرر المنتجون فيها الشكوى من أجور الفنانين الذين قال المنتج فهمي داود: «دي أجورهم بقت تكسر الوسط».

● هـل تعلـم أن يوسـف وهبي اختار لنفسـه شـخصية حنجل بوبو لينافـس بهـا شـخصية كشـكش بـك التـي ابتدعهـا المرحـوم نجيب الريحانـي ولقيـت مـن النجـاح على خشـبة المسـرح ثم على شاشـة السـينما في فيلم صاحب السـعادة كشـكش بك الذي اختفى نيجاتيفه بفعـل الإهمـال أو ربما عمدا؟ وننشـر هنا صـورة نادرة منـه، كان كل من كشـكش وحنجـل قد لقيا مـن هجوم النقـاد والكُتـاب ما لا حصر ولا عد له، وبرغم ذلك نجح كشكش بك نجاحا دفع أكثر من فرقة إلى تقليدهـا، وعلى رأس هؤلاء كان عميد المسـرح العربـي الذي تحول إلى حنجل بوبو. وتعليقي: طيب بذمتك حنجل من بوحة فرقت كتير؟

● كلما وقعت هذه الأيام لفنان جميل مثل يوسف داود أو الساحر حسين الشربيني مأساة تتعلق بإهمال مساعدته على العلاج أو التنكر لتاريخه الفني، انبرى الجميع ليكتب عن هذا العصر الرديء الذي لا يُقدر فيه أحد الفن والفنانين، ويترحمون على زمن الفن الجميل الذي كان يعرف قيمة الفن والفنانين، بينما الجميع ينسى أن الزمن الذي يترحمون عليه هو الذي جعل كثيرا من الفنانين يهربون خارج مصر من الضرائب، وجعل بعض أجملهم مثل القصري وبشارة واكيم وزينات صدقي يموتون دون أن يسأل عنهم أحد، وجعل فنانا قديرا مثل محمد كمال المصري الشهير بـ «شرفنطح» يصبح في نوفمبر ١٩٥٨ مأساة كما وصفته المصور التي انهالت عليها الرسائل «بين مستنكر لموقف النقابات الفنية من محنة نجم الكوميديا، ومؤيد يبدي استعداده لمعاونة الفنان»، بذمتك مش قريت الكلام ده كتير؟ على أي حال ما نشرته المصور مشكورة أسفر يومها عن معاش قدره عشرة جنيهات شهريا من معونة الشتاء، وعرض من العظيم بديع خيري لـ «شرفنطح» بأن يعود للانضمام إلى أسرة مسرح الريحاني بالقدر الذي تسمح به صحته، وبالمرتب الذي ترتضيه كرامته. رحم الله «شرفنطح» ولطف بمصر التي لا تتغير أبدا.

● ينتقد الكثيرون اليوم ظاهرة ذبح الفنانين للعجول قبل التصوير ويتخذونها دليلا على إيمانهم بالشعوذة والدجل، ما قول هؤلاء في حوار نشرته الكواكب مع الكومبارس صفا (ستتذكر ظهوره الجميل في أفلام للريحاني وإسماعيل ياسين عندما تشاهده في الصورة)، والذي كان يعرف بأنه فاسوخة عبد الوهاب، حيث كان عبد الوهاب

كما يقول الحوار لا تعرض له مشكلة مستعصية حتى يبعث في طلبه حتى يزول «العكس»، وقد حدث له مرة أن أعاد تسجيل أغنية عشر مرات، وتذكر صفصف فسارع بطلبه لكي يسير التسجيل على ما يرام، وكذلك كان الأستاذ أنور وجدي يدعوه ليجلس معه كلما اضطر لكتابة سيناريو، واتفق معه الكاتب صالح جودت على أن يزوره كل يوم في الصباح ليكون وجهه أول ما رآه. (من الكواكب وحياتك).

● سألوا الفنان حسن فايق: ما الذي يضايقك في الصيف؟ فقال: «ليس هناك ما يضايقني من الصيف إلا النساء فالصيف يسمح لهن بأن يرتدين ثيابا خفيفة تعد دليلا واضحا على تدهور الأخلاق والفضائل، واذهب إلى البلاجات يا صديقي لتعرف أنني لست متجنيا ولا حنبليا أكثر مما يلزم»، وربما لو كان الناقد الكبير سمير فريد حيا أيامها لاتهم حسن فايق بأنه وهابي من أنصار السينما النظيفة.

● إذا كنت من القراء المتابعين لمقالات نقاد السينما في مصر وصحف ومجلات الفن فأنت تعلم إذن أن هناك مصطلحا اسمه «السينما النظيفة» يهاجمه نقاد مصر بشدة وينسبونه إلى ممثلي وممثلات الموجة الشابة التي سيطرت على إنتاج السينما المصرية بدءا من فيلم إسماعيلية رايح جاي، حيث أصبح أغلب هؤلاء الشباب يرفضون القبلات ومشاهد الجنس في أفلامهم، معتبرين أن هذا يندرج تحت بند السينما النظيفة التي تعجب غالبية الأسر المصرية التي عادت لتصبح أبرز فئة من فئات جمهور السينما، النقاد يرون أن في هذا الموقف من الفنانين الشبان مغازلة للمجتمع الذي سيطرت عليه تيارات التطرف الديني التي فرضت عليه قِيَما أخلاقية لم تكن مألوفة

حتى وقت قريب. طيب لسنا الآن بصدد قبول هذا ورفضه، فالمفاجأة التي نهديها للجميع أن مصطلح السينما النظيفة لم يكن محمد هنيدي أول مـن أطلقه، بل كان محمد نجيب. ولم يكن السينمائيون الشبان وراء إطلاقـه لأول مـرة فـي تاريـخ السـينما المصرية، بـل كان وراءه الضباط الأحرار. حتى اقرأ وشوف. وبيننا وبينك الأرشيف:

● بعد قيام ثورة يوليو مباشـرة بعدة أسابيع نشرت الكواكب، كبرى المجلات الفنية وقتها، موضوعـا بعنوان «القائد العام فنان موهوب»، حمـل إلى جانب صورة محمـد نجيب، قائد ثورة يوليو وقتها، عناوين فرعية تغنيك عن قراءة نصه جاء فيها: «القائد العام محمد نجيب يؤلف مسـرحية اسمها بشير أفندي - القائد العام ينظر إلى السينما نظرته إلى المدرسة الحديثة التي تأخذ بيد الشباب إلى طريق الفضائل - يرى أن أوجب الواجبات البحث عن القصة النظيفة التي تشيد بمجد مصر».

● في باب «حدث هذا الأسـبوع» نُشـر خبر يقول: «تسلمت وزارة الداخلية شكوى من المفوضية الإندونيسية بصدد الأفلام التي تشتمل علـى مناظر راقصـة خليعة، والتـي يعرضها المنتجـون المصريون في السـوق الإندونيسـية، وقـد أحيلـت هـذه الشـكوى إلـى إدارة الرقابة لاتخـاذ الـلازم». شـايف يا مؤمـن كيـف كانـت إندونيسـيا تفـرض شـروطها علينا قبل أن يوجد شيء اسمه دول الخليج، وقارن ذلك بما حـدث في السـبعينيات والثمانينيات من شـكوى المصريين المقيمين بالخليـج مـن ما تقدمـه الأفـلام المصريـة مـن عـري يـؤذي مشـاعر أبنائهـم عندمـا يذهبون إلـى المدارس ويسـمعون أفحـش الكلام من زملائهم الخلايجة.

● بعدها بأسابيع نشرت الصحف خبرا يقول: «رفضت رقابة السينما بوزارة الداخلية عددا كبيرا من القصص السينمائية التي يغلب عليها طابع التبذل والتهريج، وقد طلب إلى أصحاب هذه القصص تأليف موضوعات جديدة تتفق مع العهد الجديد. لم يكن غريبا بعد هذا أن تظهر إعلانات أفلام كالتي تراها مصاحبة لهذا الموضوع. ثم بدأت الصحف تنشر أخبارا عن التفكير في تشكيل لجان لاختيار الأفلام التي يتم إنتاجها لكي يتم ضمان كونها متوافقة مع مبادئ العهد الجديد، لكن فتحي رضوان وزير الإرشاد نفى ذلك بعد أسابيع، وقال إنه لن تشكل لجنة كهذه لكنه يرجو المنتجين أن يختاروا القصص التي تتماشى مع حركة تطهير الأخلاق التي يتبناها الجيش، بعدها بأسبوعين تم الإعلان عن تشكيل لجنة تطهير مؤلفة من الرقباء كمال كيره ومحمد حسين الكاشف وحسين زغلول ومحمد زكريا كامل وصفت بأنها «توالي جهودها لتهذيب الأفلام السينمائية التي صرح بها في العهد الماضي بحذف المناظر التي تتنافى مع الآداب والقواعد السليمة» - لم يتم تحديدها كالعادة وفي نفس الوقت نُشر خبر مجهل شديد الدلالة يقول: « تلقت نقابة السينمائيين من إحدى الجهات المسئولة خطابا تطلب فيه من المخرجين أن ينظروا إلى الرقص الشرقي على أنه فن جميل وليس وسيلة لإثارة الشهوات وطلبت منهم أيضا أن يراعوا عند اختيار الراقصات للعمل في أفلامهم أن يكنَّ من أبرع الراقصات». لك أن تسأل من هذه الجهة المسئولة التي قررت وهي في مرحلة بناء وطن وثورة أن تشغل بالها براقصات الأفلام وضرورة ألا يثرن الشهوات، بل وتجاوزت ذلك إلى دعوة المخرجين

لفلتـرة الراقصات في نفـس الوقت الذي كان يتم فيه ضرب كل القوى الوطنية من إخوان وشيوعيين ووفد وكل من يفتح فمه ولا يهز وسطه.

فـي ذلك الوقت لم يوفر الفنانون كالعـادة لا الجهد ولا الوقت في إعـلان تأييدهـم القاطع المانـع للحركـة المباركة، تحكـي المجلات الفنيـة أن شـكوكو بلغه خبـر «حركة الجيش» وهو واقف على مسـرح فـي الزقازيـق «حيث اقتحـم بائع صحف المسـرح وأخـذ يبيع جرائد المسـاء التي نشـرت الخبر السـار فتخاطفها الجمهور وتركوا شكوكو على المسـرح فسـأل مدير المسـرح الذي قال لـه إن الملك تنازل عن العرش، فصاح شـكوكو في بائع الصحف: اديني واحدة، وأخذ يطالع الجريدة على المسـرح في مشـهد لم يسـبق لـه مثيل». أما الموسـيقار محمـد عبد الوهـاب فتحكـي الكواكب أنـه «كان من بيـن الخطابات التـي أرسـلت إليه بعد حركة الجيش رسـالة من أحـد المعجبين كتب علـى مظروفهـا: إلى الموسـيقار محمـد عبد الوهاب مطـرب الملوك والأمـراء»، فكتب عبد الوهـاب على الظرف «لا يعرف شـخص بهذا اللقب في هذا العنوان»، وأعاد الخطاب إلى صندوق البريد. أما ماري منيب فقد وقفت في الطابق الثاني من مبنى مسرح النجمة لتلقي حبات الملبِّس علـى الجماهير التـي وقفت في الطريق لتحيـة موكب نجيب وهي تصيح: «خلاص يا ولاد حكم قراقوش». بديع خيري أعلن فورا عن إعداد فرقة الريحاني لمسرحية مستوحاة من العهد الزائل. وأصبح مـن المألوف أن تقرأ في كل صحيفة ومجلـة فنانا يزايد على الآخرين في تأييده لحركة الجيش بما لا يتسع المقام لنقله كله هنا.

في هذه الأجواء وتحت عنوان «القبلات ممنوعة في الأفلام المصرية»، تتصاعد حملة الكواكب للدعوة للسينما النظيفة حيث يحكي الموضوع كيف أن لائحة الرقابة تقول إنه ممنوع أن تدوم القبلة على الشاشة أكثر من ثلاث ثوانٍ وإلا وقف مقص الرقيب لها بالمرصاد. ثم يحكي كيف أن بين ممثلاتنا المعروفات من يرفضن التقبيل بحجة أن هذا مخالف للعرف والتقاليد مثل الآنسة أم كلثوم التي كانت تصر على أن يذكر صراحة في عقد الفيلم أنه خال من مواقف القبلات حتى لو تحتم ذلك، أما فاتن حمامة فقد أوقفت مرة العمل في فيلم بسبب إصرارها على أن لا يقبلها البطل، وكاد الخلاف يصل إلى القضاء لولا أن تم إقناع المخرج بالعدول عن تصوير المشهد - الصورة التي نشرت مصاحبة للموضوع تصور مشروع قبلة بين فاتن ومحسن سرحان يؤكد أن فاتن لم يكن لها موقف عام من البوس، بل كان موقفا خاصا من البطل الذي لم يتم ذكر اسمه - أما ليلى مراد فكانت لا تسمح بتقبيلها، بل كانت تكتفي بأن يطبع البطل قبلة بريئة على وجنتيها، وبعد أن تزوجت أنور وجدي كانت تكتفي بتقبيله هو فقط، أما شادية كما يحكي الموضوع فقد كانت عندما يعرض عليها سيناريو تسأل المخرج أولا: «فيه في السيناريو بوس ياأستاذ؟» - لو فعلت بطلة هذا الآن للعن المخرج سنسفيلها في كل الجرائد ولاتهمها بأنها عضوة في طالبان - ماجدة أيضا حدث أن اقتضى مشهد في فيلم حبايبي كتير أن يقبلها البطل قبلة بريئة لكنها رفضت، ولكن المخرج أقنعها بتمثيله وصورته، ولكنها ظلت تبكي طيلة اليوم ولم تستطع إكمال العمل، وعادت مع أقاربها في اليوم التالي لتطالب المخرج بحذفه وإلا فإنها لن تكمل العمل، أما نور الهدى التي ترفض التقبيل

رفضـا باتا فهي كأم كلثوم تضع بند تحريم القبلة في العقد، وكما تقول الكواكـب: «حـدث في أحـد أفلامهـا أن كان المشـهد يتطلـب تقبيل زوجهـا لهـا بعد عودته لها من قصة غرام مـع راقصة، وبالطبع رفضت نور الهدى التقبيل، فجاء المشهد باردا مما أثار أحد المتفرجين فوقف وصاح بأعلى صوته أثناء عرض الفيلم يشـتم البطل أنه لم يقبلها، ولو عـرف هذا المتفرج أن الممثـل مظلوم، وأنه كان بـوده أن ينهال عليها تقبيلا لولا أنها تصر على حذف القبلات!». أطرف ما ترويه الكواكب فـي ختـام الموضوع كيـف أن المطـرب محمد الكحـلاوي كان يصر على أن تكون مناظر التقبيل قاصرة عليه وحده باعتباره المنتج والبطل والملحـن، وحدث في أحد أفلامه أن أصر المخرج على أن يقوم أحد الممثلين بتقبيل فتاة في مشـهد كوميدي، ورفض الكحلاوي أن يصور هـذا المشـهد، واحتدم النقـاش بينه وبيـن المخرج، فثـار الكحلاوي وأقسـم على أن تحذف جميع مناظر القبلات في الفيلم بما فيها قبلاته هو شخصيا. وسلم لي على زمن الفن الجميل.

وفـي محاولة منها لربـط الدعـوة المتصاعدة إلى إرسـاء الفضائل والبعـد عـن الرقص والقبـلات والمسـخرة تعيد الكواكب نشـر قصة عجيبة لأغنية شهيرة هي «آمنت بالله.. نور جمالك آية من الله»، والتي ربما كانت أول أغنية تذهب إلى النيابة بتهمة ازدراء الأديان؛ كان ذلك فـي الثلاثينيـات كما نشـرت الكواكـب في موضـوع بعنـوان «صورة التقطـت بأمـر النيابة»، تصدرتـه الصورة التي تراها إلـى جوارك لفرقة ببا عز الدين المسـرحية الشهيرة وقتها والتي قررت أن تقدم استعراضا مسـرحيا عنوانه «آمنت باللـه» كتبه ولحَّنه محمد مصطفى، بالمناسـبة

هـي نفـس الأغنية التي غنتها بعـد ذلك المطربة لوردكاش واشـتهرت بها، بل وظهرت تغنيها في فيلم «يا تحب يا تقب» قبل أن تموت، وقتها كانت المنلوجسـت فتحية محمود هي التي تغني الاستعراض بصحبة أجمل راقصات فرقة ببا عز الدين التي كانت قد اعتزلت الرقص وقتها، تقـول الكواكب: «وزعت ببـا على الجماهير فـي المقاهي والطرقات إعلانـات تدعوهـم فيهـا لمشـاهدة الاسـتعراض... وكما هـي العادة تناثرت بعض هذه الإعلانات في الطرقات، وحدث أن كان أحد رجال الأزهر سـائرا في الطريق حين اكتشف أنه يدوس بقدمه على الإعلان، وعندئـذ ثارت ثائرته للوضـع الذي امتهنت فيه كلمة آمنت بالله، فبادر بإرسـال الإعلان مع شـكوى حارة إلى كبير مسـئول مـن رجال الدين الذي أثارته الشـكوى فأحالها إلـى النيابة للتحقيق.. وكان الأمر أخطر من أن تقف النيابة إزاءه مكتوفة اليدين فكلفت أحد رجالها بالتحقيق. وسـرعان ما أمر المحقق بالقبض على المرحومة ببا ومحمد مصطفى مؤلـف الأغنيـة وسـيق الاثنـان إلـى دار النيابـة حيث جـرى التحقيق معهما». تنشـر الكواكب نص التحقيق مع ببا التي اعتبرت أن ما حدث وراءه إهمال قارئ الإعلان الذي كان يجب عليه ألا يلقيه في الطريق، وتفاجأ بأن النيابة تسألها عن نوع الملابس التي يظهر بها الممثلون في الاسـتعراض فتجيب أنهم يرتدون ملابس تونسـية تغطي الجسـم كله وليس فيها شـيء يتنافى مع احترام الأغنية - تذكر كم أغنية تشـاهدها الآن يترافـق لفـظ الجلالـة فيها مع أحـط الملابس وأقـذر الحركات، وتخيـل ما الذي سـيحدث لو تـم التحقيق الآن مـع مخرج فيديو كليب حول تصرف كهذا - ثم تسـأل النيابة مؤلف الأغنية عن كلمات أغنيته فيقدمهـا للنيابـة، لتسـأله النيابة: «مـاذا تقصد بكلمة آمنـت بالله.. نور

جمالك آية من الله» - تخيل لو سئل مؤلف اليوم هذا السؤال ما الذي سيحدث في مصر؟ - كانت إجابة المؤلف للنيابة: «أقصد أن الله يحب الجمال، ومعنى هذه الكلمة أنني أقدس صنعه جلت قدرته؛ فالجمال هو آية من صنع الله»، لم تشف الإجابة غليل وكيل النيابة الذي سأله مجددا: «وماذا تقصد من عبارة نور جمالك للسقيم لو رآه يصبح سليم؟»، فيجيب المؤلف: «قصدت نفس معنى العبارة؛ وهو أن نور جمالها للمريض كالدواء الشافي»، وأضاف أنه عرض الأغنية على الرقباء الذين كانوا يتبعون وزارة الداخلية وقتها.

انتهى الاستجواب لكن المحقق رأى أن يستوثق من أن الأغنية لا تعرض على المسرح بصورة غير لائقة، فقرر الانتقال إلى صالة ببا لمشاهدة الاستعراض. يقول محرر الكواكب في وصف بديع لما حدث: « هناك لأول مرة كانت فتحية محمود تغني آمنت بالله وهي تعمل لألفاظها وحركاتها ألف حساب. وكانت الراقصات يؤدين رقصة الاستعراض كما لو كان السيف مصلتا على رقابهن، ولا غرو فقد كان الجميع يعلمون أن عين النيابة تفحصهم خلال ميكروسكوب الاتهام، وبعد أن شاهد المحقق الاستعراض ورأى أنه لا يتنافى مع الآداب أو اللياقة أمر بالتقاط صورة لمشهد عام منه كي ترفق بأوراق التحقيق»، فكانت هذه الصورة التي ترى جميع الراقصات فيها بالحجاب الشرعي كأنك تشاهد برنامجا يذاع في قناة اقرأ.

انتهى بعض ما وجدته في أرشيفي، فهل انتهت رغبتك في تشغيل أسطوانة زمن الفن الجميل دائما وأبدا؟

صحيفة الدستور - ٢٠٠٦

سلطة وحشيش وجمبري

رغم كل الوقت الذي مضى على إعدام صدام حسين لا زلت أتلقى كل يومين أو ثلاثة رسالة على بريدي الإلكتروني يحلف مرسلها أن صدام حسين لا زال حيا ويرزق، وأن الأمريكان وقعوا في الخية التي نصبها لهم مهيب الركن عندما لبِّسهم شبيهه الذي زرعه في الحفرة إياها ليتفرغ هو لقيادة المقاومة. بينما يقسم مرسل رسالة أخرى أن صدام عقد تحالفا مع الأمريكان لتنفيذ عملية إعدامه كده وكده مصحوبة بتمثيلية الرقص الشيعية على جثته لكي يساعدهم في إشعال أجيج الفتنة الطائفية التي تعطيهم مبررا للبقاء في العراق. خلال الأيام الماضية اكتشفت أن الموضوع تجاوز إطار الهرتلة النتِّية ليجد له أنصارا وسط أصدقاء كنت أثق في رجاحة عقولهم، بعضهم حاول إقناعي بكتب وتقارير صحفية يقدم كل منها نظرية مختلفة تصب في معنى واحد أن صدام حي لم يمت.

ليس عندي تفسير لهذه الرغبة الجامحة في عدم تصديق موت صدام سوى أنه لكثرة ما أزهقه من أرواح ترسَّب في الوعي الجمعي

أن روحه لن تزهق بسهولة. وهو ما ذكرني بمعنى قاله في سياق المدح لا الذم عمنا المتنبي

حصدت من الأرواح ما لو وهِبته لهُنِّئت الدنيا بأنك خالد

قبل صدام وقبل المتنبي أيضا يحكي لنا التاريخ كيف يخلق الناس للطاغية تاريخا متخيلا يحولونه إلى حقيقة لا مراء فيها. ليس هناك من هو أشهر طغيانا في تاريخنا العربي من الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي يبدو إلى جوار طغيان صدام ملاكا حائرا، والذي أراح أهل زمانه أنفسهم من عبء مقاومة طغيانه بأن اخترعوا له قصصا تجعل سفكه للدماء أمرا نافذا لا سبيل لدرئه، فقالوا كما ينقل ابن كثير في البداية والنهاية إنه لم يرضع من ثدي أمه إلا بعد أن سقاه أهله دم جدي، مؤرخون آخرون قرروا أن يخلدوا الحجاج بشائعات تجعله مسخرة عصره فقالوا إن الحجاج ولد دون ثقب في مؤخرته وتم ثقبها خصيصا لكي يعيش، غيرهم كان أكثر حقارة - كما ينقل الدكتور رشيد الخيون في كتابه الممتع «طروس من تراث الإسلام» - فقرر أن يستأسد على والدة الحجاج قائلا إنها كانت مزواجة طلقها المغيرة بن شعبة لقذارتها؛ حيث كان الطعام يبات بين أسنانها، فتصحو كريهة الرائحة صباحا، ناهيك عن اتهامها بأنها صاحبة البيت الشعري الشهير:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

والذي سمعه سيدنا عمر فطرد نصر بن حجاج من المدينة، مع أن الغلبانة كانت تقيم في الطائف زمن عمر، لكن الناس قرروا أن يجعلوها تدفع ثمن طغيان ابنها.

بعيـدا عن لغو التاريخ أو صدقه يبقى الشـاهد أن الشـائعات يمكن أن تكـون سـبيلا إلـى إدراك كيف يرى الشـعب حاكمه. فـإذا كان يراه عاشـقا لظلم العباد وجدت الشـائعات تقول إن متعته الخالصة كانت في حضـور حفلات تعذيـب معارضيه التي كان يذهب إلى السـجون ليلا لحضورها. وإذا كان الشعب يراه هلّاسا عظيما وجدت الشائعات تقول إنه كان يحتفظ ضمن حاشـيته بموظف مختص بوضع الحشيش فـي البايـب الذي يشـربه. أمـا إذا كان يترقب رحيله بعـد طول مكوث وجدت الشائعات تعزو صحته إلى أنه يصحو كل يوم ليقضي ساعتين في غرفة مليئة بالأوزون الذي ربما اتخرم لكثرة اسـتهلاك الحاكم له، أمـا إذا كان يـرى أن الحاكـم همه علـى بطنه وجدت الشـائعات تقول إنـه يـأكل كل يوم على الريق إتنين كيلو جمبري مسـلوق، وإن هذا هو التفسير المنطقي لارتفاع أسعار الجمبري.

صحيفة الدستور - ٢٠٠٧

لا تدعوها فإنها مستمرة

للأسـف، البعـض يفكـرون هكـذا: إذا كنت قد فشـلت فـي تغيير الواقع لأنك لم تصل إلى الحكم، وإذا كان فشـلك في تطوير خطابك السياسي جعل الناس تنفض من حولك لتنشغل بمعاركها اليومية وأكل عيشـها الذي شـاركت في الثورة أو حتى تعاطفت معها من أجله، وإذا كان الناس مقتنعين مثلك بأن تيارات الشـعارات الإسـلامية لا تحمل لهم سـوى الأوهام لكنهم أيضا يريـدون بديلا معقولا ومقبولا وعملا جادا وسطهم ومعهـم، وأنت تعبت وزهقت ولـم تعد حمل ذلك، فماذا تفعـل إذن؟ بسـيطة جدا: إرمـي بلاك علـى الثورة، وانتـع تصريحات تقول فيها إن الثورة فشلت، وإنك في انتظار ثورة جديدة، حتى لو كان معنى كلامك أن الثورة الناجحة هي التي تصل بنا إلى الحكم، أما التي توصل خصومنا السياسـيين إليه فهي ثورة فاشلة بالثلث. لست أصادر حق أحد في السخط، لكنني أفهم أن يسخط على الثورة الذين تسببت الاضطرابـات الاقتصاديـة في قطع لقمة عيشـهم، أو الذين حلموا بأن تحدث تغييرا في ظروفهم فيختفي فورا ما يشـعرون به من فسـاد وقهر

وظلم، أما أن يكتب في هجائها وانتقاصها بعض من تربحوا منها وأعادتهم ثانية إلى مسرح الأحداث ليهبروا مبالغ فلكية بفضل الثورة التي كان أولى بهم لو لم يشكروها، أن يكفوها شر ألسنتهم التي تبخ الطاقة السلبية في كل اتجاه، على الأقل امتنانا لقيامها بتأمين مستقبل أولادهم وأحفادهم.

لكي يبدو كلامها منطقيا، تستخدم هذه الكائنات «البيضو إحباطية» كلاما من نوعية: «طبعا الثورة فشلت؛ لأن الثورة في كتب العلوم السياسية تعني التغيير الجذري، وإلى الآن لم يحدث تغيير جذري»، لو كان هؤلاء قد حكموا لسمعت منهم أن الكتب تقول إن التغيير الجذري لا يمكن أن يحدث علميا في أقل من ربع قرن كما يقول مثلا المفكر الأمريكي جين شارب الذي ألهمت أفكاره ملايين الحالمين بالتغيير حول العالم. كنت أتمنى أن يقول هؤلاء للناس إن المشكلة الحقيقية مع الإخوان ورئيسها ليست أنهم لم يحققوا تغييرًا جذريا؛ لأن ذلك يستحيل في ستة أشهر، بل المشكلة أنهم يعملون على هدم كل الطرق التي يمكن أن نسلكها لتحقيق التغيير الجذري، والذي لا يمكن أن يحدث أبدا من خلال قرارات فوقية تُلقى من على ظهر دبابة أو بالاستناد إليها وتُفرض بالقوة الجبرية فيزيط الناس فرحا بها ثم يصحون منها على نكسة مؤلمة تثبت لهم أنهم استبدلوا مَلِكا بعشرات الملوك، وأنهم انتقلوا من حكم الأسرة المالكة إلى حكم أسر المماليك الذي بدأنا منذ سنتين في الثورة عليه، ولا زال أمامنا الكثير حتى ننجح في الخلاص منه إلى الأبد.

في العادة يستخدم ناشرو الإحباط نموذج الثورة الأمريكية للإشارة إلى الثورة الناجحة التي تستطيع خلق تغيير جذري في المجتمع لأنها تمكنت من كتابة دستور يجمع الأمريكيين عليه وحوله، وبالتالي تكون ثورتنا قد فشلت بالثلث لأننا لم نستطع تحقيق ذلك في بلادنا المنكوبة بحاكمها الذي كذب على الشعب الذي وعده باتخاذ كل السبل الممكنة للحصول على توافق وطني حول دستور البلاد. لن أرد على هذا الكلام فقط بما سبق أن قلته: «من العبث أن تفرض على أي شعب إلى الأبد دستورا تم تمريره من خلال مناخ التخويف والتخوين والتكفير، فضلا عن التزوير»، بل سأستشهد بالثورة الأمريكية نفسها التي لم تصل إلى دستورها المنشود فور وقوعها كما يظن البعض، ولا يمكن أن ينبئك عن هذا من هو أفضل من المؤرخ الأمريكي العظيم هوارد زن الذي لا أكف عن نصح كل الباحثين عن الأمل أو المقتنعين بوهم النصر السريع بقراءة كتابه الرائع «التاريخ الشعبي للولايات المتحدة»، والذي صدر في جزءين عن المجلس الأعلى للثقافة بترجمة رائعة للأستاذ شعبان مكاوي.

يروي زن في كتابه كيف سادت الحيرة والمرارة نفوس الذين حلموا بتغيير جذري تحدثه الثورة الأمريكية في بنية المجتمع الطبقية، لكنهم رأوا أن ذلك لم يحدث، وأن كل ما جرى هو تغييرات على المجموعة الحاكمة، بعد أن تدهورت المكانة الاجتماعية للذين دفعوا ثمن ولائهم السابق للتاج البريطاني الذي انتصرت عليه الثورة، يرى إدموند مورجان أن «الطبقات الدنيا تم استغلالها في صراع بين

أفراد الطبقة العليا من أجل السلطة وحيازة المناصب»، ويعلق ريتشارد موريس على أمريكا التي يعيشها بعد الثورة قائلا: «لا يرى المرء سوى الظلم والتفاوت أينما ولى وجهه»، معتبرا أن كلمة «شعب الولايات المتحدة» التي جاءت في إعلان الاستقلال كانت أصلا من ابتكار جوفيرنر موريس فاحش الثراء، وأنها لم تكن تعني الهنود الحمر أو السود أو فقراء البيض أو النساء، فعدد الخدم بعد الثورة قد بلغ أعلى معدل له؛ لأن الثورة لم تفعل شيئا يخفف من حدة الاستعباد الأبيض.

إذن، حتى الثورة الأمريكية لم تحقق لمن شاركوا فيها تغييرا جذريا فوريا، لكن الأحرار منهم لم يستسلموا لهذا الواقع المرير، ستشعر بالإعجاب وأنت تقرأ وقائع استمرارهم في التمرد والانتفاض حتى يجني جميع الأمريكيين ثمار ثورتهم، وهو تمرد لم تتعامل الطبقات المسيطرة معه بتسامح، بل حاربته بكل ما أوتيت من قوة، وحده توماس جيفرسون الذي كان المؤلف الرئيسي فيما بعد لإعلان الاستقلال الأمريكي، الذي يفخر به الأمريكيون حتى الآن، هو الذي قرأ الواقع جيدا حين كتب مقولته الشهيرة: «إنني أؤمن أنه لشيء طيب أن يحدث تمرد صغير من وقت لآخر، إنه علاج ضروري لصحة الحكومة، وإني لأعوذ بالله من أن تمر علينا عشرون سنة دون وقوع تمرد، لا بد أن تُروى شجرة الحرية من وقت لآخر بدماء الوطنيين والطغاة، فتلك الدماء هي سمادها الطبيعي»، وهي مقولة يمكن أن تستبدلها ببساطة بجملة من كلمتين «الثورة مستمرة»، وهي الجملة التي أوصلت الأمريكيين إلى أن يكون لهم دستور يفتخرون به جميعا، وحتى عندما حدث ذلك لم يكن ذلك نهاية المطاف.

(٢)

تخطئ كثيرا إذا ظننت أن كفاح المصريين من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية والتقدم كان سينتهي بمجرد إقرار دستور يرضى عنه المصريون جميعا ويتوافقون عليه، فالتاريخ يعلمنا أنه ليس هناك ما هو أكثر من الفرص التي يمنحها الواقع بتعقيداته لصاحب السلطة لكي يشرع قوانين تمنحه الحق بأن يستبد بعد أن يلوي أعناق النصوص الدستورية لكي تحقق له ما يريد، حتى لو كانت واضحة وصريحة في حمايتها للحريات، فما بالك وهي ليست كذلك أصلا كما هو الحال لدينا؟! ستجد مصداقا لكل هذا وأنت تقرأ تاريخ الثورة الأمريكية كما يرويه المؤرخ والمفكر الأمريكي هوارد زن في كتابه الجليل «التاريخ الشعبي للولايات المتحدة» الذي أجدد تقديري دائما لمترجمه شعبان مكاوي، وناشره المشروع القومي للترجمة.

بعضنا يعتقد أن الثورة الأمريكية حققت كمالا فشلنا في بلوغه، بينما زن يصفها في فصل من كتابه بأنها «نوع ما من الثورة» وهو يروي كيف خضع الكونجرس الأمريكي للغضب الشعبي المتصاعد على الدستور الأمريكي، فأصدر سلسلة من التعديلات عليه عُرف باسم «وثيقة الحقوق»، تضمن أن تكون الحكومة حارسة لحق الشعب في التعبير والنشر، والعبادة والتجمهر، والحق في محاكمة عادلة، والشعور بالأمن ضد التدخل الرسمي، وفي حين بدا ذلك حلا نهائيا لكل مخاوف الأمريكيين من تقييد حرياتهم، فإنه بعد أن أصبح التعديل الأول جزءا من الدستور بسبع سنوات، أصدر الكونجرس

نفسه قانونا يحد بوضوح شديد من حرية التعبير، هو قانون التحريض على العصيان الذي صدر عام ١٧٩٨ أثناء ولاية جون آدامز، والذي نص على أنه يصير مجرما كل من يقول أو يكتب شيئا مزيفا أو خطرا أو فضائحيا ضد الحكومة أو الكونجرس أو الرئيس بهدف تشويه سمعتهم أو إثارة الكراهية ضدهم، ورغم أن هذا القانون قد بدا منتهكا للتعديل الأول الدستوري فقد تم تطبيقه؛ حيث سُجن عشرة أمريكيين لتفوههم بعبارات ضد الحكومة، ورأى جميع أعضاء المحكمة الدستورية العليا أن ذلك من صميم الدستور، مستندين إلى تخريجات قانونية تقضي بأن الحكومة وإن لم تستطع أن تمارس وضع قيود مسبقة كمنع متحدث من الحديث أو كتاب من النشر فبإمكانها أن تعاقب المتحدث أو الكاتب قانونيا فيما بعد، وبالتالي اتضح أن التعديل الأول الذي فرح به الناس لم يكن له قيمة في أرض الواقع، وأصبحوا بحاجة إلى مواصلة الكفاح من أجل تأمين حرياتهم.

ما يؤكده لك هوارد زن وهو يروي مئات الوقائع المدهشة عن نضال الأحرار الأمريكيين عبر عشرات السنين لانتزاع حقوق العمال والنساء والسود والهنود الحمر والفقراء والمعدمين، أن من يتصور أن الدساتير ستكون كافية لتحقيق أحلام الشعوب فهو واهم، فالنصوص رائعة الصياغة الموجودة في الدستور الأمريكي بتعديلاته لم يكن لها صدى على أرض الواقع عندما تولى أمر تفسيرها محكمة دستورية تنحاز للصفوة الحاكمة، «فكيف يمكن لها أن تكون مستقلة وأعضاؤها يختارهم الرئيس الأمريكي بنفسه ويصدق مجلس الشيوخ على ذلك الاختيار؟! كيف تتصف بالحياد بين الأغنياء والفقراء

بينما غالبية أعضائها محامون أثرياء سابقون، وعادة ما ينتمون إلى الطبقات العليا؟!».

لقد استطاع ترزية القوانين وأصحاب المصالح عبر السنين المتعاقبة أن يُحولوا النصوص الدستورية البراقة إلى أضحوكة، فقد قاموا كما يرصد زن بتكريس المدارس والكنائس والثقافة الشعبية لإقناع كل من يمتلك سببا للانتفاض والثورة بأن كل شيء على ما يرام، وأنه لا بد من قبول الأمور كما هي، وأن الفقر ليس إلا فشلا شخصيا يمكن أن تتغلب عليه بالحظ الاستثنائي، وتم توظيف آلة القمع بالقانون لتأديب كل من يعارض سياسات تكريس الفقر وتركيز المصالح في أيدي طبقة بعينها. كل هذا هو ما جعل هنري ديفيد ثورو صاحب نشرة «العصيان المدني» التي أصبحت تحتل مكانة خاصة في وجدان الأمريكيين منذ إصدارها في ١٨٤٦ يصرخ قائلا: «ليس من التضليل أن نزرع في الناس احترام القانون بالقدر الذي نزرع فيهم احترام الحق، لم يجعل القانون الناس في أي يوم من الأيام أكثر عدلا، بل إنه عن طريق احترام القانون، يتحول الناس يوميا حتى من يملكون النوايا الطيبة إلى أدوات للظلم»، هذه العبارات التي أثارت الاستنكار والسخط وجلبت لصاحبها العقوبة والأذى، لم تمت بموت صاحبها، بل ساهمت هي وكلمات وأفعال ودماء ودموع كثيرة في زيادة الوعي الشعبي بأهمية اليقظة المستمرة ضد صياغة المتلاعبين بالصياغات الدستورية لتحقيق مصالح من يحكم، وهي معركة لم ولن تنتهي أبدا، وإذا كانت هناك مكاسب قد تحققت للمواطن الأمريكي العادي في أي مجال من مجالات حياته فهي لم تكن بفضل المبرراتية والمثبطاتية

والمطبلاتية وهواة تكسير مقاديف الشعوب الذين يعتبرون ما تقدمه الدساتير دائما غاية المراد من رب العباد، بل كان بفضل الساخطين والمتمردين والرافضين والمطالبين بألا يصبح للأحلام سقف أبدا.

لست أرجو مما أقوله إلا أن ألفت انتباهك إلى كذب الكائنات البيضوإحباطية التي تحاول الترويج لدعوى فشل الثورة المصرية مستغلة غياب المعرفة التاريخية بالإشارة الدائمة إلى نموذج الثورة الأمريكية بوصفه نموذجا يستحيل علينا الوصول إليه، وهو ما ستكتشف لو قرأت وبحثت عدم صحته، فنحن حققنا الكثير، لكن لا يزال أمامنا الكثير لكي نحققه لو تذكرنا دائما أنه بالكفاح وحده تشتفي الأرواح ويتحقق الانشراح، ونرتاح نحن من اللجوء الدائم إلى انشراح أيضا.

(٢)

لا الحكاية عافية، ولا نجاح الثورات بالتمني، ولا فشلها يمكن إعلانه غلابا، ولا سبيل لإصدار حكم على فعل إنساني ضخم كالثورة بالفشل أو بالنجاح إلا بالاسترشاد بالعلوم الاجتماعية والإنسانية كي يكون لأحكامنا قيمة وحجية، مع مراعاة أن الثورة أصلا ليست في حاجة إلى شهادة من أحد أصلا بأنها نجحت أو فشلت، سواء كان بيضو إحباطيا أو متفائلا محلقا، حسن النية أو متسخ الطوية.

للعالم الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه البديع «روح الثورات» الذي لا أمل من إعادة قراءته شاكرا لمترجمه عادل زعيتر ولدار الكتب والوثائق القومية التي أعادت نشره عقب الثورة مباشرة، عبارة بديعة تقول: «الناس عقب الثورات محكومون بنفسياتهم أكثر من واقعهم»، ولذلك تزداد دائما أهمية التذكير بالبديهيات التي يمكن أن يغفل عنها الناس عندما تصيبهم نوبات الذعر التي يمكن - إذا لم يسيطروا عليها - أن تفضي بهم إلى هلاك محقق ربما لم يكن ليحدث بسبب ما أصابهم بالذعر.

في ظني، البديهية التي نحن بحاجة إلى تذكرها والتذكير بها دائما هي أن إسقاط رأس نظام لا يعني أبدا سقوط العقلية التي حكم بها لسنوات طويلة وجعلها تترسخ في عقول الناس وتفكيرهم، إذا كان خلقك ضيقا وقلت لي. ومن قال لك أصلا إني في حاجة إلى أن تذكرني ببديهية كهذه؟ فأنت لست معنيا بقراءة كلامي، وعليك أن تنصرف عنه إلى ما لا يهدد المناطق القابلة للانفجار في جسدك، أما إذا كان خلقك ضيقا أيضا (صعب أن تجد إنسانا سويا في مصر ليس كذلك)، لكنك تشعر بحاجة إلى تذكيرك بهذه البديهية لأنها تشبه ما يبيعه تجار التنمية الذاتية من هراء عاطفي، فدعني أنصحك بأن تقوي نفسك بقراءة كتاب شديد الأهمية للمفكر الأمريكي جين شارب عنوانه «من الدكتاتورية إلى الديمقراطية - نحو إطار تصوري للتحرر»، وهو كتاب لم يفقد أهميته التي أدركها البعض قبل تفجر الثورات العربية، لأنه يكتسب أهمية جديدة الآن، هي أهمية التذكير بالبديهيات.

في الكتاب الذي ستجد نسخة شرعية مجانية منه على الإنترنت يقول جين شارب وهو يدفعك إلى تأمل ما أنجزته ثورتنا حتى الآن: «لا يعني انتهاء نظام دكتاتوري أن جميع المشاكل التي خلفها ستنتهي، فسقوط نظام معين لا يخلق المدينة الفاضلة، بل يفتح المجال أمام عهود طويلة لبناء علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية عادلة، وإلى القضاء على أشكال اللاعدالة والاضطهاد الأخرى. لقد استطاع تحدي الشعوب الذي تميز في الغالب باللا عنف منذ عام ١٩٨٠ إسقاط الأنظمة الدكتاتورية في إستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبولندا وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا وسلوفينيا ومدغشقر ومالي وبوليفيا والفلبين، لكن من المؤكد أن انهيار الأنظمة الدكتاتورية لم يحل جميع المشاكل الأخرى في هذه المجتمعات كالفقر والجريمة وعدم الفعالية البيروقراطية وتخريب البيئة؛ فذلك ما تورثه الأنظمة القمعية. لكن سقوط هذه الأنظمة الدكتاتورية كان له الحد الأدنى من تخفيف معاناة ضحايا القمع، وفتح الطريق أمام إعادة بناء هذه المجتمعات بوجود عدالة اجتماعية وحريات سياسية وديمقراطية وشخصية».

أعلم أن البعض يدرك هذا البصيص من الأمل، لكنه أيضا يخاف من أن نجد مصر وقد انزلقت نحو نظام دكتاتوري أشد خطورة وفتكا من الذي سقط رأسه قبل عامين، علمني الليمون ألا ألوم أحدا على خوفه، لكن أتمنى أن تقرأ فصلا بديعا في كتاب شارب عنوانه «من أين تأتي السلطة؟»، يتحدث عن المصادر الضرورية لاستمرار أي سلطة سياسية، والتي يأتي على رأسها ضرورة وجود توافق بين الناس على شرعية النظام، وإيمان بأن طاعته واجب أخلاقي، وهو توافق لو تعرض

للشرخ فلا سبيل لأي حاكم لمواجهته إلا بإصلاحات جذرية سريعة وفعالة تكفل استعادة توافق الناس على شرعيته. هنا يستشهد شارب بقصة صينية عنوانها «سيد القرود»، لا أعتقد أن الدكتور محمد مرسي سيحبها كما أحب فيلم «كوكب القرود»، يقول مؤلف القصة في نهايتها: «يحكم بعض الرجال شعوبهم باتباع الخدع، لا المبادئ الأخلاقية، هؤلاء الحكام يشبهون سيد القردة، فهم لا يعون تشوش أذهانهم، ولا يدركون أنه في اللحظة التي يدرك الناس أمرهم ينتهي مفعول خداعهم».

دعك من كل ما قاله جين شارب، وما قاله من قبله هوارد زن، ومن كل ما يؤكد عليه كل علماء السياسة والاجتماع من أنه لا يمكن لحاكم أن ينجح دون أن يكون هناك أكبر قدر من التوافق على شرعية بقائه، حتى وإن كان هناك خلاف حاد حول سياساته، دعك حتى من كل أسئلتك عما سيحدث يوم ٢٥ أو ٢٦ في أي شهر من أي عام، حاول أن تتأمل الواقع من حولك بعين الأمل، حاول أن تحتفي بكل تفاصيل التغيير التي حققتها الثورة: كسر هيبة الفرعون ومؤسساته الفرعونية، قوة الشارع التي يجسدها ذلك الشعار الساحر «خافي مننا يا حكومة»، تواصل انكشاف المتاجرين بالشعارات الدينية، تزايد الوعي السياسي بشكل يجتذب إلى العمل السياسي بشقيه المنظم والفوضوي المزيد من المصريين كل يوم. حاول أن تتذكر أن أجيالا كثيرة عاشت وماتت وهي تحلم برؤية مجرد بشائر لهذه الإنجازات، حاول أن تكون يدا تدفع عجلة الثورة بدلا من أن تكون مسمارا في طريقها، أو حملا زائدا يكبس على أنفاسها.

هذه ليست محاولة لنشر التفاؤل المفرط، ولا لهجاء الحذر اللازم، بل مجرد محاولة للانتصار لثورة يحكم البعض من حرقة قلبه المحب لها بأنها فشلت، بينما هي لم تفشل؛ لأنها ببساطة ما زالت مستمرة، فلا أملي سيجددها ولا إحباطه سيوقفها، بل وحده زوال أسبابها من أرض الواقع هو ما سيحدد استمرارها من عدمه.

أقول قولي هذا ثم أبتهل داعيا: «اللهم عليك بالكائنات البيضو إحباطية، أما الإخوان والسلفيون.. فالواقع كفيل بكسر غرورهم».

(نشرت على ثلاثة أيام في صحيفة الشروق من ١٢ - ١٤ يناير ٢٠١٣)

دستور ولا كل الدساتير

مثلما أثبت الواقع للكثيرين وَهْم شعار «الإسلام هو الحل»؛ لأن ما ينسبه أي حزب سياسي إلى الإسلام ليس سوى رؤيته البشرية الخاصة التي لا يصح نسبتها إلى الإسلام، يوما ما سيثبت الواقع للكثيرين وَهْم شعار «الدستور أولا»، لأن أي رؤية مسبقة تُفرض على مجتمع ستفشل مهما كانت عبقرية واضعيها، فلن ينصلح حال أي مجتمع إلا بعد خوضه لتجارب طويلة ومريرة من الصراع والجدل مع الواقع والتطاحن بين الرؤى المختلفة، حتى ينتهي ذلك بتوافق كل القوى الفاعلة في المجتمع على مبادئ للعيش المشترك يتم توريثها للأجيال القادمة التي سيكون من حقها تعديل هذه الرؤية طبقا لما يستجد على واقعها.

بعض الذين يرون أن الثورة المصرية لن يُكتب لها النجاح إلا إذا نجحت في وضع دستور تسير عليه الأجيال القادمة، يستشهدون بإعلان الاستقلال الأمريكي الذي يفاخر به الأمريكان شعوب الأرض، ويعتبرونه أهم ثمار ثورتهم، والركيزة الأساسية التي بنوا عليها تقدمهم، وهؤلاء ربما لم يقرءوا كتاب المؤرخ الأمريكي هوارد زن

«التاريخ الشعبي للولايات المتحدة» - صدر بترجمة لشعبان مكاوي عن المجلس الأعلى للثقافة - والذي ستكتشف عند قراءته أنه قبل إعلان الاستقلال صدرت أكثر من ٤٠٠ وثيقة ونشرة دستورية تمت كتابتها خلال ٢٥ عاما، وكل من هذه الوثائق والنشرات كان يقدم محاولة لحل مشاكل المجتمع الأمريكي، وبعد نجاح قصير كان يفشل ليفرض الواقع المتغير وثيقة أخرى تفشل بدورها، حتى تم الوصول إلى إعلان الاستقلال الذي تم تأكيد ما كفله من حقوق وحريات عندما صدر التعديل الأول للدستور المعروف بوثيقة الحقوق، والتي اعتبرها الأمريكان تاجا يفاخرون به الأمم، ومع ذلك فبعد سبع سنوات من صدور تلك الوثيقة أصدر الكونغرس قانون العصيان الذي وقَّعه الرئيس جون آدامز والذي يقضي بتجريم كل من يقول شيئا خاطئا أو فضائحيا أو شريرا ضد الحكومة أو الكونجرس أو الرئيس بنية تشويه السمعة، يقول هوارد زن معلقا على ذلك: «كأن التاريخ يريد أن يعلمنا بصدور هذا القانون أهم درس. في العالم الحقيقي، الوعود الدستورية شيء والحقائق السياسية شيء آخر، وبالرغم من لهجة القانون التهديدية المرعبة وسجن بعض المعارضين لاحقا بسببه، إلا أن زوايا الصحف والنشرات شجبته بشدة، وكان على رأس الشاجبين جيمس ماديسون الذي هاجم قضاة المحكمة الدستورية الذين سمحوا بالقانون، وعرف بلقب «أبو الدستور»»، والذي أصبح بعد ذلك رابع رئيس للولايات المتحدة الأمريكية، وساهم في وضع دستور الولايات المتحدة الذي تم إدخال تعديلات متتالية عليه عبر السنين، كان وراء كل تعديل منها نضال طويل ومرير.

وبرغم فخر الأمريكان بتاريخهم الدستوري، سنجد أن أشهر مجلة أمريكية، هي مجلة التايم، اختارت في ٤ يوليو ٢٠١١ أن تشارك الأمريكان احتفالهم السنوي بدستور بلادهم بملف خاص وضعته على غلافها وحمل عنوان «هل الدستور مهم حقا؟»، استعرض أبرز الجرائم التي ارتكبتها السياسة الأمريكية من سجن أبي غريب وجوانتانامو إلى إنرون جيت وحرب فيتنام، ووضعت تحت كل منها نصين مختلفين من الدستور أحدهما يؤيد تلك الجريمة والآخر يرفضها، في إشارة ذكية إلى أن النصوص الدستورية مهما كانت رائعة فلن تحمي بالضرورة شعبا من الاستبداد أو الفساد. وهو ما كتبت عنه في يونيو ٢٠١٢ في مقال ختمته قائلا: «أرجوك تذكر أن أي دستور في الدنيا لن يعيش طويلا إلا إذا جاء عبر توافق وطني شامل، وإلا فإنه يصبح مصدرا للقلق والتوتر بدلا من كونه دعامة للبناء، لأن أي دستور يأتي بعد ثورة فيقوم بانتقاص مطالبها أو الالتفاف على أهدافها هو دستور ميت قبل أن يولد».

عندما تقول هذا الكلام للبعض يركبهم مائة عفريت، وينهالون عليك شتما وتخوينا لأنهم يظنون أن هناك نصا ما يمكن أن يضمن للناس السعادة والتقدم، ولا بأس، سيأتي اليوم الذي سيدرك فيه هؤلاء وغيرهم أن ما يجب أن يكون أولا هو العدالة الاجتماعية والتنمية الشاملة؛ لأن الإنسان في ظلهما سيصبح إنسانا أفضل برغم كل التحديات، وعندها فقط سيدافع بشراسة عن حرياته وحقوقه، ولن يسمح لأحد بأن ينتهكها، ولن يستطيع أحد أن يضحك عليه باسم الشعارات الدينية أو القومية أو الليبرالية أو اليسارية، وسيدرك أهمية العيش المشترك مع من يختلفون معه في الرأي لأنه أصبح يمتلك

ما يخاف عليه ويسعى للحفاظ عليه، وعندها فقط سيهتم بأن يتوافق مع غيره على مبادئ تحكم حياته وحياة أبنائه وأحفاده من بعده.

عندما قرر جمال عبد الناصر أن يرمي في صندوق القمامة دستور ١٩٥٤ الذي كان واحدا من أفضل الدساتير الضامنة للحقوق والحريات (انظر كتاب الأستاذ صلاح عيسى: دستور في صندوق القمامة)، وقام بتقييف دستور ١٩٥٦ على مقاسه كزعيم ملهم، كتب عمنا بيرم التونسي أغنية لحنها محمد الموجي وغناها فيما بعد محمد قنديل تقول. «دستور ولا كل الدساتير متحرر أحسن تحرير ولا فيهشي مأمور وأمير ولا فيهشي صغير وكبير.. دستور ولا كل الدساتير»، وبعدها بعامين سقط ذلك الدستور لكن الأغنية بقيت صالحة للاستخدام في إذاعات الثورة تصف كل الدساتير المتعاقبة بأنها «دستور ولا كل الدساتير.. ما فيهشي مأمور وأمير»، في حين كان الواقع المرير يشهد أسوأ انتهاكات حقوق الإنسان، وكبت الحريات، ومصادرة إرادة الإنسان لصالح إرادة «جمال مثال الوطنية»، وعندما وقعت هزيمة ١٩٦٧ كالصاعقة، واكتشف العقلاء خطورة تسليم إرادة الشعب كاملة لحاكم فرد مهما بلغت نظافة يده وعظمة أحلامه، لم يعد أحد - عاقلا كان أو مغيبا - يتذكر أغنية «دستور ولا كل الدساتير»، ولا كل الدساتير التي استخدمت للتغني بها، تماما كما لن يتذكر أحد كل المدائح التي ستقال في مديح أي دستور لا يكتبه الشعب بنفسه بعد أن يطلع عينه في التوافق على ما به من مبادئ.

وقديما قالوا: كله بيطلع في الغسيل؛ غسيل الواقع، حتى الدساتير

صحيفة الشروق - يوليو ٢٠١٣

حكاية أثناء النوم

فجأة قرر حاكم مصر أنه يريد برلمانا بلا معارضة، فجأة قرر أنه لا يرغب في سماع أصوات تزعجه، فجأة شعر أن اللعبة الديمقراطية لم تعد تبهجه، فجأة شعر أن المصريين لم يعودوا يستحقون الحرية التي كان يعتقد أنه الذي منحها لهم، ولذلك أصدر أوامره إلى رجاله في الإدارة والأحزاب معا أن ينفذوا رغبته بأي شكل، حتى لو كانت الطريقة مزرية وقميئة ولا أخلاقية.

لا أحد يعرف متى جاءه هذا القرار بالضبط، ولا من الذي أشار به عليه، ولا كيف شعر أن حلفاءه الغربيين لأسباب تخصهم لن يكونوا مهتمين بأي تزوير يحدث في الانتخابات، لا أحد سأله هل درس هذا القرار جيدا، هل فكر في أن انفراده بالسلطة سيكون حقا في مصلحة البلاد، هل أدرك كم هو موحش وخطير ألا يسمع الحاكم إلا أصداء صوته، بالطبع لم يفكر أحد من رجاله في الحصول منه على إجابة لأي من تلك الأسئلة، فهم جميعا يعلمون أنهم خلقوا في دنياه لكي يطيعوه، كل ما كان يهمهم أن ينالوا رضاه حتى لو استحقوا سخط الله وسخط

الناس، للأمانة هم لم يكونوا يخافون من سخط الله فهم يعتقدون أنه غفور رحيم، يمكن أن يسامحهم لأنهم عاثوا في البلاد فسادا فقط إذا تقربوا إليه بعدد من الحجات والعمرات والصدقات، وهم أيضا لم يكونوا يرون أن الخوف من سخط الناس أمر يستحق أن تلقي إليه بالا؛ فالناس لن يعرفوا مصلحتهم مثل ما يعرفها الحاكم ورجاله.

يومها صدرت الأوامر بأن يسقط كل رموز المعارضة في دوائرهم أيا كان الثمن، وكان رجال الإدارة يقولون للناس جهارا نهارا إنه ليس من المعقول أن نخالف الأوامر السامية بعد كل ما قدمه القصر للبلاد، وإنه يجب أن يعلم الجميع أن جلالة الملك الشاب لن يفتتح برلمانا فيه معارضون يكرههم أبوه جلالة الملك فؤاد، لماذا أنت مستغرب؟ أنا أحدثك عن انتخابات عام ١٩٣٨ التي جرت في ظل عهد الملك الشاب القادم حديثا من الخارج بعد سنوات من التعليم قضاها في لندن، هل ظننت أنني أتحدث عن أحد آخر أو عن انتخابات أخرى لا سمح الله؟ هل كان ينبغي أن أخبرك بذلك منذ الأول لأنك شأن الكثير من أبناء بلادنا حكاما ومحكومين لا نحب قراءة التاريخ ونستثقل دمه، ونظن أن التاريخ ليس سوى أرقام سنوات مرتبطة بأحداث، وأسماء حكام نحفظها لكي نصبها على ورقة الامتحانات ونحن تلاميذ، ولا ندرك أن التاريخ يحمل إجابات لكل أسئلة الواقع.. ولكن لمن أراد لها حلا.

عموما أنت تعلم عماذا أتحدث الآن، لكن هل تعلم أن تلك الانتخابات شهدت واقعة برلمانية غير مسبوقة في تاريخ المجالس النيابية في العالم كله، يومها كان حزب الوفد حزبا عظيما وليس

«هفقـا»، وكان يرأسـه زعيم عظيم ملو مركزه اسـمه مصطفى النحاس كان المصريون يعتبرونه زعيمهم الحقيقي، ولذلك عندما أصدر الملك أوامره لرئيس وزرائه علي ماهر بضرورة إسـقاط النحاس شخصيا في دائرتـه سـمنود بالغربية لتمريغ أنـف الوفد في التراب، قـرر الوفديون أن يتحـدّوا إرادة الملـك بحيلة غير مسـبوقة اقترحها شـاب انضم إلى الوفد حديثا اسـمه فؤاد سراج الدين، كانت الفكرة أن يتقدم النحاس، في آخر لحظة قبل قفل باب الترشـيح بأوراقه كمرشح في دائرة أخرى اسمها الزعفران يضمن سراج الدين بحكم ما له فيها من أطيان وأنصار ألا يتقدم فيها مرشـح منافس للنحاس أبدا، وبالفعل تقدم سراج الدين بأوراق ترشـيح النحاس في السـاعة الخامسة إلا خمس دقائق من يوم قفل باب الترشيح، وتأكد من قفل باب الخزينة دون أن يتقدم للنحاس منافـس في الدائرة، وعندما وصل الخبر إلى القصر صدر أمر من فريد أبو شـادي مديـر الغربية المنتـدب بفتح الخزينة وإحضار أي شـخص مـن البلد وتقديم أوراق ترشـيح لـه ودفع أي تأمين فـورا حتى لو كان هذا الرجل نكرة لا يعرفه أحد، وبالفعل لم يعدم رجال القصر شخصا يبيع نفسه من أجل المال، والشهرة أيضا، فهو سيكون منافسا للنحاس باشـا بجلالة قدره، وكُتب التاريخ تقول إن هذا الشـخص اسمه محمد سـعيد، لكنها لا تذكر عنه أي معلومات أخرى، ربما لأنه لم يكن لديه فعـلا معلومات أخرى يمكـن أن يذكرها أحد، وربمـا لذلك قال فؤاد سـراج الدين للنحاس إن ما حدث أمر ليس له أي قيمة لأن كل من في الدائـرة هم إما مسـتأجرون لديه وإما عمال فـي مزارعه، وأنهم جميعا يحبون النحاس، ولن تجدي أي ضغوط تمارس عليهم.

في يوم الانتخابات شهدت مصر مهازل لم يسبق لها مثيل في تاريخ برلماناتها، وصلت إلى حد أن يقوم شيخ بلد كفر الثعبانية، أحد أكبر مراكز دائرة سمنود، ومعه عدد من الخفراء (الذين كانوا يلعبون دور البلطجية يومها) باقتحام سيارة النحاس أثناء توجهه لتفقد الدائرة، وقاموا في حضوره بضرب مندوبه في الكفر بهراوة على رأسه ثم اختطفوه في حضور النحاس المذهول مما يجري، وعندما ذهب النحاس إلى وكيل النيابة الذي يراقب الانتخابات وأبلغه بأن شيخ البلد نبيل غنيم قام بكذا وكذا، تم استدعاء شيخ البلد الذي أنكر ما حدث جملة وتفصيلا، بل وقام بإحضار فلاح طاعن في السن يرتدي ملابس بالية، وقال إنه والد مندوب النحاس، وعندما سألوه عن مكان ابنه قال لهم إنه مسافر إلى القاهرة منذ يومين، قالوا له: لكن النحاس باشا يقول إن ابنك كان معه وتم شج رأسه وخطفه، فأنكر الأب ذلك تماما، ووجد النحاس نفسه يواجه تهمتَي الكذب وإزعاج السلطات، لولا أن وكيل النيابة كان رجلا شريفا وأدرك ما حدث فأغلق المحضر.

كانت الأخبار تتوالى إلى قيادة الوفد من كافة أنحاء البلاد بسقوط قتلى وجرحى على أيدي رجال البوليس، واختطاف صناديق الانتخابات من داخل مراكز الاقتراع، والاعتداء من قِبل الخفر والعساكر على رجال الوفد الذين حاولوا حماية الصناديق بشراسة وقرروا الاستمرار في ذلك مهما كلفهم من تضحيات، وعندما وصل إلى النحاس أن عددا من كبار رجال الوفد الذين كانوا ينجحون في كل انتخابات بالتزكية مثل مكرم عبيد في قنا وعبد الفتاح الطويل في الإسكندرية، وأمين الوكيل في دمنهور، وأمين الإتربي في أخطاب، تم الإعلان عن سقوطهم بنتائج

مزرية، أصدر النحاس أوامره إلى كل رجال الوفد بأن ينصرفوا فورا ويتركوا صناديق الانتخابات لرجال البوليس والإدارة لكي يزوروا فيها كما يشاءون.

عاد النحاس إلى القاهرة، وبدأت تتوالى تباعا نتائج سقوط مرشحي الوفد والمعارضة في كل الدوائر، وبقيت دائرتا سمنود والزعفران اللتان ترشح فيهما النحاس فلم تعلن النتيجة فيهما، ويقولون إن علي ماهر كان يحاول إقناع الملك بضرورة إعلان نجاح النحاس في أحدهما غسلا لسمعة البرلمان القادم، لكن إرادة الملك تغلبت وصدر في ساعة متأخرة من الليل بيان من الداخلية يعلن أن النحاس زعيم الأمة سقط في دائرتَي سمنود والزعفران، أي أن الشعب المصري قرر من أجل مستقبله أن يختار محمد سعيد بدلا من مصطفى النحاس.

يومها لم يسقط النحاس وحده فقط، بل سقط كل رجال المعارضة الذين قدموا أداءً نيابيا راقيا كانت مصر تفتخر به وقتها، وفي المقابل شهد ذلك المجلس أعلى نسبة من كبار ملاك الأراضي قياسا على الهيئات البرلمانية السابقة، بل ووصلت نسبتهم في الوزارة التي تشكلت عقب الانتخابات إلى ٦٦ في المائة من الوزراء كما يقول الدكتور عاصم الدسوقي في دراسته عن دور كبار الملاك في الحياة السياسية المصرية، وهي نفس الوزارة التي قام بتشكيلها محمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين الذي كان يضم أكبر عدد من المثقفين المدافعين عن الليبرالية والديمقراطية والتقدم، وبرغم رضا وزارته بأن تكون ألعوبة في يد الملك لضرب إرادة

الشعب فقد أصر الملك على إهانتها بأن رفض قائمة الوزراء التي تقدم بها محمد محمود عشر مرات، ولم يقبل بها إلا في المرة الحادية عشرة لكي يوصل رسالة قوية إلى البلاد كلها بأنه لن يسمح بأن يعلو صوت فوق صوته.

لا شك أن الملك كان سعيدا جدا للغاية في تلك الأيام، لا شك أنه كان يضحك ملء شدقيه، لا شك أنه كان يشعر أنه قام بضرب قادة المعارضة على أقفيتهم، لا شك أن أجهزته الأمنية كانت ترفع له تقارير عن غيظهم وحنقهم وخيبة أملهم، لا شك أنه لم يفكر ولو للحظة في خطورة ما فعله على مستقبل البلاد لأنه يرى أنه هو وحده مستقبل البلاد، لكن يا ترى هل تذكَّر الملك كل ذلك وهو يبحر فوق يخته الملكي مطرودا من عرشه وبلده بعد قيام ثورة يوليو التي بدورها استغلت ذلك النوع من الانتخابات ذريعة لإلغاء التمثيل النيابي كله على بعضه؟ يا ترى هل قال الملك لنفسه ما الذي كان سيجري لو احترمت إرادة الأمة، ولم أحول الديمقراطية إلى لعبة سخيفة، ولم أسحق الفقراء والبسطاء لصالح الأغنياء والإقطاعيين؟

هل فكر الملك في ذلك كله؟ لا أحد يعلم ذلك إلا الله، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

صحيفة المصري اليوم - ديسمبر ٢٠١٠

رسائل إلى ثائر حائر

نحـــن الآن نعيش تـلك الأيـــام التـي تأكل فيها الثـورات أبناءها، فلا تدع ثورتك «تاكلك».

كان الكثيـرون مـن أبناء هذه الثـورة يتعاملون مع جملـة «الثورات تـأكل أبناءها» باسـتخفاف لأنهم يعتبرونها قادمة من عصور المشـانق والمقاصـل التـي لـم يعـد لها مكان فـي زمانـا، لكنهم لـم يدركوا أن معنـى العبـارة أعمق مـن الأكل بمفهومـه المادي القمعـي، فالثورات تـأكل معنويـا أبناءهـا الذين لا يدركـون تقلبات الخلق أيـام الثورات، ولا يكونون مسـتعدين للتعامل مـع تلك التقلبـات العنيفة التي تجعل المـرء يصبـح ثائرا ويمسـي خائـرا، ليس بتغييـر جلودهـم وفقا لتلك التقلبـات، بـل بفهم أسـبابها والتعامـل الإيجابي معها، حتـى لا يأكل الثائر نفسه من الغيظ، وهو يرى أناسا تخاطبه بكلام من نوعية «خربتوا البلد.. كان ماله مبارك؟! ما كنا عايشين وراضيين».

أنت تـدرك أن نغمة الحنين إلى الماضي المباركي تتصاعد بانتظام فـي هذه الأيـام التي «مـش عارفين نعيشـها» بفضل الجريمـة الكبرى

التي ارتكبها الإخوان عندما سمح غباؤهم السياسي باختلاط الحابل بالنابل في ميادين مصر، ليمنحوا الفرصة للموقوذة والمتردية والنطيحة لادعاء الثورية والوطنية، لكن لا تتوقع من هذه النغمة الكريهة أن تختفي سريعا، فهي على العكس مرشحة للتصاعد، يكفي أن تشاهد حديثا تلفزيونيا لأي قيادي إخواني، لتدرك أن هؤلاء القوم اختاروا أن يعيشوا في أكبر حالة إنكار مَرَضية يشهدها الطب النفسي في تاريخه، وكلما زاد عنادهم في إنكار الواقع زادت صعوبة مهمتك في مواجهة تقلبات الواقع الكريهة.

يا صديقي، عندما يغني كلّ على ليلاه، تمسك بذاكرتك فهي سلاحك الوحيد، وتذكر أن ليلى التي ضحيت بروحك من أجلها هي مصر الحالمة بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية، ولذلك لا تدخل في مناقشات عبثية تستهلك طاقتك الإيجابية، ولا تضيع عمرك وأنت تحاول إقناع الذين اختاروا العبودية بأن كل ما نشكو منه من فضلات لم يخرج إلا من مؤخرة نظام مبارك، وأنه لا سبيل لنا لكي نحظى بالتقدم والرخاء إلا بتفكيك القنابل المفخخة التي تركها لنا نظام مبارك ، تذكر أن من ترغب في إقناعه ببديهيات كهذه، ربما كان يحتفل مع مبارك وأنجاله بكأس الأمم الإفريقية في اليوم التالي لغرق عبَّارة ممدوح إسماعيل وعلى متنها ألف ومائة مصري في قاع البحر الأحمر، وأنه بالتأكيد لم يكن يجد أدنى أذى في كونه يعيش في وطن يتم فيه انتهاك كرامة الناس وتعذيبهم وهتك عرض حريمهم ونفخهم وصعقهم بالكهرباء، لذلك هو يرى الحل لكل ما نحن فيه أن يعود ثانية ذلك العهد المبارك ليفعل ذلك بمن يكرههم من رافعي الشعارات

الإسلامية، دون أن يسأل نفسه: «إذا كان ذلك حلا فلماذا ظللنا نحتفظ بمشكلة انتشار تيارات الشعارات الإسلامية في بلادنا برغم كل ذلك القمع؟»، ومثل هذا لا تحاول أن تسأله: «كيف تدَّعي أنك تحارب الفاشية الدينية وكل ما يخرج من فمك ليس سوى فاشية وعنصرية واستعلاء على البشر، وكسل عن مواجهة تعقيدات الواقع واستسهال للقمع والتعذيب»، لا تسأله كيف تشجع الميليشيات التي تحرق ممتلكات الناس وتعتدي على المدنيين دون أن تفكر أنها سلاح ذو حدين يمكن أن يستخدمه من يعارضك الرأي، صدقني لا أمل بإقناع هذا، فقط اترك الواقع لكي يلقنه نفس الدرس الذي سيلقنه للمتطرف الإسلامي، ذلك الدرس الذي يمكن تلخيصه في «يا نعيش سوا عيشة فل.. يا نخربها إحنا الكل».

أكثر ما يمكن أن يلهمك في هذه الأيام الخنيقة التي تمر بها البلاد كلمات المفكر الثوري علي شريعتي في كتابه الرائع «بناء الذات الثورية» وهو يقول بعد تأمل طويل لتاريخ الثورات: «إن الإنسان لا يستطيع أن يبقى مخلصا وصادقا في ثورة اجتماعية حتى النهاية ووفيا لها، إلا إن كان ثوريا قبلها ومتناسقا معها، فليس الإنسان الثوري هو الذي يشترك في ثورة اجتماعية فحسب، فما أكثر الانتهازيين والمغامرين والنفعيين الذين يشتركون فيها، وهم جرثومة الانحراف في كل الانتفاضات، وفشل كل الانتفاضات من جراء اشتراكهم فيها، لأن الثوري قبل كل شيء جوهر أعيدت صياغة ذاته»، لذلك لا تراهن على أحد سوى على نفسك وأحلامك ومبادئك، فلن تنتصر هذه الثورة إلا بالقليلين الذين آمنوا بها قبل أن يروها، صدقني لن ننتصر

على كـذب الإخوان بمن يحنـون إلى كذب مبارك، لن نهزم اسـتبداد الإخـوان بمن يترحم على أيام اسـتبداد حبيب العادلي، لن نغير واقعنا بمن يرى أن أحمد شـفيق كان أحسن لأنه كان «هيلم كل الأشكال دي ويرميها في السـجون»، فمن يقول هذا شـخص مصاب بغيبوبة فكرية تمنعـه مـن إدراك أن أي قمـع مسـلح للإسـلاميين سـيُدخل مصر إلى سيناريو مظلم تخبطت فيه دولة مثل الجزائر لأكثر من عقد من الزمان، صدقني لن ننتصر إلا عندما يعيد كلٌّ منا بناء ذاته الثورية وننجو من آفة الزيـاط الثوري التي تجعل بعضنا يجبن عن مواجهة الواقع بما فيه من عـك وتناقضات وأخطاء بمـا فيها الأخطاء التـي نرتكبها والتناقضات التـي نقع فيها، لأننا إذا هربنا من تلـك المواجهة فلن نكون قد اختلفنا عن الخرفان الذين نسخر من إدمانهم لنطاعة السمع والطاعة.

أنـت يائـس، ومالـه؟ مجهد؟ ليس عيبـا، اتخنقت؟ ومـن منا ليس كذلـك؟! اليأس ليس عيبا، ليس خيانـة كما نحب أن نقول أحيانا لكي نحمـس بعضنا البعض، لا تستسـلم لمن يلعن اليـأس، ولا لمن يروج للأمل، لا تستسلم لمن يقول أي شيء، بما فيه ما أقوله أنا، يمكن فقط أن تتذكر «أبونا» صلاح جاهين وهو يجيب قرار الحياة بقوله: «صبرك ويأسـك بين إيديـك وإنت حر.. تيأس مـا تيأس الحيـاة راح تمر.. أنا شـفت من ده ومـن ده عجبي لقيـت.. الصبر مُرّ وبرضـك اليأس مُرّ»، فاختر لنفسـك ما شـئت، ونم على الجنب الثوري الذي يريحك، لكن لا تسـتهن بقوة اليأس أبدا، فلولا اليـأس ما انفجرنا في ٢٨ يناير، ومن يدري.. ربما كان اليأس أملنا الوحيد الآن، وربما لا، الله أعلم.

(٢)

عندما تتعدد الاجتهادات، وتتضارب الاختيارات، وتتناقض التفسيرات، وتترطط الجبهات، وتبدو كل الروايات مقنعة، «فُكّك» من كل هذا واتبع قلبك، فلن ينجيك غيره، لا يعني هذا أن تلغي عقلك، على العكس.. في أيام كهذه لن يستجيب عقلك لأي محاولة إلغاء، وسيظل يعمل طيلة الوقت بشكل مرهق، وستكون محاولة تعطيله الكاملة غباوة مفرطة ومضيعة للوقت والجهد، كل ما في الأمر أنك محتاج لأن يكون قلبك هو صاحب القرار، فنحن في أيام يسهل فيها أن يضل العقل ويزل الإدراك ويصبح الحليم حيرانا ويمسي الحيران ملدوعا.

لذلك تذكَّر أن الثبات الانفعالي سلاحك الوحيد للبقاء في قارب النجاة الذي يصارع الأمواج العاتية، ولن يساعدك على ذلك سوى التشبث بمجدافين: الفهم والسخرية، إذا كنت قد وصلت إلى قارب النجاة ولم تغرق أصلا فتذكر أنه لن يصل إلى بر النجاة الذي هو موجود بالتأكيد في مكان ما لا نراه الآن سوى من يتمسك بالفهم والسخرية، لأن الاكتفاء بمجداف السخرية وحده بلاهة واستخفاف بالخطر، والاكتفاء بمجداف الفهم وحده سيفضي بك إلى الاكتئاب وكسر المجداف ولبسه، والسخرية هنا بالغة الأهمية لأنها ستذكرك دائما أن كل ما تصل إليه من فهم للعاصفة التي تصارعها ليس سوى استنتاج مبدئي قابل للمراجعة مع أول هجوم لموجة شاهقة العلو تهدد بقلب المركب رأسا على عقب.

أهـم ما يجب أن تنتبه إليه الآن أن الظروف حكمت عليك أن تركب فـي نفـس المركب إلى جـوار كثيرين يقومـون بالتجديـف معك بنفس الهمة بحثا عن بر النجاة، لكن أول ما سـيفعلونه فور الوصول إليه قتلك أو تسـخيرك لتكون عبد الجزيرة الأول، للأسف هذه هي الحقيقة المُرة التي أوقعتنا فيها الغباوة الإخوانية والتي لا بد من أن نواجه أنفسنا بها كل حين، نعم، نحن الآن نقاتل ببسـالة ضد الاسـتبداد الإخواني إلى جوار كثيريـن، أغلبهم يحلمون بالإجهاز على هذه الثورة وثوارها بعد تحقيق النصر، ليس لديك للأسـف خيار ترك المعركة ورمي نفسك في البحر، لأن الشـهادة أكثر شـرفا من الانتحار العاجز، وضميـرك لن يقبل بخيار رمي المجداف والاستسـلام للمصير المجهـول، لأن الطرف الآخر لو حقـق النصر سـتكون أنت أيضـا هدفه الأول، فأنت وحـدك الذي تهدد الجميـع في هذه البلاد، فلولاك لاسـتمروا في التعايش مع الخرابة التي ألفوا عفونتها وعرفوا مداخلها ومخارجها واتخذوها مستقرا ومستودعا، لذلك ليس أمامك سـوى خيار وحيد أن تأخـذ دائما زمام المبادرة على متن المركب وأنت تقاتل بكل شرف وذكاء من أجل ما خرجت مضحيا بروحـك من أجله في الثامن والعشـرين من ينايـر ٢٠١١، وأن تحرص علـى إعـلان أهدافك ونواياك دائمـا وأبدا؛ لأن ذلك هو وحده السـبيل الذي سيجعلك تتبين عدوك من حبيبك.

أهـم مـا سـيجعلك تكسـب هـذه المعركـة أن تتذكـر أنهـا حرب تحريـك لا حـرب تحريـر مـن أجـل أن يعـود الجميـع إلـى مواقعهم يوم ١١ فبراير ٢٠١١، نعم هي ليسـت حرب تحرير وإن ادعى البعض ذلك، لأنه لا أحد يمكن أن يحرر الوطن من بعض أهله، حتى لو كانوا

يحملـون أفكارا تراهـا متخلفة وخطيرة وغبية، مـن المهم أن تنتبه إلى هذا المعنى وسط هوجة الزياط الثوري التي يتصور فيها البعض أنه لن يكسـر اسـتبداد الإخوان إلا استبداد أشد غشومية، دون أن ينتبه إلى أن استبداد السـتين عاما الماضية فشل في تعرية الإخوان وإرباكهم مثلما فعلت أشـهر قليلة من الحرية، صدقني ستكون هذه المعركة شريفة لو خضتها وأنت تخاف على دماء خصومك مثلما تخاف على دمك، هذه معركـة هدفهـا تنبيه الأغبياء إلى أنه لن يسـتولي أحـد على هذا الوطن بمفـرده، هذه معركة لن ينتصر فيها الباغي والمعتدي وسـافك الدماء، لـن ينتصر فيها إلا صاحب الحق الذي يمتلك منطقا إنسـانيا لا يتعالى علـى أحـد ولا يسـعى لإلغـاء أحد، لـن ينتصر فيهـا إلا من يـدرك أننا نحارب ضد الاسـتبداد والكذب واسـتغفال الشعب، وليس ضد فكرة نكرههـا أو نختلف معهـا، لأن الانتصار على الأفكار لن يكون بحرب الشـوارع ولن يكون بأحـلام القمع المريضة، الحلـم بالعدل والحرية والكرامـة هـو وحده ما نصر هـذه الثورة على مبـارك وجنوده، وهو ما جعل الملايين يخرجون دعما لها، وجعل الملايين يكفون أذاهم عنها يومـا بعد يوم، مع أنهم كانوا يـؤذون هذه الثورة بقوة في بدايتها، لعلها مناسـبة لتذكيـرك بأنه من المهم أن تفيق من وهـم أن هذه الثورة كانت منذ البداية ثورة الشعب المصري كله، فقد كانت ثورة أحرار المصريين فقـط، وقد لاقوا فيها عنتا من العبيد كالـذي لاقوه من الجلادين، لكن لحسن الحظ أن عدد الأحرار كان كافيا لكسر كل تحالفات الجلادين والعبيـد، ولذلك عليـك أن تتذكر أنك لا يمكن أن تنتصر في معركتك مـن أجل الحريـة دون أن تحمي ظهرك من عبيد قد يحاربون معك من

أجل مصالحهم، بينما فلسفتهم في الحياة تتلخص في عبارة من نوعية «إحنا شعب ما يجيش غير بالسك على قفاه يا باشمهندس».

من المهم وسط كل هذه التقلبات والصراعات ألا تفرح أبدا بالمزايدات التي يعدها البعض فاكهة هذا الموسم، لأنك يمكن أن تكون ضحية للمزايدات بين لحظة وقفاها مهما غاليت في التنطع والزياط، فتقلبات الخلق أيام الثورات ظاهرة علمية لا ينجو منها أحد، المهم أن تحرص على أن تكون صادقا مع نفسك ودائم النقد لها، لأن ذلك وحده الذي سيعزيك ويحميك ويقويك عندما تتعرض للمزايدة، فأنت مثلا لن تكون أجدع من بطلين من أبطال الثورة العرابية مثل أحمد عرابي ومحمد عبده، وهما لم يكونا على وفاق أبدا في منهجهما وتفكيرهما، ومع ذلك أكلتهما سويا تقلبات الخلق أيام الثورات، أو من يدري ربما تكون أجدع منهما، الله أعلم.

(٣)

«إنما الأمر في نظري أن مسائل الحياة لا تجري على المنطق دائما، وخاصة أيام الثورات، وحوادثنا القريبة في ثوراتنا الحديثة أكبر شاهد على ذلك، فكم انتقل رأي الكبراء من ناحية إلى ناحية تحت تأثير تيار الرأي العام؟!». هذه العبارة البليغة كتبها المفكر العظيم أحمد أمين في كتابه «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» وهو يروي سيرة الإمام محمد عبده وموقفه من الثورة العرابية الذي بدأ بكراهية مفرطة

لأحمد عرابي الذي كان يراه رجلا بالغ الضرر على المصريين لأن حلمه الثوري سيجهض الحلم الإصلاحي الذي كان يسعى إليه محمد عبده بشتى السبل، كان محمد عبده متشككا في جدوى الثورة العرابية، مع أنه كما يقول أحمد أمين كان بدعوته الإصلاحية «سببا بعيدا من أسبابها، ولم يكن سببا قريبا كعبد الله النديم... لكن شكه فيها استمر حتى رأى كل الأمة في ناحيتها، فاشترك فيها المسلمون والأقباط واليهود، ولم يصبح الأمر أمر حزب أمام حزب، بل أمر مصر أمام الإنجليز»، هنا انضم محمد عبده إلى الثورة متأخرا، لكنه دفع ثمن ذلك غاليا، حيث حوكم وسُجِن ونفي خارج مصر، تماما كعرابي الذي ظل محمد عبده يلومه دائما على مواقفه العنيدة المتصلبة، لكن أعداء الثورة عندما قاموا بكسرها لم يفرقوا بين الإصلاحي والثائر، لم يفرقوا بين من كان مع الثورة من بدايتها ومن انضم إليها متأخرا، بل سعوا للقضاء على الثورة وكل من ارتبط بها، لكن الثورة العرابية برغم انكسارها بقيت كفكرة، ونجحت بعد مرور سنوات قليلة في أن تتغلب على اتهامها بأنها هوجة عابرة، لتنبعث ثانية في وجدان المصريين، ولينصف الزمن فرسانها، كلٌّ حسب دوره وجهده وعطائه، ولتبقى سيرتها ملهمة للثائرين بكل بطولاتها العظيمة وأخطائها الجسيمة أيضا.

هل تُلهم سيرة الثورة العرابية كل من جمّعت الثورة على مبارك شتات نفوسهم ثم فرقتهم فراقا يبدو ألا رجعة فيه، فيدركوا أنه لا خلاص لنا سوى أن نعود إلى مواقعنا يوم ١١ فبراير ٢٠١١ أو نهلك جميعا. إذا كانت حموضة الليمون قد أهلكتك، فلن ألومك إذا تخيلت أن هذه دعوة توافقية بنكهة الليمون، مع أنها دعوة واقعية

بنكهة العلقم، أظنها سبيلنا الوحيد للنجاة، لأن سفينة الثورة إذا غرقت فلن ينجو منها أحد، سواءً كان من صُناع السفينة وملاحيها أو من الذين ركبوها متأخرين وحاولوا الاستحواذ عليها، الكل وقتها سيغرق، الإصلاحي والجذري والمندفع والزيّاط، ولن ينفع أحد ظنه أنه وحده «الثائر الحق» أو «الثائر اللي على حق»، لأن الحق قد يكون أبلج كما ذكّرنا «السلطان الخائر» محمد مرسي، لكن طريق الوصول إلى الحق لجلج ومتعدد ومُجهِد ومُربك، وكلٌّ يدعي وصلًا به وامتلاكا له، لكن قالها من قبلنا فؤاد حداد فأعجز من بعده «غير الدم ما حدش صادق».

لست من المغرمين بتلك النغمة الخبيثة التي تقوم بتوزيع مسئولية الدماء التي سالت منذ الإعلان الدستوري المشموم على الحكومة والمعارضة والقوى الثورية، فقد قلتها عقب اليوم الأول الذي سالت فيه الدماء أمام قصر الاتحادية «إما أن يخرج حسني مبارك من السجن وإما أن يلحق محمد مرسي به»، فلا يتحمل مسئولية الدماء التي سالت بسبب كذبه وفشله إلا هو، لذلك لا زلت أرى أن أكثر المخارج أمنا لما نحن فيه أن يسحب محمد مرسي نفسه من المشهد بنفسه، ليتوافق الجميع على الدعوة إلى انتخابات رئاسية مبكرة تعقبها انتخابات نيابية تجريان في ظل حكومة انتقالية محايدة، على أن يتم إجبار جماعة الإخوان على التقنين الفوري لأوضاعها والخضوع للمحاسبة والرقابة، لأن ذلك وحده الذي سيجنبنا ما قد يجعل الدم دائما بفعل استفحال حالة الكراهية التي تسري في عروق الوطن، والتي جعلت الكثيرين يتخيلون أن هناك قوة مسلحة يمكن أن تحميهم من بعضهم

إلـى الأبد، وتكـون بديلا عن اضطرارهـم إلى التعايش سـويا دون أن يجور بعضهم على بعض.

أعلـم أنك غاضب وحزيـن وقرفان مـن شـعورك بالخديعة، لكن صدقنـي.. لن تخفي الكراهية وحدها خصومك من الوجود، لو كانت أفـران الغـاز قد نفعـت المجحوم هتلـر، لما كان البشـر المسـكونون بالكراهيـة قد تأخروا فـي تعميمها في جنبـات الأرض، ولو كان زرار البلوك الـذي يريحنا في مواقع التواصل الاجتماعـي واقعا حقيقيا لما خلـق الله الإنسـان فـي كَبَـد، ولذلـك وإن كان ١١ فبرايـر حلما بعيد المنـال، فهو أبرك وأَحَنُّ وأرحم من تواريخ غامضة في علم الغيب إن تُبدَ لكم تسؤكم.

ليس محمد مرسـي أقصى همنا، لأنه كما قلت مرارا: «سـقط وإن اسـتمر»، فكروا في مسـتقبلنا الذي لن يستطيع أحد فيه أن يلغي أحدا، ودعوا مرسـي يسـتمتع بفقاعـة الخدر اللذيـذ التي تغلفه بهـا جماعته البائسة وأجهزته التعسـة، فيوقن كوزير داخليته بأنه لم تنطلق رصاصة لتقتـل أحدا منـذ ٢٥ يناير، ويظـن أن مجرد ذهابه إلـى القصر كل يوم يعنـي أنـه ممسـك بمقاليد الأمـور، دعوه فـي أوهامـه، فالواقع وحده سـيجعله يدرك ربما بعد فـوات الأوان وربمـا قبله أنه يصنـع كل يوم عدوا لنفسـه ولجماعته وطريقتها في التفكير والممارسـة، وأن الطاقة السـلبية التي تضطرم في صدور الناس بسبب بقائه على كرسي الحكم سـتجعل من كل الدولارات المقترضة والممنوحة والموعود بها هباء منثورا، لأن العنف غير المشـبع سـيواصل انفجاراته مجهولة التوقيت

مدمرة الأثر، ولن يخرجه من جسد الوطن إلى غير رجعة سوى منفذ وحيد هو العدالة والمصالحة الوطنية.

أمام مرسي خيار آخر غير الرحيل، لكنه سيكون أصعب بكثير على نفسه، وهو أن يُضَحِّي بخيرت الشاطر، أعني خيرت الشاطر «الفكرة والعقلية والممارسة»، فلا يعنيني شخص خيرت الشاطر في شيء، لكنني أظن أن مرسي سيواصل التشبث بذيل خيرت «الفكرة والعقلية والممارسة» ليكملا سيرهما بجماعتهما نحو المجهول، أما الوطن فمصيره معلوم وإن حجب رؤيته ضباب الكآبة الكثيف: الأوطان تبقى دائما، والمستبدون الأغبياء بعضهم يهلكون، وبعضهم يبقون ليواصلوا محاولة تحقيق أحلامهم البلهاء في الاستحواذ والمغالبة والتكويش.

عودوا إلى ١١ فبراير يرحمكم الله.

(نشرت هذه الرسائل على ثلاثة أيام في صحيفة الشروق (١١، ١٢، ١٤ مارس ٢٠١٣)، ولعلي لا أعرف لنفسي كتابة أحب أن يتذكرني الناس بها مثلها، فإن تذكرتها أو ذكّرتك بي يوما ما فلا تنسني من خالص دعائك، ولا تنس مصر من صادق عملك، ولا تتوقف أبدا كلما عجزت عن فهم الواقع من اللجوء فورا إلى فتح بطن التاريخ).



في هذا الكتاب ستجد محاولات لفتح بطن التاريخ وإنعاش الذاكرة ومقاومة النسيان نشرتها متفرقة على مدى سنوات، وبالطبع لم تغير من الواقع قيد أنملة، رغم أنها نشرت في صحف واسعة الانتشار، وبالطبع أيضا ليس عندي قيد أنملة من الظن أن تساهم في تغيير الواقع عند جمعها وطبعها في كتاب؛ لأن طبع النسيان يغلب التطبع والطباعة، ومع ذلك فغاية ما أتمناه أن تلفت فصول هذا الكتاب انتباهك ولو قيد أنملة إلى بعض ما جعل تاريخنا يَبِيض نفسه من فرط الإعادة، فيدفعك لأن تساهم في إيقاف تلك الإعادة الخنيقة بتغيير الواقع من حولك ولو قيد أنملة، إذ لربما جاء على مصر زمان يمسك فيه أحد أبنائك أو أحفادك بهذا الكتاب يوما ما ليقرأه، فيشعر بالفرحة العارمة لأن الواقع الذي يعيش فيه تغير كثيرا عن واقعنا اليوم، ولو حتى قيد عشرين ثلاثين... قول أربعين أنملة.
ربنا كريم، ومصر تستاهل.



دار الشروق
www.shorouk.com